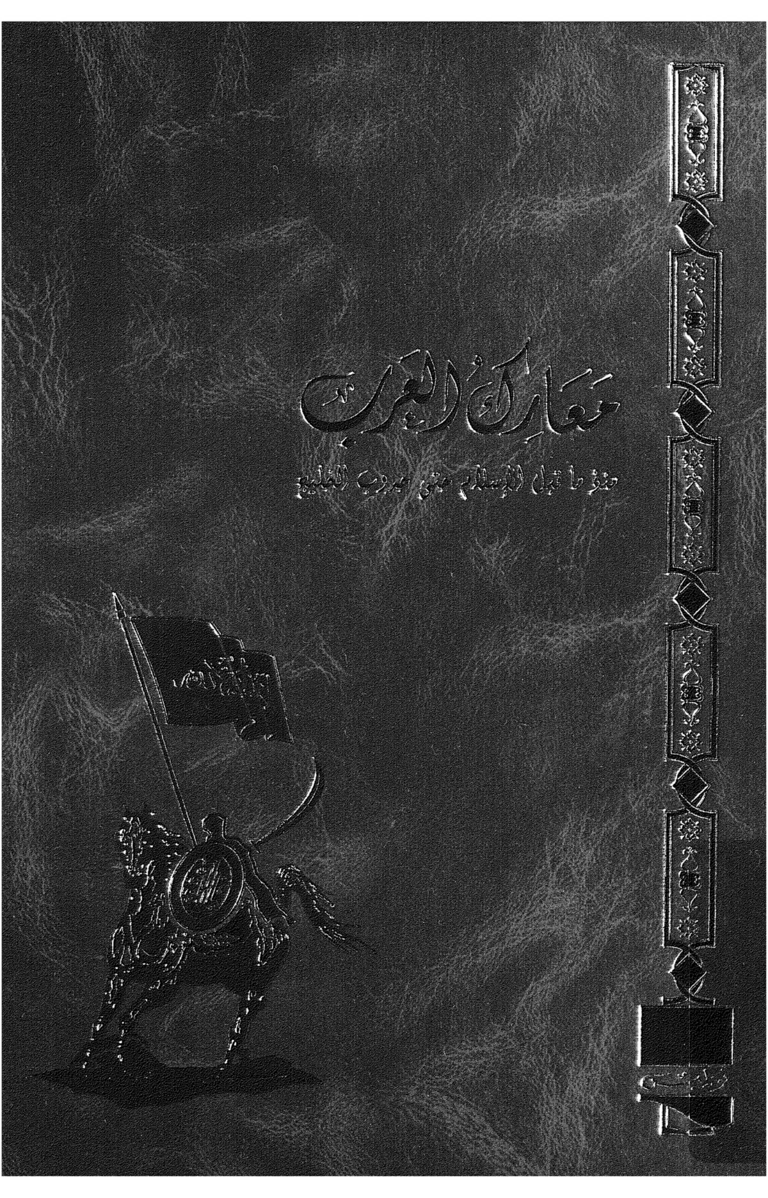


مَعَارِكُ العَرَبِ

منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب 19

اسم الموسوعة	:	معارك العرب
		منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	عصر الإمارة الشهابيّة -1-
المؤلّف	:	العميد الركن أبو طلال الفغالي
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	208
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن أبو طلال الفغالي

ماجستير في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (19)

عصر الامارة الشهابية -1-

NOBILIS
2007

القسم الأول

معارك الأمراء الشهابيين العسكرية

حتى

تسلّم الأمير بشير الثاني الكبير الحكم

(١٦٩٨ - ١٧٨٨)

المقدمة

على أنقاض الإمارة المعنية في بلاد الشام قامت إمارة جديدة شهابية، لأن بين الأسرتين قربى ووحدة حزبية قيسية أوثقتا الارتباط بينهما منذ القدم، وحولتاهما شبه جبهة دائمة على اختلاف الدار.

بعد وفاة آخر أمير معني من دون عقب، اجتمع أعيان جبل لبنان للمشورة في مرج السمقانية في منطقة الشوف لاختيار حاكم جديد، وعهدوا إلى الأمير بشير الشهابي من وادي التيم وابن أخت الأمير المعني أحمد، بأن يلي الإمارة. وهكذا انتقل الحكم المذكور من أسرة إلى أخرى بانتخاب لبناني، وليس بتعيين السلطان العثماني. وقد لوحظ أن المجتمعين في مرج السمقانية للمشورة كانوا زعماء الحزب القيسي وحدهم من دون الحزب اليمني. لقد أتى الشهابيون من وادي التيم إلى جبل لبنان لتولي الحكم، وكانوا من الإسلام السنّة. نذكر أن الأعيان الذين انتخبوا الأمير الشهابي حاكماً على الجبل كانوا من الدروز، مما يستدعي القول إن الاختيار هذا كان البرهان القاطع على انعدام وجود الطائفية السياسية في إمارة جبل لبنان.

والشهابيون هم عائلة عربية جاءت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، ويقال إن جدهم الملقب «بشهاب» شهد مع النبي محمد (ﷺ) واقعة «حنين» السنة ٦٢٢، وأيضاً يوم «بدر» السنة ٦٢٤. وفي بداية العصر الإسلامي، كلّف الخليفة أبو بكر الحرث جدّ الشهابيين بقيادة بني مخزوم تحت علم «أبو عبيدة»، وقد قتل في حصار دمشق، فعيّن ولده مالك

«شهاب» مكان أبيه، فانتقل بعشيرته إلى حوران بناءً لأوامر «عمر» لمساعدة القوات العربية الآتية من الحجاز. بعد ذلك والى الشهابيون صلاح الدين الأيوبي، عندما هاجم بلاد الشام فكانوا يعضدونه على محاربة الفرنجة، وكان صلاح الدين يستعملهم في مقدّمة جيشه.

أتى الشهابيون إلى وادي التيم من أعمال لبنان واستولوا عليها من الفرنجة وحكموها بطريقة الوراثة حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكذلك جبل لبنان.

لقد لعب الشهابيون دوراً كبيراً، وكبيراً للغاية، في حكم إمارة الشوف إذ برز العديد من أمرائهم، فوسّعوا إمارتهم على حساب المقاطعات المجاورة من بلاد الشام، فكانوا تارة يصطدمون بالولاة العثمانيين وتارة يمالقونهم للمحافظة على حكم الإمارة. وأشهر أمرائهم كان الأمير حيدر الذي قضى على الحزب اليمني نهائياً في معركة عيندارة السنة ١٧١١، والأمير يوسف الذي اصطدم بأحمد باشا الجزار والي عكا وكانت نهايته خنقاً في تلك المدينة على يد هذا الوالي، ومن ثم الأمير بشير الثاني الكبير الذي حكم لبنان مدة ٥٢ سنة وانتهى به حكم الشهابيين بعدما سلّم نفسه إلى العثمانيين إثر أحداث كبيرة في بلاد الشام، كان فيها حليفاً لمحمد علي باشا والي الديار المصرية، السنة ١٨٤٠ وبعد ثورة اللبنانيين عليه وعلى والي مصر. لقد وقعت معارك كثيرة بين الأمير بشير والعثمانيين، وبينه وبين الإقطاعيين المجاورين لإمارته أو في داخلها. وكانت قوة جيشه يحسب لها الحساب الكبير لذلك استعملت السلطنة العثمانية في بلاد الشام سياسة «فرّق تسدّ» وقد نجحت في ذلك إذ أغرقت المنطقة في مذابح طائفية لم تنته منها إلاّ العام ١٨٦٠. في هذه الحقبة اختفى صراع الأحزاب القديم وصراع الاتجاهات السياسية، وحلّ صراع مميت على خلفية الشعور الديني الذي ولّد الأهواء السياسية وشكّل غذاءً جديداً للتعصّب والتطرف. لقد أرادت السلطنة العثمانية التخلص من نفوذ القبائل في بلاد الشام بغية السيطرة التامة والنهائية على هذه البقعة من العالم، ولكن حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر. ففي السنة ١٩١٦ قامت الثورة العربية الكبرى ضدها وتخلّص العالم العربي منها نهائياً السنة ١٩١٨ بعدما استعمرت بلاد الشام نيف وأربعة قرون من الزمن.

الفصل الأول
لمحة تاريخية عن الأمراء الشهابيين منذ وصولهم إلى الحكم حتى إقالة آخر أمرائهم ونفيه إلى استنبول (١٦٩٨ - ١٨٤٢)

١ - وصول الأمراء الشهابيين إلى الحكم في لبنان

يبدو جليّاً من خلال مجرى الأحداث أنّ الحزب القيسي كان مسيطراً في شكل كاسح على الإمارة المعنية، عندما توفي الأمير أحمد آخر الأمراء المعنيين من دون عقب السنة ١٦٩٧. فابن الأمير كان قد توفي في حياته، أما ابنته فكانت متزوجة من حاكم حاصبيا الأمير موسى شهاب، وأخته من أمير راشيا حسين شهاب، الذي كان عميد عائلته. إلى جانب الأمير أحمد المعني في الشوف كان الأمير حسين ابن الأمير فخر الدين الثاني المعني لا يزال على قيد الحياة ومقيم في خدمة السلطان العثماني في اسطنبول، وله «فيها ذرية ما زالت حتى ذلك الزمن وأخبارها مقطوعة»[١]. ويقال إن الأمير حسين هذا عين من قبل السلطان العثماني حاجباً في اسطنبول في البلاط، فرئيساً للحجاب، فسفيراً في الهند[٢].

كانت عائلة شهاب الأكثر قرباً من المعنيين بفضل المصاهرة والقربى. وفور وفاة الأمير أحمد المعني تداعى أعيان الإمارة المعنية الذين لهم منذ القدم الحق في انتخاب

---

(١) بازيلي، سوريا ولبنان، وفلسطين تحت الحكم التركي - دار الحداثة - بيروت ١٩٨٨، ص٥٨.

- طوني مفرج، لبنان الأصيل ليس طائفياً، بيوغرافيا، جبيل - لبنان ١٩٩٩، ص٢٩٣.

(٢) الصليبي كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٩، ص٣١.

الأمير الحاكم من الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والشحار والمتن والغرب، إلى اجتماع عقد في مرج السمقانية، بين بلدتي دير القمر والمختارة في الشوف، للبحث في اختيار أمير حاكم[1]. وقد توافق الجميع على أن يكون الأمير بشير الشهابي، حاكم راشيا وابن أخت الأمير أحمد المتوفى آخر الأمراء المعنيين، حاكماً على إمارة الشوف. ورغم أن الأعيان الذين انتخبوا الأمير بشير حاكماً على الجبل كانوا من الدروز والأمير الحاكم كان مسلماً سنياً، مما يستدعي القول أن الاختيار هذا كان البرهان القاطع على انعدام الطائفية السياسية في الإمارة، علماً بأن ذلك الخيار يعني توارث الإمارة في ما بعد ضمن الأسرة نفسها[2].

وتقول بعض المراجع إن الأمير أحمد المعني، قبل وفاته، كان قد أبدى رغبته في أن يكون وريثه في الحكم الشيخ قبلان القاضي الذي لا يمتّ له بصلة نسب[3].

بعد انتخاب الأمير بشير أعلم المجتمعون نتيجة قرارهم إلى مصطفى باشا والي صيدا، ثم أرسلوا إلى راشيا وفداً يطلب باسمهم من الأمير بشير إدارة الإمارة. وافق الأمير بشير على هذا الاختيار وعيّن مكانه في راشيا أحد أقاربه الأمير منصور، ثم انتقل مع الوفد إلى دير القمر حيث تسلّم منصب الإمارة بحضور كل الأعيان ولم تمنع معارضة الحزب اليزبكي والأرسلانيين وآل عماد وعلم الدين، هذا الاختيار، رغم رسائلهم الاعتراضية إلى والي صيدا، الذي وافق على من اختاره الأعيان حاكماً على الجبل شرط أن يدفع الأمير الجديد ديون سلفه المستحقة للدولة «العلية».

أفاد والي صيدا مصطفى باشا الباب العالي بما قرّره الأعيان اللبنانيون في مرج السمقانية، فوافق على أن يكون الأمير القاصر حيدر شهاب، حفيد الأمير أحمد المعني من ابنته، حاكماً للامارة معترفاً فقط بحاكم راشيا،

(١) بازيلي، ص٥٧.
- مفرج، ص٢٩٣.
(٢) مفرج، ص٢٩٣.
(٣) عباس أبو صالح، التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان، بيروت ١٩٨٤، ص٣٥.

الأمير بشير، أميراً على الجبل بصفته وصياً على الأمير القاصر ووليا ريثما يبلغ سن الرشد. وهذا الأمر ينسب إلى مسعى الأمير المعني حسين، الناجي الوحيد من عائلة الأمير فخر الدين الثاني المعني والمقيم في خدمة السلطان في استنبول[1]. والله أعلم.

وهكذا في السنة ١٦٩٨ تسلّم الشهابيون حكم الإمارة ونقلوا معهم إلى جبل لبنان «عاداتهم القديمة والمميّزة، الصراعات العائلية، تقاتل الأخوة، نشر النزاعات بين التابعين لهم من المقاطعجية تثبيتاً لسلطتهم، الوشايات والترضيات للباشا الوالي إن كان في صيدا أم في الشام، زيادة الضرائب، المزايدة والمنافسة لتحطيم المعارضين. وهذا السلوك هو الذي أمّن النجاحات للجبروت العثماني في بلاد الشام وخاصة في لبنان، دون أن ينجّي الشهابيين من المصير الذي سيطال أحفادهم...». استمر القيسيون أرباب أرض الإمارة في الشوف، بينما لجأ اليمنيون إلى دمشق[2].

ومهما يكن من أمر، فانتقال الحكم من المعنيين إلى الشهابيين سيكون له التأثير المهم والقاطع على مجرى تاريخ هذه المنطقة خلال القرون اللاحقة المتتالية، وعلاوة على ذلك سيكون عاملاً مهماً في التطور السياسي والجغرافي للمقاطعات اللبنانية على طول الحقبة الزمنية التي نقلت هذه المقاطعات نحو الكيان اللبناني الحالي[3].

٢ – لبنان بين القيسية واليمنية

٢١ – نظرة عامة:

في العام ١٤٥٣ حقّق العثمانيون الأتراك حلماً عظيماً هو احتلال القسطنطينية من قبل السلطان محمد الثاني الفاتح، وهو حلم كان يراود كبار الخلفاء والسلاطين منذ العهد الأموي حتى أيام العثمانيين. وكانت لسقوط القسطنطينية نتائج هامة، منها التأثير النفسي في البلدان الإسلامية، والأمل بأن العثمانيين سيوحّدون العالم الإسلامي

(١) بازيلي، ص٥٨.

(٢) طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٠، ص٣١١.

(٣) ياسين سويد، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين - ج٢، الإمارة الشهابية، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٥، ص٣٥٠.

ويقودونه بدلاً من السلطنة المملوكية، إلى أوج العزّ والسؤدد.

في العام ١٤٠٠، وبعد الغزو المغولي لبلاد الشام، نزح عدد كبير من سكانها إلى الجبال اللبنانية طلباً للأمان، مما أدى إلى امتلائها بالناس، وراح الإقطاع يتحوّل إلى عائلات إقطاعية مستمرة، تتوارث عملها من دون أن يكون هناك حق بالتوريث. وتحوّل الإقطاعي صاحب سلطة لأنه يقوم بمهام الدولة. وتحوّلت العائلات الإقطاعية حكومات محلية مصغرة، تتحالف وتتناحر وفقاً لمصالحها الخاصة وليس تحقيقاً لمصالح الدولة. وقد تميّزت هذه الحكومات الإقطاعية في لبنان عن بقية مناطق الإقطاع المملوكي بطابع طائفي، ولكنه سرعان ما امتضه الصراع القيسي اليمني الذي رسم الخط السياسي لتاريخ لبنان من العهد العثماني.

٢٢ - الصراع القيسي - اليمني عند بزوغ فجر الإمارة الشهابية (١٦٩٨):

انقسم مجتمع الإمارة المعنية انقساماً حزبياً، لا طائفياً كما على أيام المماليك بين الحزبين القيسي واليمني، وانضوت العائلات اللبنانية، من مختلف الطوائف ومن دون حساسيات مذهبية أو إتنية، تحت لواء هذين الحزبين الوحيدين آنذاك.

تعود القيسية واليمنية في أصولهما إلى عرب الجاهلية في الجزيرة العربية. وقد كانت قبائل «نزار» و«تميم» و«مضر» و«ربيعة»، قيسية. أما اليمنية فقد استقطبت أغلبية القبائل التي نزحت من جنوبي الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشام وخرسان وعلى رأس هذه القبائل كانت قبيلة «بني كلب» في الشام وقبيلة «الأزد» في خرسان. وعندما جاء الإسلام حمل معه في فتوحاته هذين الحزبين السياسيين. ففي البداية اشتد الصراع القيسي اليمني في العهد الأموي، وبعده في العهد العباسي. وانقسم الناس ووقعت الخلافات الدموية بينهم حتى شملت العالم الإسلامي كله، واستمرّ ذلك حتى معركة عين دارة في لبنان السنة ١٧١١، حيث انتصرت القيسية انتصاراً كاملاً مع الأمير خيدر شهاب وقضي على اليمنية قضاءً مبرماً.

غذّت السلطنة العثمانية هذا الانقسام السياسي وشجّعته مستفيدة من مبدأ «فرق

تسدّ»، فشمل الانقسام الناس من كافة المذاهب في المقاطعات اللبنانية وخارجها، ووقعت المناوشات الدامية الطاحنة بين الحزبين فدفع الأهالي ثمنها باهظاً.

لقد تحكّم الصراع القيسي اليمني بتاريخ الإمارة المعنية منذ نشأتها، وهذا التحكّم يؤكد أمرين اثنين: الأول أن السلطة المجزأة هي تعبير عن وضعية اجتماعية مفكّكة بين الأسرة الحاكمة، والثاني أن طبيعة الاجتماع السياسي هي طبيعة تعاقدية حول السلطة، أي يتعاقد الفرقاء حول السلطة من دون أن يذوبوا في بعضهم البعض. وهكذا فالقبائل العربية التي نزحت إلى لبنان واستوطنت فيه كوّنت مجتمعاً قبلياً، حيث السلطة تعود إلى شيخ القبيلة الذي كان يرفض تدخّل أي سلطة خارجية مع سلطته.

أما الصراع القيسي اليمني فانعكس على طبيعة الاجتماع السياسي في لبنان، فكل الذين تعاونوا مع الحزب القيسي أو اليمني تعاونوا تعاقدياً للوصول إلى السلطة. فالحاكم كان حكماً.

لقد اتخذ هذا الصراع الحزبي طابع العنف، وشمل بعض القبائل المجاورة خارج الإمارة ولبنان، مما سمح بتدخل الولاة العثمانيين المجاورين، من والي صيدا إلى والي الشام. وقد ظهر العنف في الوشايات بين الأمراء بعضهم على البعض للتفرّد بالسلطة والحكم.

ظهرت أولى بوادر هذا الصراع مع بداية وصول العثمانيين إلى بلاد الشام. وقصة خروج ناصر الدين ابن الحنش[1] ومعه أمراء من التنوخيين كآل علم الدين وغيرهم وأمراء من المعنيين، بالعصيان على الدولة ومحاولته الاستقلال والتمرّد في البقاع، مما أغضب السلطان سليم الأول الذي هزم هذا الاتحاد فقتل ناصر الدين وحليفه الأمير علم الدين وزالت الزعامة التنوخية اليمنية في الإمارة، وبرزت زعامة جديدة قيسية قائمة على تحالف الأمراء المعنيين في الشوف والأمراء الشهابيين في وادي التيم. ومن أبرز قادتها، ولعله الأول، كان الأمير فخر الدين المعني الأول.

(١) أمير صيدا والبقاعيين وشيخ العربان.

قاد هذا التحالف سياسة لبنان مدة طويلة من الزمن، أي حوالى ثلاثة قرون، كما وأنه فرض، إلى حد كبير، «الخطوط الرئيسية العامة لتاريخ لبنان الحديث».

والجدير ذكره أن الانقسام إلى قيسية ويمنية لم تشهده مناطق الإمارة التنوخية قبل العهد العثماني، كما وأن هذا الانقسام لم يكن نتيجة اختلاف الانتماءات العصبية للعائلات التي تمحورت حول الحزبين، بل لأسباب سياسية كان للعثمانيين دور في إذكائه[1].

٣ - الإمارة الشهابية في وادي التيم (١١٧٣-١٦٩٨)

الشهابيون هم عائلة عربية تعود ذريتهم إلى الأمير مالك الملقب «بشهاب» والده الحرث الذي عدّ من الصحابة، ويقال إنه حضر مع النبي محمد (ﷺ) ... والله أعلم، واقعة «حنين» السنة ٦٢٢، وأيضاً يوم بدر السنة ٦٢٤. وقد اشترك مع عشيرته في معارك أجنادين واليرموك ومرج العفر وغيرها. تزوج الحرث والد الأمير مالك فتاة من ذرية شهاب بن عبد الله القريشي تعود بالقربى إلى والدة النبي محمد (ﷺ)، وقد لقبت ولدها مالك «بشهاب» إكراماً لجده، وقد اتخذت ذرّيته لقب شهاب حتى يومنا هذا[2].

في الأصل سكنت هذه العائلة شبه الجزيرة العربية. وفي بداية العصر الإسلامي، في السنة الثالثة عشرة للهجرة، كلّف الخليفة أبو بكر الحرث بقيادة بني مخزوم تحت علم «أبي عبيدة بن الجراح» وقد قتل في حصار دمشق العام ٦٣٤. فعيّن الأمير مالك مكان أبيه. وفي السنة ٦٣٥، أمره عمرو بن الخطاب بأن يقوم بعشيرته إلى حوران لمساعدة القوات الآتية من الحجاز. تمركز مع عشيرته في قرية الشهباء في سوريا وحكم هذه المنطقة حتى وفاته العام ٦٦٦، وكان عمره ٥٢ سنة.

توالى على هذه الإمارة حتى العام ٨٦٧ الأمراء: سعد، قاسم، شهاب، محمد وقيس. بعد وفاة هذا الأخير تولّى ابنه عامر الإمارة

(١) حمزه، نايف، نديم - التنوخيون - دار النهار للنشر، بيروت، ص٢١٦.

(٢) الشدياق، ج١، ص٣٩-٤٠.

فقاتل القرامطة حتى انتصر عليهم في سهل أذرعات ولقّب بالأذرعي. بعد وفاته خلفه ابنه الأمير سعيد الذي بدوره حارب القرامطة أيضاً في حوران.

استمرّ الشهابيون في حكم منطقة حوران حتى السنة ١١٧٢، عندما اصطدم صلاح الدين الأيوبي، سلطان مصر، مع نور الدين زنكي سلطان الشام. وكان الأمراء الشهابيون يوالون صلاح الدين حين أتى إلى بلاد الشام. «وكانوا يعضدونه على محاربة الفرنج وكان صلاح الدين يجعلهم أمام عساكره».

لم يطل الوقت حتى تمّ الصلح بين السلطانين، لكنه لم يدم طويلاً، فوقعت النفرة بينهما مجدداً فخشي الأمير منقذ شهاب من نور الدين، فجمع عائلته ووجوه العشيرة وعقلاءها واستشارهم في «القيام من حوران فأجابوه مسلّمين وقاموا إلى صحراء الجسر اليعقوبي يرومون الذهاب إلى الديار المصرية، وكانوا عشرة أمراء... وعشائرهم خمسة عشر ألفا»[١]. عرض عليهم نور الدين الإقامة في دمشق فاعتذروا «عن سكن الأمصار لأنهم اعتادوا البادية... فقبل اعتذارهم وأذن لهم أن يقيموا حيثما شاؤوا..»[٢]. فقاموا إلى وادي التيم في لبنان ونزلوا في منطقة «الضهر الأحمر» من الكنيّسة إلى الجديدة.

كان الصليبيون قد استولوا على وادي التيم وتوطّنوا حاصبيا وحصّنوها بالمعدات الحربية وما يكفي من الجنود. فلما بلغهم نزول آل شهاب بعشائرهم في «الضهر الأحمر»، تحسّبوا لهؤلاء الطارئين الجدد، وقام قائدهم «كونتورا» حاكم حاصبيا بتجهيز قوة كبيرة لقتالهم بمساعدة حليفه حاكم قلعة الشقيف. حصلت المعركة بين الاثنين في ضواحي حاصبيا وتمكّن الشهابيون من دحر الصليبيين، فتوطّنوا حاصبيا وجعلوها عاصمتهم. هذا الانتصار الكبير من قبل الأمير منقذ الشهابي على الصليبيين، كان ثمنه من قبل نور الدين زنكي ومن ثم

(١) الشدياق، ج١، ص٤١-٤٢.
(٢) الشدياق، ج١، ص٤٢.

صلاح الدين الأيوبي، توليته وذريته إمارة وادي التيم[1]، تلك الإمارة التي توارثوها حتى منتصف القرن التاسع عشر.

في تلك الأثناء كان الأمير يونس المعني يحكم بلاد الشوف، ففرح مغبوطاً من شجاعة الأمير منقذ وصفاته القتالية، ودعاه لزيارته في «بعقلين» عاصمة إمارته، فلبى الدعوة وكانت حصيلة هذه الزيارة زواج ابنه الأمير محمد من «طيبة» ابنة الأمير يونس المعني وزواج الأمير يوسف ابن الأمير يونس من «سعدى» ابنة الأمير منقذ.

هذا الحلف الزواجي أدّى إلى تحالف نهائي ومتين بين العائلتين كان من نتيجته وصول الشهابيين إلى حكم إمارة الشوف السنة ١٦٩٨ بعد وفاة الأمير أحمد المعني من دون عقب.

في العام ١١٩٣ توفي الأمير منقذ شهاب عن عمر ٦٨ سنة، فخلفه على إمارة وادي التيم ابنه الأمير نجم، الذي كان قد زوّج ابنه عامر على ابنة الأمير سيف الدين بن يوسف المعني. توفي الأمير نجم في العام ١٢٢٥، فخلفه ابنه عامر، الذي في عهده حصل أول تحالف عسكري بين الإمارتين العام ١٢٤٠. وعندما هاجم الصليبيون مقاطعة الشهابيين في وادي التيم، استنجد الأمير عامر بأقاربه في الشوف، فلبّى الأمير عبد الله بن سيف الدين النجدة، وأرسل له جيشاً لمساعدته. وقع القتال بين الخصمين في سهل الخيام، بالقرب من مرجعيون، وكانت الغلبة أولاً للصليبيين بعدها تمكّن الأمير عامر من إحراز النصر عليهم فاستولى على المنطقة القريبة من وادي التيم. بعدها أقطعه صلاح الدين الأيوبي إقطاعات مهمة في البقاع[2].

في العام ١٢٥٨، توفي الأمير عامر وكان عمره ٦٠ سنة تاركاً إمارته إلى ابنه الأمير قرقماز، فاستخف به أقاربه الأمراء لأنه كان صغير السن وأرادوا قتله بحيلة، لكنه سبقهم ودخل إليهم في أحد الاجتماعات وقتلهم جميعاً، ثم قبض على الأمراء الباقين وأودعهم السجن ثم «استحضر الأمراء فحضروا مرتعدين وقطع أمامهم رؤوس عشرة

(١) الشدياق، ج١، ص٤٣.

(٢) الشدياق، ج١، ص٤٤.

من أصحاب الأمراء المقتولين فازدادوا رعدة». وحذّرهم من غرور الشيطان ثم أطلق سراحهم[1].

وفي الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول ١٢٨١ اشترك الأمير قرقماز في القتال ضد المغول إلى جانب السلطان سيف الدين قلاوون الألفي سلطان مصر وبمعيته أربعة آلاف خيال. وقعت المعركة في شمالي مدينة حمص، وكان عديد جيش السلطان حوالى الخمسين ألفاً، يقابله حوالى الثمانين ألفاً من المغول تحت قيادة «مونكاتمور» ابن هولاكو الشهير. استغرقت المعركة من الفجر إلى العصر وانتهت بانتصار السلطان سيف الدين ومقتل قائد المغول، وعاد الأمير قرقماز إلى بلاده مكرماً، تحيط به رايات النصر المبين.

توفي هذا الأمير في العام ١٢٨٧، فتولّى بعده أكبر أولاده سناً الأمير سعد. وما أن تسلّم الحكم حتى هاجم المغول وادي التيم، فلم يتمكن لوحده من احتواء الهجوم، فهرب إلى الشوف حيث التجأ عند أقاربه المعنيين وبقي هناك قرابة الخمسة أشهر، ثم عاد إلى إمارته في وادي التيم بعد انسحاب المغول من دمشق إلى حلب، فوجدها بلقعاً ودماراً، فنزل خارج حاصبيا «وشرع يرمّم المساكن وبقيت وادي التيم خراباً خمس سنين لم يعمّر بها سوى حاصبيا..»[2]، وتوفي الأمير سعد في السنة ١٣٢١ بداء الطاعون.

من السنة ١٣٢١ إلى السنة ١٤٠٦، توالى على حكم وادي التيم الأمراء: حسين، أبو بكر، محمد وابنه قاسم الذي اشترك العام ١٤١٤ في القتال ضد الفرنج الذين نزلوا بقواتهم على شاطئ الدامور.

اشترك الأمير قاسم إلى جانب السلطان المملوكي أبي الفتح داوود سلطان دمشق، والأمير أحمد بن عثمان المعني، أمير الشوف. وقد قاتل الأميران بكل شجاعة ورباطة جأش إلى جانب السلطان الذي أجبر الفرنج على الإبحار ثانية من الشاطئ، تاركين

(١) الشدياق، ج١، ص٤٥.
(٢) الشدياق، ج١، ص٤٦.
- سويد، ج٢، ص٣٥٤.

وراءهم عدداً كبيراً من رجالهم القتلى. عاد الأمير قاسم ظافراً إلى بلاده، حاملاً معه الكثير من هدايا وهبات السلطان المملوكي.

العام ١٤٤٢، توفي الأمير قاسم تاركاً حكم الإمارة إلى ابنه الأمير أحمد، الذي تزوج ابنة الأمير أحمد المعني أمير الشوف، فحكم وادي التيم حتى وفاته السنة ١٤٧٥، فخلفه ابنه الأمير علي. لكن عمه الأمير بكر شهاب حاك ضده مؤامرة واستطاع أن يلقي القبض عليه ويسجنه ويستولي على الحكم مكانه. غير أن الأمير علي تمكّن بعد ثلاثة أشهر من الهرب من سجنه، حيث التجأ إلى خاله يونس المعني أمير الشوف في بعقلين[1].

سكن الأمير علي في بعقلين حوالي السنة، كان خلالها يراسل سراً محازبيه وأنصاره في وادي التيم. لم يستطع الأمير بكر أن يحكم الإمارة كما يجب فكثر أعداؤه ومبغضوه، الأمر الذي أدى إلى تكوكب الناس حول الأمير الأصيل الذي شرع في تحضير حملة عسكرية قوية ليستعيد حكم إمارته. وهكذا ترك الشوف متجهاً إلى وادي التيم ولدى وصوله إلى القرعون في البقاع، انضم إليه حوالى المئة فارس من أنصاره واتجهوا جميعاً إلى أرض الإمارة. ولما بلغ الأمير بكر قدومهم طلب الأمراء والأهالي للنهوض معه للقتال، «فوعدوه أنهم يلحقونه ولم يلحقوه لسوء أعماله...» ولما وصل إلى بطحاء الشميسة، بين حاصبيا والقرعون، تلاقى الخصمان وأسفرت المعركة عن مقتل الأمير بكر بيد ابن أخته الأمير علي الذي استرجع حكم إمارة وادي التيم وسط الأهازيج والفرحة الشعبية.

في العام ١٤٨٨ توفي الأمير علي وخلفه ابنه الأمير يونس الذي حكم الإمارة حتى وفاته السنة ١٥٠٢، فتولّى ابنه الأمير منصور الذي أكد تحالف عائلته القديم مع الأمراء المعنيين، فقام بزيارة الأمير فخر الدين المعني الأول في بعقلين حيث جدّدا سوية وثاق الصداقة والتحالف بين العائلتين. هذا التحالف قادهما إلى ترك سلطان المماليك

(١) سويد، ج١، ص٣٥٥-٣٥٦.
- الشدياق، ج١، ص٤٨.

قانصوه الغوري العام ١٥١٦، أثناء معركة مرج دابق، والانتقال إلى صفوف الجيش العثماني الزاحف إلى بلاد الشام بقيادة السلطان سليم الأول الذي كافأهما بأن ترك لكل منهما حكم المقاطعة التي كان يتولاها أثناء حكم المماليك، كما أنه منح الأمير فخر الدين المعني لقب «سلطان البر»[١].

في العام ١٥٣٥ توفي الأمير منصور، تاركاً الحكم إلى ابنه الأمير ملحم الذي بقي أميراً على وادي التيم حتى وفاته العام ١٥٦٤، حيث تولى ابنه منصور الإمارة الشهابية حتى السنة ١٥٩٧، تاريخ وفاته، تاركاً وراءه ولدين علي وأحمد، فتولى علي الحكم متخذاً حاصبيا عاصمة له حيث بنى «السراي» المعروفة بالسراي الشهابية، مقر سكن بعض الأمراء الشهابيين السُّنّة حتى يومنا هذا. تزوج ابنة الأمير يونس بن قرقماز ابن فخر الدين الأول وشقيق فخر الدين الثاني المعني، أمير الشوف آنذاك، مجدداً التحالف مع المعنيين.

وقع الخلاف بين الشقيقين علي وأحمد، الأمر الذي أدى إلى انتقال الأمير أحمد مع عائلته وأنصاره إلى راشيا، عاصمة «وادي التيم الفوقا» واتخاذها قاعدة انطلاق في صراعه ضد أخيه من أجل الوصول إلى حكم الإمارة هذه. وهكذا وجد الأخوان نفسيهما في معسكرين متنافسين: بينما كان علي يشارك في القتال إلى جانب فخر الدين المعني، في كافة المعارك ضد بني سيفا، سواء في نهر الكلب العام ١٥٩٨ أو في عراد العام ١٦٠٦، أو في الناعمة السنة ١٦١٦ مع علي ابن فخر الدين، أو في حصار قلعة الحصن السنة ١٦١٨، أو ضد القبائل العربية في فلسطين في «فارا» أو «نهر العوجا» العام ١٦٢٣، أو ضد بني حرفوش حكام البقاع أثناء حصار قلعة بعلبك؛ كان الأمير أحمد شهاب يشارك في القتال في المعسكر المعادي، لقد قاتل مع والي الشام، حافظ باشا، أثناء حملته على الشوف العام ١٦١٣[٢].

(١) الشدياق، ج١، ص٤٩.
- سويد، ج٢، ص٣٥٦.
(٢) الشدياق، ج١، ص٤٩-٥٠-٥١.
- سويد، ج٢، ص٣٥٧.

وأيضاً أثناء حصار قلعة الشقيف أو معركة الباروك العام ١٦١٤. وفي أغلب الأحيان كان التنافس بين الأخوين يؤدي إلى صراع دموي، ففي العام ١٦١٩، جنّد كل منهما جيشاً لقتال الآخر، فتقاتلا في «شويّا» بالقرب من حاصبيا وأسفرت النتيجة عن خسارة الأمير أحمد المعركة ومقتل ثلاثين من رجاله، وانتصار الأمير علي ومقتل حوالى الخمسين رجلاً من جماعته.

انتهى هذا الصراع الأخوي بتدخّل الأمير فخر الدين المعني الثاني الذي «قام من بيروت إلى البقاع ونزل في قرية مشغرة وأحضر الأميرين إليه فأصلحهما وكتب بينهما صكوكاً وقسّم وادي التيم بينهما مناصفة...» وادي التيم الفوقا وعاصمتها راشيا ووادي التيم التحتا وعاصمتها حاصبيا[1]. ومنذ ذلك الحين اتفق الأخوان على مساندة الأمير المعني ضد أعدائه في عنجر ١٦٢٣ وفي حملته في فلسطين ١٦٢٤. وقد اشترك أولادهما اشتراكاً فعلياً إلى جانب الأمير فخر الدين في معركته الأخيرة ضد العثمانيين السنة ١٦٣٣ والتي أسفرت عن استسلام الأمير المعني في مغارة جزين ومقتل ابنه الأمير علي في سوق الخان قرب مرجعيون ونقله مع أولاده الباقين إلى اسطنبول حيث قتلوا خنقاً العام ١٦٣٥، باستثناء الابن الأصغر الأمير حسين الذي أصبح بعد زمن سفيراً للسلطنة في الهند.

في العام ١٦٢٦ توفي الأمير علي شهاب أمير حاصبيا، فحزن عليه الأمير فخر الدين حزناً شديداً، وحضر جنازته شخصياً. تولى ابنه الأمير قاسم حكم مقاطعة حاصبيا بينما وافت المنية الأمير أحمد أمير راشيا السنة ١٦٢٩ فتولى ابنه حسين الإمارة، وقد تزوج في ما بعد ابنة الأمير ملحم المعني أمير الشوف والد الأمير أحمد آخر الأمراء المعنيين. وبموته من دون عقب انتقل حكم الإمارة إلى العائلة الشهابية العام ١٦٩٨.

في العام ١٦٣٣، ما أن علم الأميران قاسم ابن علي وحسين بن محمد الشهابيان بوصول قوات والي الشام العثماني أحمد

(١) الشدياق، ج١، ص٥٠.

كجك باشا لقتال الأمير علي بن فخر الدين في سوق الخان حتى هبّا إلى نجدته، وفور وصولهما إلى هناك كان الأمير قد قتل وتفرّقت قواته فدفنا جثته وعاد كل منهما إلى مقاطعته[1].

في العام ١٦٥٢ توفي الأمير قاسم، أمير حاصبيا، فتولى بعده ابنه الأمير منصور حكم المقاطعة. والسنة ١٦٥٩ توفي الأمير حسين، أمير راشيا، فتولى ولده الأمير علي حكم وادي التيم الفوقا. ولما تولى مرتضى باشا ولاية الشام بلغه أن الأمراء الشهابيين «استنهضوا أهل دمشق ليمنعوه من الدخول إليها». فأفاد السلطان العثماني الذي أوعز إلى محمد باشا الكبرلي الصدر الأعظم بأن يرسل ولده أحمد باشا «والياً على الشام وأمره أن يتوجه لمحاربة الأمير منصور والأمير علي الشهابيين بمؤازرة الأمراء المعنيين». لم يتمكن الأميران الشهابيان من المقاومة فتركا مقاطعتهما وفرّا مع بعض أنصارهما وعيالهما إلى الجبل «الأعلى» قرب حلب حيث بقوا ست سنين إلى أن استدعاهما الأمير أحمد المعني للرجوع إلى حكم مقاطعتيهما في وادي التيم، وذلك بعد انتصاره على اليمنيين في معركة «الغلغول» في بيروت. فعاد الأميران إلى الشوف «فتلقاهما الأمير أحمد المعني بالإكرام الجزيل وأمدّهما بالخيل والسلاح ثم سارا إلى وادي التيم. فأقام الأمير منصور في حاصبيا والأمير علي في راشيا... »[2].

في السنة ١٦٧١ كلّف الأمير علي عمه الأمير فارس بغزو بني «يحمور» في البقاع، لأنهم كانوا قد قطعوا أشجار الشهابيين أثناء غزوة الكبرلي لوادي التيم، «فدهمهم الأمير فارس بغتة فكسرهم ففروا إلى دمشق مستغيثين بواليها فأعانهم بعسكر ونهض معه الأمير موسى وأخوه الأمير منصور علم الدين اليمني إلى وادي التيم فانهزم الأمراء الشهابيون ودخل العسكر راشيا فأضرم النار

(١) الشدياق، ج١، ص٥٢.
- سويد، ج٢، ص٣٥٨.
(٢) الشدياق، ج١، ص٥٤.
- سويد، ج٢، ص٣٥٨.

في مساكن الأمير علي والأمير فارس عمه ثم رجع العسكر إلى دمشق وبنو «حيمور» إلى البقاع..».

في العام ١٦٧٤، توفي الأمير منصور، فتولى ابنه الأمير موسى حكم مقاطعة حاصبيا، ثم تزوّج الأمير موسى ابنة الأمير أحمد المعني، أمير الشوف، فرزق سنة ١٦٨٢ الأمير حيدر، الذي سيكون في ما بعد أول أمير شهابي يعيّن أميراً حاكماً على الشوف.

العام ١٦٨٠، تولى الأمير فارس شهاب بلاد بعلبك، فوصلها مع ألفين من أنصاره، خيالة ومشاة، فاستقرّ في قرية نيحا قرب الفرزل. والبقاع كانت مقاطعة الأمير عمر الحرفوش، الذي استنجد ببني حماده الشيعة ودهم الأمير فارس ليلاً فتفرقت جماعته عنه فقتل وقُتل من أنصاره حوالى الخمسين وعاد الأمير عمر إلى حكم مقاطعته. ولما بلغ الأمير موسى شهاب ذلك النبأ نهض برجاله من حاصبيا والأمير علي من راشيا، باتجاه بلاد بعلبك لمعاقبة الأمير عمر حرفوش الذي فرّ إلى الشوف «مستغيثاً بالأمير أحمد المعني، ملتمساً منه توسط الصلح بينه وبين الأمراء الشهابيين، فتوجه الأمير أحمد إلى بعلبك وأجرى الصلح بينهم، بشرط أن يؤدي الأمير عمر حرفوش إلى الشهابيين خمسة آلاف غرش وجوادين من جياد الخيل دية سنوية عن مقتل الأمير فارس...»[1]. في العام ١٦٨٢ توفي الأمير علي أمير راشيا، تاركاً ولداً قاصراً هو الأمير منصور، فمارس حكم المقاطعة شقيق المتوفى الأمير بشير. وفي العام ١٦٨٣ توفي الأمير موسى أمير حاصبيا تاركاً ولداً قاصراً أيضاً هو الأمير حيدر، فعادت ولايته إلى الأمير نجم ابن الأمير قاسم منصور. في ذلك الوقت كان الأمير أحمد المعني يعيش مختبئاً عند الأمير نجم هرباً من أرسلان باشا والي الشام.

وفي العام ١٦٩٤ اجتمع الأميران الشهابيان وأنصارهما إلى الأمير أحمد

---

(١) الشدياق، ج١، ص٥٥.
- سويد، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠.

المعنـي ونـهض الجميـع إلى الشوف لـطـرد الأمير موسـى عـلـم الـديـن من دير القمر، والذي استولى على حكم الإمارة بعد فرار الأمير أحمد المعني منها. وعندما بلغه أمر هجوم المعنيين والشهابيين على الشوف فرّ إلى صيدا، ملتجئاً بواليها مصطفى باشا. استرجع الأمير المعني كل مقاطعة الشوف بمساعدة الشهابيين، ثم استحصل على عفو السلطان العثماني ومارس حكمه على إمارة الشوف حتى العام ١٦٩٧، عام وفاته حيث انتهى حكم الأمراء المعنيين على هذه المقاطعة[١] وانتقل إلى العائلة الشهابية في وادي التيم.

٤ – الإمارة الشهابية في الشوف (١٦٩٨ - ١٨٢٤)

في العام ١٦٩٨، صدر فرمان سلطاني بتعيين الأمير حيدر ابن الأمير موسى شهاب أميراً على الشوف، مقاطعة العائلة المعنية. ونظراً إلى صغر سنّه عُيّن الأمير بشير شهاب وكيلاً عنه. وما أن تسلم الإمارة حتى قام، إرضاءً لوالي صيدا، بحملة عسكرية في مزرعة مشرف ضد الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم جبل عامل، وكان من الحزب اليمني. فكافأه الوالي بأن أسند إليه إدارة جبال صفد والسناجق المتاخمة لأملاكه[٢].

وفي هذه السنة أرسل أرسلان باشا، والي طرابلس وشقيقه قبلان، والي صيدا، قوات لمقاتلة مشايخ آل حمادة في بلاد جبيل والبترون، بسبب مماطلتهم بدفع الضرائب إلى السلطان العثماني. لجأ الحماديون إلى الأمير بشير الذي التمس لهم العفو من والي طرابلس على أن يكون هو الكفيل والضامن لهذه الأموال المتأخرة. قبل طلبه من قبل الوالي الذي عيّنه حاكماً على بلاد جبيل والبترون. وهكذا «قدّر لأول الأمراء الشهابيين، عن طريق ممالأة الوالي العثماني، أن يمدّ سلطانه تقريباً إلى الحدود التي وصل

(١) الشدياق، ج١، ص٥٥.
- سويد، ج٢، ص٣٦٠.
(٢) بازيلي، ص٥٨-٥٩.

إليها فخر الدين الثاني المعني عن طريق ولاء القبائل لتأثيره عليها. كان لهذه السياسة الشهابية المتساهلة والمسهّلة لتدخل العثمانيين في شؤون لبنان الداخلية، العواقب القاتلة»[١].

حكم الأمير بشير حوالى ثماني سنين من دون أن يفكر أو يهمس بتسليم الإمارة لوارثها الشرعي الأمير حيدر، وقد استعجلها هذا الأخير بدس السم لوصيّه الذي توفي فجأة بعد غداء عائلي في حاصبيا، التي عرّج عليها في طريقه إلى صفد لقضاء العيد مع أقاربه[٢]. والرواية تقول إنه عندما نزل في بيت الأمير نجم دس له السم في قطعة من الحلوى.

لقد اغتيل الأمير بشير، واغتياله في حاصبيا له دلالة واضحة إلى الصراع القيسي-اليمني على السلطة. من هنا نلاحظ أن هذا الصراع بين راشيا وحاصبيا، أو الانقسام في العائلة الشهابية والذي بدأ في أول عهد الأمير بشير الأول، سيتخذ طابع الصراع من أجل السلطة بين الشهابيين أنفسهم. والصراع على السلطة هو صراع القوى المختلفة التي تدعم مرشحاً لها. وجاء مقتل الأمير بشير الأول في هذا السياق. وبغياب الأمير بشير هذا انتقل الحكم تلقائياً إلى الأمير حيدر شهاب، وكان عمره إحدى وعشرين سنة. لقد كان الأمير حيدر، الوريث الشرعي لإمارة الشوف، وبعد مصرع بشير أسرع حيدر إلى دير القمر فاستقبله المشايخ والأعيان بحفاوة بالغة، وباشر مهماته حاكماً على لبنان السنة ١٧٠٧. لقد حفل حكم الأمير حيدر بعديد من الحوادث المهمة والمعارك الفاصلة. وأهم هذه المعارك حصل في العام ١٧٠٨ في النبطية ضد آل علي الصغير، مشايخ وحكّام جبل عامل، وكانت النتيجة هزيمتهم. ثم معركة غزير السنة ١٧١١ بين الأمير حيدر، رئيس الحزب القيسي، والأمير يوسف علم الدين، رئيس الحزب اليمني وحليفه محمود باشا أبو هرموش، حيث انتصر الأمير حيدر.

(١) بازيلي، ص٥٩.
- سويد، ج٢، ص٣٦١.
(٢) بازيلي، ص٥٩.

وأخيراً المعركة الفاصلة في عين داره السنة ١٧١١ بين القيسيين بقيادة الأمير حيدر واليمنيين بقيادة محمود باشا أبو هرموش، وأسفرت عن انتصار ساحق ونهائي للقيسيين. لقد وضعت معركة عين داره خاتمة الحزب اليمني، وبعدها لم يعد أحد يعارض حكم الأمير حيدر، فاستقر نهائياً. وبعد حكم دام ٢٦ سنة، توفي الأمير حيدر العام ١٧٣٢، تاركاً الإمارة إلى ولده ملحم الذي، ما أن تسلم الحكم حتى طلب من سعد الدين باشا والي صيدا، إعطاءه حكم بلاد بشاره، أو جبل عامل. وافق الوالي على طلبه، لكن المشايخ آل علي الصفير عارضوه، فقام بحملة عسكرية ضدهم في العام ١٧٣٤ وانتصر عليهم في قرية يارون فقتل عدداً كبيراً من أنصارهم وفر الباقون[1].

في العام ١٧٤٣ ثار على سعد الدين باشا العظم، والي صيدا، كل من آل منكر وآل صعب رافضين دفع ما يتوجب عليهم من ضرائب للسلطنة. طلب الوالي من الأمير ملحم معاقبة المتمردين فجهّز حملة عسكرية وانطلق بها من دير القمر في اتجاه بلدة «أنصار» في جبل عامل، حيث انتصر عليهم «فأمر بنهب وحرق تلك الديار، وقفل راجعاً إلى دير القمر ومعه أربعة أسرى من مشايخ آل منكر، ما لبث أن أطلق سراحهم نتيجة توسط الشيخ علي جنبلاط، ولكن بعد تعهدهم بدفع ستة آلاف قرش سنوياً».[2]

في العام ١٧٤٤ قام العامليّون بمهاجمة مرجعيون، حيث كان مجتمعاً العدد الكبير من أهالي وادي التيم والشوف، وأسفرت المعركة عن هزيمة هؤلاء الآخرين وحرق مرجعيون وتدميرها رداً على ما فعله الأمير ملحم في بلدة أنصار العام ١٧٤٣.

في العام ١٧٤٧ انتصر الأمير ملحم على أسعد باشا العظم والي الشام في برّ الياس، وكان سبب هذه المعركة أن الأمير لم يدفع الضرائب المتوجبة عليه عن بلاد بعلبك

(١) سويد، ج٢، ص٣٦١.
- بازيلي، ص٦٢.
(٢) مفرج، ص٣١٣ و٣١٥.

بسبب التزامها يومذاك. في العام ١٧٤٩ عرض والي صيدا على الأمير ملحم ضم بيروت إلى حكمه ففعل، ومنذ ذلك الحين، انتقل بعض الأمراء الشهابيين إلى هذه المدينة وتوطنوها، وقد بقيت في عهدتهم حتى عهد أحمد باشا الجزار.

في العام ١٧٥٠ حاول بنو منكر في جبل عامل «التطاول على بعض إقليم جزين، وقتلوا رجلين من أنصار الشيخ علي جنبلاط، فعظم ذلك على الأمير»،[١] فأرسل قوة للاقتصاص منهم في جباع الحلاوي مكان سكنهم الرئيسي «فظفر بهم وأدبّهم»[١] وقتل الكثير منهم. وفي هذه السنة أيضاً توجّه الشيخ شاهين تلحوق، حليف الأمير ملحم، إلى تعنايل في البقاع لمصلحة له «فأنفذ إليه سليمان باشا والي الشام مدبره بعسكر دهمه ليلاً، ففرّ من أمامهم ونجا بنفسه سالماً وقتل من أصحابه ثلاثة رجال. فلما بلغ الأمير ذلك نهض برجاله إلى هناك ودهم مدبر الوالي وقتل العديد من عسكره وفر الباقون إلى دمشق...»[٢]. تأزّم الوضع بين الأمير والوالي، وتأهب الاثنان لمعاودة القتال. لكن تدخل والي صيدا، مصطفى باشا القواس مع والي الشام ونهوضه إلى البقاع أدى إلى المصالحة بين الاثنين بشرط أن يدفع الأمير إلى الوالي «خمسة وسبعين ألف غرش» بكفالة والي صيدا.

في العام ١٧٥٤ «دخلت شوكة صبير في يد الأمير ملحم» وعجز الأطباء عن شفائه، «فوهن جسده وضعف... فطمعت به مشايخ البلاد واتفقوا مع أخويه أحمد ومنصور على عزله عن الحكم». فتنازل عن الإمارة إلى أخويه المذكورين وفوّض إليهما مقاليد المقاطعة «كرهاً وإكراهاً» وانعكف على درس الفقه الإسلامي. وفي العام ١٧٦٠ توفي في بيروت عن عمر يناهز الستين سنة. وفي عهده نشأت وانتعشت الخصومة اليزبكية -

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٩.
(٢) الشدياق، ج١، ص٣٠-٣١.
- سويد، ج٢، ص٣٦٢.

الجنبلاطية. على أنقاض الحزب القيسي والحزب اليمني الذي كان قد تلاشى تقريباً بعد معركة عين داره السنة ١٧١١.

بعد وفاة الأمير ملحم دبّ الخلاف بين الأميرين الأخوين وظهر للعيان: الأمير منصور، دعمه الجنبلاطيون وعلى رأسهم الشيخ علي جنبلاط، والأمير أحمد، دعمه اليزبكيون وعلى رأسهم الشيخ عبد السلام العماد. انتصر الأمير منصور فخلع أخاه واستأثر بالحكم من العام ١٧٦٣ حتى العام ١٧٧٠ تاريخ تنازله عن السلطة لصالح الأمير يوسف ابن الأمير ملحم بسبب مرضه. مات في بيروت عن عمر ٦٠ سنة ودفنت جثته في مسجد الأمير منذر التنوخي[١].

مات الأمير ملحم من دون أن يعرف نتيجة المكائد التي دبّرها لخلع أخويه منصور وأحمد من الإمارة، إلاّ أن بذور الشقاق في العائلة أعطت ثمارها. مات الأمير منصور ولم يمت الصراع معه، فقد تكاثرت الأجنحة الشهابية من جديد[٢].

وقف الأمير يوسف في الصراع الدائر بين عمّيه ناحية الأمير أحمد، فما كان من الأمير منصور إلاّ أن صادر كل أملاك ابن أخيه، غير أنه بفضل مدبره سعد الخوري، حاز على صداقة الجنبلاطيين، لكنه لم يدخل بشكل مكشوف في حمى الصراع الدائر نتيجة عطف باشا صيدا على الأمير منصور. وعن طريق الهدايا والرجاءات لوالي الشام وبواسطته عيّنه والي طرابلس حاكماً على سنجق بلاد جبيل فتمكّن من إخضاع مشايخ بني حماده خضوعاً تاماً.

تسلّم الأمير يوسف الحكم من عمه منصور في اجتماع عام للأمراء والأعيان وعامة الأهالي عقد في الباروك السنة ١٧٧٠ ودام حكمه حتى ١٧٩٠. وفي عهده، حيكت مؤامرات عديدة ووقعت حروب وثورات وفتن، واستطاع عدد من الزعماء في بلاد الشام من لعب أدوار مهمة تاريخية مثل الشيخ ضاهر العمر وأحمد باشا الجزار. وقد

(١) سويد، ج٢، ص٣٦٣.
- بازيلي، ص٦٣.
(٢) بازيلي، ص٦٣.

تمكن الأمير يوسف، خلال حكمه، وبفضل حذره الكبير ووضوح رؤياه، من المرور بسلام عبر هذه الحروب والفتن، مبرهناً عن دهاء وشجاعة وذكاء. وتبدلت تحالفاته تبعاً للظروف، فتارة كان حليفاً لضاهر العمر والي عكا، ضد الجزار والي بيروت، وتارة نراه يتقلب ليصبح عدواً لضاهر العمر وحلفائه الروس والمصريين، متحالفاً مع العثمانيين، محارباً إلى جانبهم لإسقاط ضاهر العمر الثائر ضد الباب العالي. في لحظة معينة كان عدواً لأحمد باشا الجزار فقاتله وتآمر عليه، وبعد قليل من الزمن أصبح حليفه وربيبه! إنما في سياسته الداخلية كانت له ثوابت لا يتزحزح عنها، وهي: كان على صراع مستمر ودموي ضد أعدائه المحليين شيعة جبل عامل والجنبلاطيين وغيرهم، كما وإخوته الذين ثاروا ضده، كالأمير أفندي والأمير سيد أحمد.

لقد كان عهده مضطرباً لم يعرف الهدوء، وقد انتهى الأمير يوسف بأن شنقه حليفه وعدوه في آن واحد، أحمد باشا الجزار والي عكا والرجل الأقوى في بلاد الشام، وكان ذلك في عكا العام ١٧٩٠.

بعد موته، انتقلت الإمارة إلى رجل فاق من بعيد سلفه في الدهاء والدراية والحذق السياسي، هو الأمير بشير بن قاسم أو بشير الثاني الكبير (١٧٩٠ - ١٨٤٠). لقد مارس حكم الإمارة مدة نصف قرن من الزمن، متفوقاً على أسلافه الشهابيين، بالدهاء والخبرة. وقد عدّه المؤرخون، مع الأمير فخر الدين الثاني المعني الكبير، أبرز حاكمَيْن في الإمارتين المعنية والشهابية.

وصل الأمير بشير الثاني إلى حكم الإمارة العام ١٧٩٠، نتيجة مؤامرة حاكها ضد سلفه الأمير يوسف عند الجزار في عكا بالرغم من أنه عاش في قصر الأمير وكان المفضّل لديه والمؤتمن عنده. لم يستطع الأمير بشير السيطرة التامة على حكم البلاد في السنين العشر الأولى، من جهة بسبب تمرد بعض الأعيان في الإمارة ضده، ومن جهة أخرى بسبب معارضة أولاد الأمير يوسف وأنصارهم لحكمه، الأمر الذي استغله والي عكّا أحمد باشا الجزار، فلعب على هذه التناقضات ليحوّل حياة الأمير جحيماً ومهزلة، فيعزله من الحكم تارة، وتارة يعيده إليه. واستمرت هذه الأوضاع على

هذا النمط حتى وصول حملة نابليون بونابرت ضد بلاد الشام وحصارها عكا العام ١٧٩٩، إذ وجد الأمير بشير هذا الظرف مناسباً للمداومة على ولائه لهذين الخصمين الكبيرين، بونابرت وأحمد باشا الجزار الذي طلب من الأمير دعمه لصد الهجوم الفرنسي، فاعتذر، متذرعاً بضعف موقفه السياسي في الداخل وبأن الفوضى تدب في الجبال اللبنانية بسبب أولاد الأمير يوسف «الذين لا يعطونه مجالاً للراحة وبأن الشعب لا يريد دفع الضرائب». أما بونابرت فقد كتب للأمير رسالة منمقة «داعياً أهالي الجبل اللبناني للوقوف إلى جانبه مع وعد بتحرير بلاد الشام من ظالمها (أحمد الجزار)». كذلك حمل الضابط الشاب سيباستيان، بندقية هدية للأميرال من الجنرال بونابرت «في محاولة لكسب وده في المحادثات التي انتهت لاحقاً بالفشل...»[١]. ومع هذا فقد غض الأمير الطرف عن مرور العتاد العسكري واللوجستي إلى الجزار عبر أرض الإمارة، وفي الوقت نفسه عن تزويد المعسكر الفرنسي بالنبيذ اللبناني وأصناف المؤن المتعددة. لقد نجح الأمير بفضل حذقه ودهائه وفطنته في تحاشي الدخول في هذه الحرب القاسية بين بونابرت والجزار، متنعماً بالاستقرار في إمارته[٢]. والجدير ذكره أن إدانة الموقف المتلوّن للأمير غير ممكنة، فموقف الأمير إزاء الصدر الأعظم، الذي قدم سوريا على رأس جيش من تركيا لإيقاف الغزوة الفرنسية، كان موقف ولاء وخضوع، إذ قدّم له الخيل في حماه، والحنطة في دمشق، وكان مستعداً ليضع أهراء الحنطة في بعلبك والبقاع تحت تصرّف الجيش العثماني[٣].

لم يطل الوقت حتى فكّ بونابرت حصاره عن عكا. كافأ الصدر الأعظم الأمير اللبناني على موقفه الحليف بأن استصدر فرماناً عيّنه بموجبه «حاكماً على جبل الدروز (الشوف) ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وجبل عامل ومنطقة جبيل» وأعطاه

(١) بازيلي، ص٩٨-٩٩.

(٢) مفرج، ص٣٦٤-٣٦٥.

(٣) حتّي، فيليب، لبنان في التاريخ، ص٥٠٣.

صلاحية أن يخابر الباب العالي مباشرة. ولكن ما أن هدأت عاصفة الحملة الفرنسية بتراجع نابليون، حتى بادر الجزار إلى الاقتصاص من الأمير غير آبه بما منحه السلطان من سلطات، فأصدر قراره بعزل بشير عن الولاية التي أعادها إلى أولاد الأمير يوسف، وزوّدهم بالعسكر لطرد الأمير من دير القمر، بعد أن حرّض عليه الحزب اليزبكي. ويبدو أن الأمير قد طلب تدخل قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط الأميرال سميث وسيطاً مع الجزار، غير أنه لم يحصل من الأميرال سوى على وعود وتطمينات كلامية جميلة[1]. ثم سافر إلى مصر محاولاً مقابلة الصدر الأعظم، ولكنه لم يوفق في الحصول على موعد منه بسبب انشغاله بالحرب ضد بونابرت. عاد الأمير إلى لبنان ونزل في طرابلس، وراسل الجزار سراً طالباً العفو، فاستجاب الجزار لطلبه وعرض إعادة الإمارة إليه شرط أن يزيد في الدفع على أبناء الأمير يوسف، ولكن الأمير اعتذر عن دفع المزيد لمعرفته باستحالة جمع المبالغ المطلوبة.

عجز أبناء الأمير يوسف عن جمع الأموال المطلوبة من الجزار السنة ١٨٠١ فاستعانوا بعسكر هذا الأخير وأنزلوا القسوة في الأعيان، مما خلق تململاً وعصياناً ومطالبة بعودة الأمير بشير إلى الحكم.

رغم كل ذلك أقرّ أولاد الأمير يوسف بالعجز بإعلانهم الاكتفاء بحكم بلاد جبيل مقابل عودة الأمير بشير إلى حكم الإمارة[2]. أعاد الجزار الأمير بشير إلى الحكم من جديد السنة ١٨٠٣ مقابل أن يدفع له أربعمائة ألف قرش.

كانت تلك آخر مأساة للإمارة اللبنانية مع الجزّار، الذي شاءت الأقدار أن يقضي، موتاً طبيعياً، السنة ١٨٠٤ والإمارة بيد بشير الثاني، الذي وجد نفسه في وضع يسمح له بتحقيق طموحاته الكبرى، من دون عائق

---

(١) شهاب، حيدر، تاريخ أحمد باشا الجزار، تحقيق أنطونيوس شبلي وخليفة، مكتبة أنطوان، بيروت ١٩٥٥، ص١٤٩.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٠٩.

يذكر. وكانت خطته ذات أولويات، على رأسها: القضاء على الحالة السلطوية داخل البلاد بإزالة الطامحين إلى كرسي الإمارة، ابتداءً بأولاد الأمير يوسف، ففقأ عيونهم وصادر أملاكهم المنقولة وغير المنقولة، وعين لهم مبلغاً قليلاً من المال ليعتاشوا به، ومنعهم عن الزواج خوفاً من إنجاب ذرية لهم. ثم بادر إلى تصفية مدبريهما الشيخين جرجس وعبد الأحد باز، وكانا أبرز الشخصيات السياسية في الإمارة اللبنانية. وقد كان الشيخ جرجس الموجّه الحقيقي الفعّال لسياسة الأمراء أبناء الأمير يوسف الثلاثة. أما باقي الأولويات فقد كانت: فرض هيبة الحكم على الجميع وتعزيز مكانة الإمارة اللبنانية من حيث المساحة والعمران والقوة العسكرية لتحتل مركزاً فاعلاً على الصعيدين الإقليمي والدولي.

بقي الأمير بشير على رأس الحكم في البلاد حتى العام ١٨٢١، عندما أقال السلطان صديقه عبد الله باشا والي صيدا عن ولايته، وعين عدوه والي الشام السابق درويش باشا مكانه. فالقرار الأول الذي أخذه هذا الوالي كان عزل الأمير بشير عن الحكم، فترك الأمير البلاد وسافر إلى مصر خوفاً من الوالي. وهناك التجأ إلى صديقه، واليها محمد علي باشا الذي استقبله بالترحاب، فاتحاً له ذراعيه ليبقى آمناً مستريحاً في ضيافته. فالأمير اللبناني سيلعب دوراً مهماً في ما بعد في تنفيذ طموحات عزيز مصر في بلاد الشام. لقد تمكن الأمير من إقناع العزيز بإعادة عبد الله باشا إلى ولاية عكا، وقد توسط محمد علي باشا لدى الباب العالي لكي يعفو عن عبد الله باشا، وقد نجح في نهاية الأمر وصدر الفرمان السلطاني. وبذلك عاد الأمير بشير من مصر ضامناً سيطرته على البلاد إلى أجل غير مسمى. إلاّ أن ذلك التحالف الذي نشأ بينه وبين محمد علي سيُدخل الإمارة من جديد في صراعات إقليمية خطيرة، ستدفع ثمن تورط الأمير فيها غالياً. فعندما باشر عزيز مصر حملته لفتح بلاد الشام، وجد الأمير اللبناني بانتظاره على رأس عشرة آلاف من المقاتلين الجبليين الأشداء.

«لم يكن تحالف بشير الثاني مع عزيز مصر تحالف الندّ مع الندّ، بل كان تبعية

صمّاء من قبل الأمير للعزيز. أما العزيز، فكان عزيزاً لمصر دون سواها، عمل على خدمتها ومصالحها وحسب»[1].

لقد تمكن محمد علي من فتح بلاد الشام كاملةً بالسرعة القصوى حتى وصل إلى أبواب عاصمة السلطنة اسطنبول، زارعاً الرعب في دوائرها، حتى إنه حرّك، وهو على هذه الأبواب، كل الدول الكبرى آنذاك، ما خلق تحالفات دولية وتحالفات معاكسة، وما أجبر اسطنبول على التنازل له في أمور مصيرية كثيرة، ليس أقلها استقلال مصر وتثبيت سلالة العزيز الخديوية حاكمة عليها. أما إمارة بشير الثاني، فلم تجنِ من كل ذلك سوى الخراب والانقسام والامتهان.

العام ١٨٤٠ غادرت القوات المصرية مكرهة وذليلة، بلاد الشام، تاركة حليفها الأكبر الأمير بشير الثاني الكبير في عهدة البريطانيين والسلطنة العثمانية.

وإذ لم يعد لبشير الثاني أمل بالحكم، انتقل في ١٢ تشرين الأول ١٨٤٠، من بتدين إلى ميناء صيدا، حيث استقل بارجة حربية إلى منفاه في جزيرة مالطة (فلقب بالمالطي)، بعدما أبلغه الأميرال الإنكليزي في بيروت أن لا مفر له من التنازل عن الحكم ومغادرة البلاد، فاختار مالطة «وكان معه حاشيته وثروة تقدر بأربعة ملايين فرنك، وجواهر ثمينة جدا»[2].

بعد مالطة، سافر البشير إلى اسطنبول حيث عاش فيها البقية الباقية من حياته، توفي منفياً فيها العام ١٨٥٠.

قبل مغادرة الأمير بشير الثاني البلاد كان البريطانيون قد تفاهموا مع الأمير بشير بن ملحم الشهابي على تسلمه الإمارة تحت اسم بشير الثالث. ولكن بشيراً هذا لم يكن على قدر مسؤولياته. ففي السنة الأولى من حكمه اندلعت ضده ثورة قام بها الدروز، انحرفت عن مسارها الأصلي لتفجر حرباً أهلية بين الدروز والموارنة في لبنان.

إن الكثير من الباحثين لا يبرئ يد البريطانيين من الفتن الطائفية التي «نخرت البلاد خلال العهد القصير لبشير الثالث. كما حُمّلت الشخصية الضعيفة لآخر

(١) مفرج، ص٣٩٠.

(٢) أبو صالح، م س، ص٢٨٨.

الأمراء الشهابيين اللبنانيين قسطاً كبيراً من المسؤولية في ما آلت إليه البلاد من تناحر بين أبنائها. غير أن أكثر الباحثين يقر بأن التركة التي أورثها بشير الثاني لبشير الثالث، كانت ملغومة، ولم يكن مفرّ من نشوب تلك الفتن بعد أن هيأت لها أخطاء السلف كل المناخات المناسبة»[١].

تأزّمت الأوضاع الأمنية في الداخل وبرزت الفتنة الطائفية في الجبل فوقع العدد الكبير من القتلى بين المسيحيين والدروز ولم يستطع الأمير بشير الثالث أن يكون على قدر مسؤولياته مما دفع الإنكليز إلى الموافقة على إقالته، فقام والي بيروت سليم باشا، والمبعوث العثماني مصطفى باشا، باستدعاء الأمير إلى بيروت في الثالث عشر من كانون الثاني ١٨٤٢، ووضعوه على متن باخرة نقلته إلى اسطنبول. وبعد ثلاثة أيام دعا مصطفى باشا أعيان البلاد إلى اجتماع في بيروت، أعلن لهم فيه سقوط الإمارة وتعيين أحد رجال حاشيته، عمر باشا النمساوي حاكماً على الجبل. وبذلك انتقل حكم البلاد إلى موظف عثماني كرواني المولد، كان مسيحياً وأسلم وكان اسمه الأصلي ميخائيل لاتاس. وبذلك كانت نهاية الإمارة الشهابية في لبنان[٢].

---

(١) مفرج، ص٤٠٥.
- رستم أسد، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت ١٩٣٠-١٩٣٤، ٥، ص١٨٧.

(٢) الصليبي كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر بيروت ١٩٦٧، ص٨٥.

الفصل الثاني
تثبيت الإمارة الشهابية والقضاء على الحزب اليمني (١٦٩٨ - ١٧٢٩)

١ - الوضع الاجتماعي - السياسي عشية حكم الشهابيين

توفي الأمير أحمد المعني العام ١٦٩٧ من دون وريث ذكر، وبوفاته انتهى حكم الأمراء المعنيين في لبنان. كانت البلاد منقسمة سياسياً إلى حزبين: قيسي ويمني، وكل حزب منهما كان يضم أنصاراً من مختلف الطوائف. وكانت الإمارة قبل ١٦٩٧ قد شهدت تطورات على صعيد العائلات السياسية من جهة وعلى صعيد التحرّكات الديموغرافية من جهة ثانية. أما بالنسبة إلى العائلات السياسية فكان اللمعيون قد أحرزوا مكانة مرموقة جعلتهم في مصاف أبرز قوى الحزب القيسي، كما أن أسرة سياسية جديدة قد انتقلت من حلب إلى الإمارة المعنية وانخرطت في بنائها، هي الأسرة الجنبلاطية. وستلعب هاتان الأسرتان أدواراً مهمة وكبيرة في الحركة السياسية طيلة الحكم الشهابي وبعده. أما على صعيد التحركات الديموغرافية، ففي عهد الإمارة المعنية انتقلت عائلات كثيرة مسيحية من الشمال إلى الجنوب، من بشريّ والكورة والبترون وجبيل إلى كسروان والمتن والشوف والجنوب والبقاع وعكار. ومن حوران وحلب ودمشق إلى جبل لبنان والبقاع وعكار والجنوب. كذلك أدّت الأحداث العسكرية والسياسية في سوريا والعراق والجزيرة العربية وإيران إلى انتقال عشائر شيعية عديدة إلى لبنان كل لبنان، كما انتقلت عائلات سنّية من مصر والمغرب والجزيرة العربية

وبرّ الأناضول وسكنت مدن الساحل اللبناني لطرابلس وبيروت وصيدا. وكل الخلافات والنزاعات التي شهدتها تلك الحقبة إنما كانت ذات طابع سياسي أو قبلي أو اقتصادي.

ومما لا شك فيه أن التأثير العثماني كان متفاوتاً في بلاد المعنيين، وفي كل المحاولات التي قامت بها الأسر اللبنانية المقاطعجية لبعث العنصر المحلي أو الاستقلال الداخلي، كان التشرذم الإقطاعي والبغض المتبادل بين هذه الأسر السند الوحيد للعثمانيين في ردودهم على تلك المحاولات. لقد كانت «السلطنة» بحاجة ماسّة للقوى وللسكان المحليين، فهم القادرون الوحيدون على تأديب وإخضاع قوى محلّية أخرى تحاول التفلّت من السلطان العثماني. فالوالي العثماني الذكي هو الذي «ينجح في تجيير هذه القوى المحلية سلاحاً لسياسته فيقسو عليها أو يدلّلها رفقاً وحسنى كما تتطلب الظروف»[1].

لقد نجحت السلطنة العثمانية وولاتها، خلال حقبة الإمارتين المعنية والشهابية، في زرع الخلاف والفتنة بين الأسر المقاطعجية من مبدأ «فرّق تسد»، وهذا ما يعتبر ضمانة السلطة الوحيدة في هذه الفوضى السياسية المسماة الإمبراطورية العثمانية. لقد اتخذت هذه السياسة العثمانية أقنعة مختلفة وفق تصورات المرحلة التاريخية وأوضاعها، وغدت أكثر أهمية وشرطاً حيوياً من شروط وجود الإمبراطورية نفسها.

٢ – الأمير بشير شهاب الأول يحكم الإمارة (١٦٩٨ - ١٧٠٦)

يبدو جلياً من خلال مجرى الأحداث أن الحزب القيسي كان مسيطراً في شكل تام عندما توفي آخر الأمراء المعنيين، أحمد، السنة ١٦٩٧. فقد اجتمع أعيان الإمارة في مرج السمقانية بالقرب من بعقلين واختاروا آنذاك، بالتوافق، حاكم راشيا الأمير بشير شهاب، ابن أخت الأمير أحمد المعني المذكور، ليتسلم كرسي الإمارة.

(١) بازيلي، ص٥٥.

لقد فضّل هؤلاء الأعيان القيسيين أن يحكمهم أمير قيسي من خارج الإمارة، على أن يحكمهم أمير يمني من داخلها كالأرسلانيين. فحدّة الصراع السياسي الدموي بين القيسيين واليمنيين لم تدع مجالاً لأمير يمني. ثم أن الأمير بشير شهاب هذا كان أبرز زعماء القيسيين، وقد لعب دوراً عسكرياً وسياسياً بارزاً في ذلك الصراع. ويبدو جلياً، من دون أدنى شك، أن هذا الاختيار جاء تكريساً لهذا الدور القيادي واعترافاً به. ومما لا شك فيه أن القوة العسكرية والمادية والمعنوية التي كانت لأمراء وادي التيم، لم تكن تضاهيها قوة عند أي أسرة في الجبل أو في أي مكان آخر من أراضي الإمارة.

اعترض على هذا الاختيار في مرج السمقانية الأمراء آل علم الدين اليمنيون وأنصارهم ورفعوا العرائض والتوسلات إلى الباب العالي[1]. ويبدو واضحاً أن الأتراك العثمانيين قد واجهوا هذا الاختيار بمحاولة إثارة الفتن، فأبلغوا والي صيدا إرسلان باشا المطرجي بإصرارهم على أن تؤول الإمارة إلى الفتى الأمير حيدر (١٢ سنة) شهاب، سبط أحمد المعني وأحد أقرباء الأمير بشير شهاب، على أن يحكم الأمير بشير وصياً على الإمارة، حتى يبلغ الأمير حيدر سنّ الرشد[2]، وطلبوا تحويل ما كان في يد الأمراء المعنيين من المقاطعات إلى الأمير المختار، على أن يدفع هذا الأخير إلى الولاية (صيدا) المال المترتب كالعادة. ويبدو أن الوالي طلب إلى الأمير بشير أن يبدأ بالجباية، فهذا ما كان يهم العثمانيين في الدرجة الأولى. لقد أراد العثمانيون، من خلال موقفهم الرافض لاختيار أعيان الإمارة اللبنانية، أن توقع البلبلة فيها، وأن تعرقل حكم الأمير المنتخب وأن ترمي بذور الفتنة داخل الإمارة الفتية[3].

في الواقع ما أن تسلم حكم الإمارة تصرف الأمير بشير بذكاء كبير ودهاء، كأنه الأصيل وليس الوكيل. فأطلق على نفسه

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٦.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٦.

(٣) أبو صالح، ص٣٧.

لقب بشير الأول. على أنه، بفضل تحالفه مع إرسلان باشا والي صيدا، وشقيقه قبلان باشا والي طرابلس، أمّن استقرار حكمه وسمح بامتداد سلطته نحو الجنوب والشمال، محاولاً لملمة شمل الإمارة بعد التشرذم الذي أصابها جراء الاجتياح العثماني للمعنيين.

أ - معركة المزيرعة (١٦٩٨):

في العام ١٦٩٨، قام الشيخ مشرف بن علي الصغير، أحد زعماء جبل عامل، ضد والي صيدا قبلان باشا، بتحريض من والي الشام، وقتل عدداً من رجاله، فطلب الباشا من الأمير بشير ملاحقة مشرف واعتقاله. استغل الأمير ردة الفعل السلبية عند الوالي وطلبه بالملاحقة فجمع حوالي ثمانية آلاف رجل من أنصاره وانطلق بحملته العسكرية من الشوف في اتجاه الجنوب لينقض على ابن علي الصغير فكانت المعركة في قرية المزيرعة[1]، حيث تمكن الأمير من تحقيق النصر وإلقاء القبض على الشيخ مشرف وشقيقه الحاج حسين وحسين المرجي، بعد أن قتل عدداً كبيراً من رجال مشرف. سلّم هؤلاء إلى الوالي الذي أمر بشنق حسين المرجي وبوضع الشيخ مشرف وشقيقه في السجن[2].

لقاء نجاح هذه الحملة أطلق الوالي يد الأمير بشير في المقاطعات، من صفد إلى المعاملتين، بما فيها «صفد وبلاد بشارة وإقليمي شومر والتفاح وبلاد الشقيف» وبذلك استعادت الإمارة سلطتها على المناطق الجنوبية، فكبرت سمعته عند السلطنة وذاع صيته في البلاد. بعدها ولّى ابن أخيه الأمير منصور على مقاطعة صفد، يساعده شيخ مجرّب من السكان المحليين هناك وهو «عمر بن أبي زيدان» والد ضاهر العمر الشهير[3]. ثم ولّى الشيخ محمود أبو هرموش (القيسي) بلاد بشاره، وإذ أظهر له الطاعة بنو منكر حكام إقليمي الشومر والتفاح، وبنو صعب، حكام مقاطعة

(١) آل صفا، محمد جابر، تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة بيروت، ص١١٤.

(٢) سويد، ج٢، ص٣٧٠.

(٣) بازيلي، ص٥٩.

الشـقيـف، أبـقـى عـلـى هاتين الأسـرتين في إقطاعهما[1]. ثم عاد الأمير إلى دير القمر.

ب - استعادة سلطة الإمارة على بلاد جبيل والبترون:

وقبل مرور سنة على تاريخ تسلّم بشير الأول للإمارة، برزت أمامه الفرصة للتوسع باتجاه الشمال لاستعادة سلطة الإمارة على بلاد جبيل والبترون اللتين كانتا تحت إقطاع الحماديين الذين كانوا قد تأخروا وتمنّعوا عن تأدية الضرائب ومقدارها ٢٥ ألف غرش إلى والي طرابلس، قبلان باشا. أرسل هذا الأخير قـوة إلى مـنـاطـقـهـم في جـبـيـل لإخضاعهم وتأديبهم، تمكنت من القبض على بعض مشايخهم، وفرّ آخرون منهم إلى دير القمر طالبين تدخل الأمير مع والي طرابلس لحمايتهم. قبل الأمير الشهابي بالتوسط شرط خضوع المشايخ الحماديين لإمارته. وإذ ضمن منهم القبول، عرض على والي طرابلس أن تكون الإمارة مسؤولة تجاهه عن تأدية مال جبيل والبترون، مقابل أن يعود إلى الأمير تعيين من يختاره من الحماديين لتولي شؤون المقاطعتين، فقبل الوالي بهذا العرض وبذلك أصبحت السيادة على البترون وجبيل للإمارة الشهابية، خاصة في ما يؤول إلى جباية الضرائب وإرسالها إلى والي طرابلس.

في العام ١٧٠٦، توفي الأمير بشير الأول مسموماً، وقد اشتبه بأن يكون الأمير حيدر موسى شهاب، الذي كان من المفروض أن يتسلم كرسي الإمارة لما بلغ سن الرشد قبل ٣ سنين، هو الذي أوعز بدس السم له ليتمكن من تسلم مقاليد الإمارة بسهولة... والله أعلم[2]!

(١) مفرج، ص٣٠٠.
- الدبس، يوسف، تاريخ سوريا، أعيد طبعه في بيروت ١٩٨٧، الجزء ٧، ص٢٢٤.
(٢) بازيلي، ص٥٩.
- سويد، ج٢، ص٣٧٢.
- مفرج، ص٣٠١.

٣ - الأمير حيدر موسى شهاب يثبّت الإمارة الشهابية (١٧٠٦ - ١٧٢٩)

بعد مصرع الأمير بشير الأول أسرع الأمير حيدر موسى شهاب إلى دير القمر، مركز الإمارة الشهابية، وكان عمره ٢١ سنة، وهو ابن بنت الأمير أحمد المعني. كان هذا الأمير يتمتع بذكاء حاد ودهاء كبير، إنما خبرته في الحكم كانت قليلة وستصقلها الأيام ليصبح من الحكام الأقوياء والمحنكين في تاريخ الإمارة الطويل.

كان من الطبيعي أن يرحّب به على رأس الإمارة أعيان الحزب القيسي في البلاد، وأن يعارض ذلك أعيان الحزب اليمني الذي كان قد أصبح على حال واضح من الضعف. باشر الأمير مهماته حاكماً على لبنان محافظاً على تحالفاته مع والي صيدا ووالي طرابلس. إن ضعف اليمنيين لم يمنع العثمانيين من تحريضهم ضد الأمير الشاب منعاً لاتساع نفوذه، وهذا ما سيؤدي إلى نشوب معركة عين داره بين الحزبين القيسي واليمني، «وهي المعركة التي سترسم وجه الإمارة اللبنانية في ما تبقى لها من الوجود على مدى ما يقارب المائة وثلاثين سنة».

تزامنت وفاة الأمير بشير الأول مع قيام اسطنبول بإبدال والي صيدا أرسلان باشا بوالٍ جديد هو بشير باشا. وقد سارع هذا الوالي، تنفيذاً لأوامر السلطنة، إلى فصل منطقة صفد ومقاطعات جبل عامل عن الإمارة، وتعيين الشيخ ضاهر العمر الزيداني حاكماً على صفد، وتثبيت بني منكر على إقليمي الشومر والتفاح، وبني صعب على مقاطعة الشقيف، وأعاد مشايخ بني علي الصغير إلى حكم مقاطعة بلاد بشارة[1]. مع الإشارة إلى أن هذه الأسر الشيعية الثلاث، كانت يمنية.

لم يتأخر الأمير في التقرّب من والي صيدا الجديد، وسارع إلى شراء عهدة تلك المقاطعات الجنوبية منه، ولما عارض المشايخ الجنوبيون ذلك وراحوا «يخرقون أراضي الإمارة» قرّر من دون إبطاء الانتقام منهم ونزع مقاطعاتهم وإعادة ضمها إلى إمارة

(١) شهاب، أحمد حيدر، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، تحقيق بستاني ورستم - الجامعة اللبنانية ١٩٦٩، ج١، ص٨.

الشوف، وضربهم في عقر دارهم، كما فعل سلفه الأمير بشير، فكانت معركة النبطية[1].

أ - معركة النبطية ونتائجها العسكرية والسياسية (١٧٠٨):

جهّز الأمير لهذه المعركة جيشاً قوامه حوالى ١٢ ألفاً من المقاتلين الأشداء، وانتقل به من عاصمته دير القمر في اتجاه النبطية حيث يقع تجمع قوات العامليين من بني علي الصغير وبني منكر وبني صعب. لقد اختار العامليون بقعة تجمع للقتال خارج قرية النبطية. وبالكاد تمكّنوا من تشكيل قواتهم لمواجهة عدوهم، حتى فاجأهم الأمير حيدر وفرق صفوفهم. وبعد ساعة من القتال تفرقوا تاركين منهم في أرض المعركة عدداً كبيراً من القتلى والجرحى. أما البعض منهم فقد هرب إلى داخل قرية النبطية محتمياً في منازلها، فدخلها الأمير وقضى على كل المقاتلين فيها، وبذلك لم يعد في وسع بني علي الصغير المقاومة منفردين «فانجلوا عن تلك الديار»[2]، فتثبتت سلطة الإمارة الشهابية على مقاطعات جبل عامل من جديد، وعين الأمير، الشيخ محمود أبو هرموش، القيسي حاكماً عليها، وعاد إلى عاصمته دير القمر[3].

لم يدر في خلد الأمير حيدر أن انتصاره في النبطية سيثير في والي صيدا شعور الحسد والخوف في آن واحد، ذلك أن زعامة الأمير وسيطرته على منافسيه كانت أبعد من أن ترضيه أو تعجبه. ولم يدر في خلد الأمير أيضاً أن الذي عيّنه يومذاك نائباً له أو متسلماً في المقاطعات الجنوبية لجباية الضرائب، محمود أبا هرموش، سوف يصبح أداة الوالي العثماني لمحاولة ضرب الإمارة، ما سيسبب إبعاد الأمير حيدر عن الإمارة لبعض الوقت، ثم نشوب معركة عين داره الشهيرة السنة ١٧١١، وهي المعركة التي

(١) الشدياق، ج٢، ص١٨.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٨.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٨.
- أبو صالح، ص٣٧.

ستقرّر مصير الأسر السياسية اللبنانية في شكل عام، ومصير الحزبين القيسي واليمني في شكل خاص، والمصير السياسي للأسرة الشهابية الحاكمة في شكل أخص.

لقد كانت النتائج السياسية لانتصار الأمير في النبطية، شؤماً ووبالاً عليه، لأن والي صيدا لم يكن ينظر بعين الرضى إلى تعاظم قوة الأمير التي أصبحت توازي قوة الوالي نفسه إن لم تكن تفوقها، لذلك راح ينتظر الفرصة المناسبة لتحطيم هذه القوة وهذا النفوذ، بالرغم من أنه كان قد سمح له بتولي إقطاعات جبل عامل الغنية. لقد وجد آنذاك، في متسلم الأمير «محمود أبو هرموش» أفضل مساعد لإتمام مخططاته.

يتحدّر الشيخ محمود أبو هرموش من أسرة مشايخ موحّدة درزية، نسبها البعض إلى عرب العقيدات[1]، وبعض آخر، مثل محمد الباشا في معجمه أعلام الدروز، إلى العشيرة الشويزانية، التي قدمت من سوريا وتوطنت ضهر البيدر، ثم عمّرت عين زحلتا وسكن بعض أهاليها الفريديس والكنيسة والسمقانية، ومن السمقانية تفرّعت أسرة أبي هرموش إلى كفرمتى. لقد كان محمود أبو هرموش طموحاً يوازي طموح الأمير حيدر، ولم يكن قد مرّ على تسلمه مهمته أكثر من سنتين عندما أقدمت السلطنة على إبدال الوالي في صيدا بوالٍ جديد يدعى عثمان باشا، وكان مكلفاً كما يبدو بإعادة زعزعة الإمارة. فما أن وصل عثمان إلى صيدا حتى راح يقوي محمود أبا هرموش على الأمير حيدر، ويغريه بتوليته الإمارة، إن هو سار وفق توجيهاته. وقام تحالف بين الوالي والمتسلم الذي أمطره بالهبات والهدايا[2]. ويبدو أن ذلك الإغراء كان فعالاً.

ب - معركة غزير (١٧١١):

إن التحالف بين أبي هرموش ووالي صيدا عثمان باشا، أدى إلى نزاع مرير ومن ثم إلى حرب عنيفة ما بين المعسكرين: اليمني الذي يتمتع بدعم الوالي ومساندة المتسلّم محمود أبو هرموش (القيسي القديم)،

(١) كحالة عمر رضا، معجم قبائل العرب - بيروت ١٩٦٨، ج٣، ص١٢١٦.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٨.

والقيسي، معسكر الأمير حيدر وحلفائه.

وأول معركة حصلت في غزير.

إن السبب المباشر لهذا النزاع كان شكاوى العامليين للظلم اللاحق بهم من المتسلم محمود أبي هرموش ومن ضغوطاته على الأهالي لدفع الرسوم والضرائب المتوجبة عليهم. كما أنه وصل إلى مسامع الأمير حيدر عن استبداد نائبه وميوله الاستقلالية وتحالفه مع والي صيدا. إذ ذاك قرر الأمير أن يطلب من نائبه كشف الحساب وإحالته على المحاكمة. ولما طالبه بدفع المستحقات المتوجبة عليه امتنع عن تسليم أموال الجباية إلى خزينة الأمير، فأصبح هذا الأخير عاجزاً عن دفع المترتب عليه إلى الوالي فراح يزيد الضرائب على مقاطعات الشوف وكسروان وما جاورهما، ما أوجد تململاً لدى الأهالي جميعاً. ولما استدعاه إلى دير القمر لمقابلته، فرَّ إلى صيدا طالباً من واليها التدخّل لحمايته من الأمير[1]. أقال الوالي الأمير حيدر من إمارته وعين مكانه الأمير يوسف علم الدين، زعيم الحزب اليمني والعدو اللدود للأمير حيدر. كما عين الشيخ محمود أبو هرموش مدبراً للأمير يوسف، ثم أرسل بمعيتهم حملة عسكرية إلى دير القمر، عاصمة الإمارة لتنفيذ قراراته.

أمام هذا الواقع المرير والأليم اضطر الأمير حيدر إلى ترك منصبه والمغادرة إلى كسروان، ملتجئاً عند مشايخ آل حبيش في غزير. ولكن العداء المستحكم بين مشايخ كسروان الموارنة بيت حبيش وبيت الخازن، دفع بهؤلاء إلى الوشاية بالأمير إلى الباشا، فهاجمت قواته، وعلى رأسها أبي هرموش والأمير يوسف علم الدين غزير، حيث وقعت المعركة بين الطرفين كان المنتصر فيها الأمير حيدر وأنصاره الذين تمكنوا من إيقاف المهاجمين ومنعهم عن دخول البلدة، ومن ثم دفعهم حتى الشاطئ[2].

لقد فصل الظلام بين المتحاربين، ونظراً إلى عدم تكافؤ عديد القوى بين الخصمين،

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٨.

(٢) الدبس، ج٧، ص٣٦٨.

- الشدياق، ج٢، ص١٩.

وتخلي مشايخ بيت الخازن، حلفائه القيسيين في كسروان عنه، وابتعاد بيت حبيش خوفاً من هجوم معاكس على غزير، اضطر الأمير حيدر ترك هذه البلدة والانكفاء مع بعض أنصاره إلى «الشعاب العميقة في شرقي جبل صنين، إلى الهرمل حيث اختبأ في مغارة فاطمة المنيعة، المسماة «مغارة عزرائيل»[(١)]، وبقي فيها حوالي العام الكامل.

ولما خلت بلدة غزير من «العسكر القيسي، دخل إليها العسكر اليمني عند الفجر، فنهبها وأحرقها وهدمها، فأمست بلقعاً فقيل في تاريخها: ندمت غزير». ثم عاد الأمير يوسف مع قواته وقوات الوالي إلى دير القمر وقد قتل من جماعته عدد كبير.

ج - الحزب اليمني على رأس الإمارة:

إن خطوة تعيين الأمير يوسف علم الدين حاكماً مكان الأمير حيدر، لم تؤت ثمارها كما كان يشتهي الوالي، إذ لم يستطع الحاكم الجديد جباية الأموال المطلوبة بسبب نفور القيسيين، ومعارضتهم له، عندها عمد والي صيدا إلى تعيين الشيخ محمود أبي هرموش حاكماً على الإمارة، متوخياً عدم إغضاب القيسيين، وبما أن عائلة أبي هرموش لم تكن، من حيث المرتبة الاجتماعية، في منزلة أسرة الأمراء، فقد خلع عليه الوالي لقب الباشوية، وأمده بعسكر وافر لتولي سدة الحكم في الإمارة[(٢)].

لم يفد لقب «الباشا» أبا هرموش في جعل أعيان الشوف تقبل به أميراً حاكماً، كما أن القوة العسكرية العثمانية التي زوّده بها الوالي لم تزد الأهالي سوى امتعاضاً وتمنعاً عن التعاون. عندها لم يجد أبو هرموش بداً من الامتثال لطلب الوالي الذي أشار إليه بالتعاون مع الأمراء آل علم الدين اليمنيين، وجعلهم مشاركين له بالحكم، استكمالاً لخطة إضعاف الحزب القيسي، لذلك استقدم الأمراء آل علم الدين من دمشق

---

(١) بازيلي، ص٦٠.
- الشدياق، ج٢، ص١٩.

(٢) أبو صالح، ص٣٧.
- الشهابي، ج١، ص١٠.

التي كانوا قد انتقلوا إليها بسبب سيطرة القيسيين على الإمارة، وأقدم على الزواج من إحدى بناتهم، فكان ذلك إعلاناً سافراً عن انتقاله إلى الحزب اليمني، وكانت ردة فعل الحزب القيسي، صاحب الأكثرية الساحقة يومذاك، استياءً عاماً وعارماً(١).

وقد استحال على الباشا الحديث النعمة أن يحصل على تأييد أي من الزعماء القيسيين في الجبل، ولم يستقطب سوى تأييد زعماء جبل عامل، لأنهم كانوا يمنيين، وليس لأي اعتبار آخر.

د - معركة عينداره (١٧١١):

بعدما نضج التململ وأصبح عاماً في الإمارة، استدعى المشايخ القيسيين الأمير حيدر من مغارة عزرائيل لملاقاتهم إلى المتن. والجدير ذكره إن الأمير حيدر عندما هرب إلى غزير، كان معه ولداه الأميران ملحم وأحمد وتبعه من أعيان الشوف الشيخ قبلان القاضي وولده والشيخ علي النكدي، والشيخ جنبلاط بن عبد الملك والشيخ محمد تلحوق وولده الشيخ شاهين. وقد اصطحب الشهابي باقي أفراد عائلته معه إلى غزير وأودعهم في مكان ما في فتوح كسروان(٢).

بقي الأمير حيدر في الهرمل متخفياً حوالى السنة مع أنصاره القيسيين، يؤمّنون له الرعاية وينقلون له مجرى الأحداث، وقد توفيت زوجته أم ملحم هناك، كما تعرض الشيخ قبلان لسقطة قاتلة وهو في طريقه إلى إحدى المهمات عبر ذلك الوادي العاصي. لقد جاء اليوم الذي تقرّر أن يكون موعداً للمعركة الفاصلة بين المعسكرين المتخاصمين.

بعد أن كابد القيسيون مرارة تعنّت الحكم الهرموشي بسبب ارتهانه لوالي صيدا الذي لم يكن يروم سوى المال وتفتيت وحدة البلاد، أرسلوا من الشوف رسلاً إلى المشايخ الخازنيين في كسروان يطلبون إليهم إبلاغ الأمير حيدر، حيث هو، رغبتهم في وجوب

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٩.
- بازيلي، ص٦٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٩.

إسراعه في العودة إلى المتن كخطوة أولى، وإلى مركز إمارته في خطوة لاحقة[١].

لم يتأخر جواب الأمير على هذا الاستدعاء من قبل أنصاره، بل انتقل من مغارة عزرائيل في الهرمل إلى بلدة رأس المتن حيث نزل عند المقدم حسين أبي اللمع في السنة ١٧١١. ومن هناك اتصل بأنصاره ومحازبيه في عرض البلاد وطولها، طالباً الحضور إليه مع رجالهم. وقد لبى دعوة الأمير تلك عدد من القادة منهم: المقدمان مراد محمد وعبد الله اللمعيان، والشيخان أحمد أبي عذرا وسرحال العماديان، الشيخ خازن الخازن شيخ كسروان[٢]، والشيخ محمد تلحوق وولده شاهين، والشيخ جنبلاط عبد الملك الذي أمده حلفاؤه الشيعة في بعلبك بألفين وخمسماية من الرجال المدربين على القتال[٣].

عندما كانت القوى القيسية تتجمع في رأس المتن، سارع محمود باشا أبو هرموش إلى الاستعداد للمعركة، فاستدعى إليه أعيان الحزب اليمني مع أنصارهم، فوافاه سبعة أمراء يمنيين من آل علم الدين ومعهم حوالي تسعماية من رجالهم، ووافاه أيضاً يمنيو الغرب والمتن، فاجتمع لديه حوالي الثلاثة آلاف مقاتل. كما أمده كل من والي صيدا ووالي الشام بتجريدة معززة من الجند العثماني، تمركزت الأولى في غابة الصنوبر في بيروت والثانية في سهل قبّ الياس.

كل هذه الاستعدادات رفعت من معنويات محمود باشا، مؤكدة له النصر المبين. سار الباشا على رأس جيشه لملاقاة الأمير حيدر شهاب فاحتل مرتفعات عين داره الواقعة على المدخل الشمالي للشوف. أما قوات والي الشام ووالي صيدا فبقيت في معسكراتها على أهبة الاستعداد، ظاهرياً، لمساندة محمود باشا عند بدء المعركة. ومن المحتمل جداً أنها كانت تنتظر النتيجة لتقرر سلوكها على أساسه.

(١) الشدياق، ج٢، ص١٩-٢٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٠.
(٣) أبو صالح، ص٥٠.

فقد كان دور الرجلين تأجيج الصراعات العصبية بمساندة إحدى الجهات تارة وتارة مساعدة الجهة الأخرى، وفعلياً لم يشاركا مباشرة في الصراع الدائر بين الحزبين.

في هذه الأثناء، أخذ الأمير حيدر يستعدّ للمعركة مع جيش قوامه حوالى الأربعة آلاف مقاتل من الشوف وكسروان والبقاع، فقرر الإفادة من عنصر المفاجأة في خطته في الهجوم على معسكر محمود باشا في عين داره[1].

قسّم الأمير حيدر جيشه إلى ثلاث مفارز قتالية:

- المفرزة الأولى: بإمرته الشخصية، يعاونه الشيخ محمود تلحوق تتقدّم نحو عين داره عن طريق وادي الجوز.

- المفرزة الثانية: بإمرة المقدمين اللمعيين حسين وعبد الله تتقدّم في اتجاه عين داره عن طريق القطليج.

- المفرزة الثالثة: مؤلّفة من الشوفيين، تتقدّم على طريق توصلها إلى عين داره من جهة الجنوب.

تركت هذه المفارز قاعدة انطلاقها في رأس المتن متجهة إلى عين داره، حيث وصلت إلى التلال المحيطة بها قبل الفجر، ثم باشرت حصارها من جهات ثلاث: الشرق والغرب والشمال، أما من جهة الجنوب فهناك وادٍ عميق لا يمكن سلوكه.

ابتدأت المفارز بإطباقها على القوات اليمنية عند الفجر، آخذة على حين غرة، محمد أبو هرموش وأنصاره اليمنيين، في المكان والزمان غير المتوقعين من قبلهم. كانت معركة غير متكافئة على مدخل البلدة.

لم تمض ساعات قليلة على بدء المعركة، حتى ابتدأت القوات اليمنين بالتقهقر والانسحاب الفوضوي، فدخلت القوات القيسية إلى البلدة وقامت بمذبحة رهيبة ضد

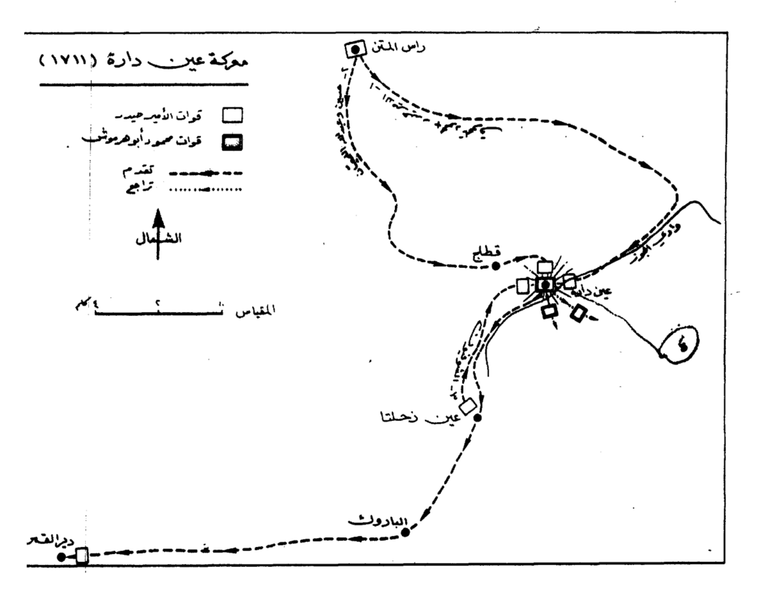
(١) الدبس، ج٧، ص٣٦٩.
- الشدياق، ج٢، ص٢٠-٢١.

أعدائها اليمنيين، بحيث لم يستطع أي إنسان منهم أن ينجو من القتل: ثلاثة من الأمراء لاقوا حتفهم في المعركة وألقي القبض على أربعة وهم الأمراء يوسف وعلي ومنصور وأحمد علم الدين، أما محمود باشا أبو هرموش فقد أسر.

نقل الأمير حيدر الأسرى والسجناء معه إلى الباروك، وهناك أمر بقتل الأمراء الأربعة من آل علم الدين، وأبقى على حياة محمود باشا أبو هرموش، بعدما قطع له لسانه وإبهامه، وذلك لعدم الإمعان في إثارة الدولة العثمانية التي كانت قد منحته لقب باشا (برتبة وزير) وعيّنته من لدنها حاكماً على الجبل.

وفور وصول الأنباء إلى واليي صيدا وبيروت، عن نتائج هذه المعركة، قفلا راجعين كلٌ إلى ولايته من دون الاشتراك بالقتال لمساندة ربيبهما الباشا أبي هرموش. لقد التزم هذان الواليان مراقبة المعركة من دون الدخول فيها لأسباب بقيت مجهولة حتى الآن.

الخريطة رقم ١
معركة عينداره (١٧١١)



مرجع الخرائط: اللواء ياسين سويد، المقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، الجزء الأول.

هـ - التقييم العسكري لمعركة عين داره:

مما لا شك فيه أن المتتبع العسكري لهذه المعركة، لا يمكنه إلاّ أن يتنبه إلى نقاط عديدة برزت خلالها، يجدر التوقف عندها، ويمكن اختصارها كالآتي:

١ - السرية والسرعة في أخذ القرار: لقد قرر الأمير حيدر الإطباق على معسكر أعدائه في عين داره قبل وصول قوات واليي صيدا والشام للانضمام إلى المعسكر المعادي، عند ذلك تصبح كفة أعدائه هي الراجحة حتماً.

٢ - الاستعلام التكتي الجيد لأرض المعركة ولعدوه، استغله الأمير حيدر بطريقة ممتازة، وبناءً على نتائجه قرر خوض المعركة بالطريقة والأسلوب المناسبين، وقد استغل عنصر المفاجأة إلى أقصى حد ممكن.

٣ - سرية التنفيذ وسرعته: عندما اجتمعت لدى الأمير حيدر كل شروط المفاجأة، تحركت قواته بسرعة كبيرة وكتمان تام نحو أهدافها على محاور اقتراب مجهولة من قبل عدوه الذي لم يتوقع مجيئه منها. لقد أطبقت قوات الأمير حيدر من جهات ثلاث أما الجهة الرابعة فكان يستحيل العبور منها. لقد كانت المفاجأة تامة.

٤ - كان هدف الأمير حيدر الأولي، قتل قادة قوات العدو، وهذا الأسلوب اتبعه العرب في معظم حروبهم وغزواتهم. فإبادة القادة والرؤساء يثبط معنويات القوى العدوة ويصبح الانتصار عليها سهلاً. وهكذا تصرف الأمير حيدر إذ كان هدفه الأول قتل رؤساء أعدائه آل علم الدين، لقد حقق هدفه بسرعة كبيرة، الأمر الذي أمّن له الانتصار في معركته خلال وقت قصير نسبياً، والحد من خسائر قواته المهاجمة.

و - النتائج السياسية لمعركة عينداره:

وضعت معركة عين داره خاتمة نهائية للحزب اليمني، إذ قضى الأمير حيدر قضاءً كاد أن يكون نهائياً على القادة اليمنيين، حاملي لواء هذا الحزب، مع كثير من أعوانهم، أما الذين نجوا منهم فلجأوا إلى حوران في سوريا. لقد عززت هذه المعركة، مركز الشهابيين وجعلت إمارتهم تتمتع بالسيطرة والأولوية على باقي الأسر المقاطعجية اللبنانية. وقد قام الأمير حيدر بإعادة تقسيم الإقطاعات تبعاً لموقف الأسر المقاطعجية منه في عينداره، فأحدث ترتيبات

بين هذه الأسر. فالمقدمون اللمعيون، بسبب الشجاعة والاستبسال اللذين أظهروهما في هذه المعركة، منحوا لقب أمراء، وهذا ما أباح لهم التزاوج مع الشهابيين، وقد أقطعوا المتن. أما الجنبلاطيون فقد رفعت رتبتهم إلى المشيخة وولوا الشوف. وثبت مشايخ آل الخازن في كسروان، وأما الأرسلانيون الذين كانوا يميلون إلى الحزب اليمني، ووقفوا على الحياد، فقد جردوا من إقطاعهم في الغرب وأعطي إلى آل تلحوق في عيتات، بعدما رفعت رتبتهم إلى المشيخة، وأسرة آل عبد الملك رفعوا إلى المشيخة وولاهم الجرد[1]. أما قبلان القاضي فقد أقطعه إقليم جزين، والشيخ علي النكدي أقطع مقاطعة المناصف، وقد خص الأمير حيدر لنفسه خمس قرى هي: بعقلين ونيحا الشوف وعماطور وبتلون وعينداره. أما آل نكد فقد خصهم، إلى جانب إقطاعهم التقليدي، بإقطاعة الناعمة جنوبي بيروت. والحماديون الشيعة ثبتوا في حاكمية جبيل والبترون ومنحوا حكم جبة بشري والمنيطرة كمكافأة لوفائهم وأمانتهم عندما كان الأمير لاجئاً في الهرمل بعد معركة غزير. آل حبيش خصهم بغزير وجوارها، وآل الدحداح بالفتوح، وآل عازار بالكورة، وآل الضاهر بعدما رفعوا إلى مشايخ بالزاوية، أما آل الخوري في رشميا فقد رفعت رتبتهم إلى مشيخة من الدرجة الثانية.

إلى جانب هذه التبدلات تزوج الأمير حيدر من ابنة المقدم حسين أبو اللمع ومنح المقدم عساف ابن المقدم حسين إقطاعة بيت شباب.

حكم الأمير حيدر بعد معركة عين دارة مدة ١٨ سنة شهدت خلالها البلاد وضعاً شبه مستقر، لم تقع خلاله أي أحداث خطيرة، باستثناء بعض الحوادث الداخلية العادية التي بقي الأمير مسيطراً عليها بسهولة. وكان الأمير حيدر أول أمير لبناني يتنازل عن حكم الإمارة لخلفه في حياته، فأقدم السنة ١٧٢٩ على تسليم الولاية، بهدوء، لولده ملحم[2] وبعد ٣ سنين توفي عن عمر خمسين سنة وله تسعة أولاد: ملحم - أحمد - منصور - يونس - علي حسين - معن - بشير وعمر.

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٢.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٣.

الفصل الثالث

تمدّد الإمارة الشهابية وانتعاش الحزبية اليزبكية - الجنبلاطية (١٧٢٩ - ١٧٥٤)

١ - الأمير ملحم حيدر شهاب على رأس الإمارة (١٧٢٩-١٧٥٤)

تنازل الأمير حيدر شهاب عن حكم الإمارة لخلفه في حياته، فأقدم العام ١٧٢٩ على تسليم الولاية بهدوء إلى ولده البكر الأمير ملحم[1]، الذي بقي تحت وصاية والده حتى وفاته السنة ١٧٣٢، بعدها أصبح السيد الحقيقي للبلاد، خاصة بعد اتفاقه مع والي صيدا أسعد باشا العظم، وتكريسه كأمير حاكم على الشوف.

بعد هذا التكريس الشرعي لممثل السلطنة العثمانية ومظاهر العطف والتكريم التي أبداها والي صيدا للأمير الشهابي، اعترف أمراء الشوف وأعيانه جميعاً بالأمير الحاكم. «لم يستحوذ أي من أمراء لبنان الحاكمين قبلاً مثل هذا العطف من الباشاوات»[2].

كان الأمير ملحم طموحاً، يتمتع بحكمة كبيرة وفطنة وشخصية قوية جذّابة. وكان الأمير، طوال فترة حكمه، يطمح إلى توسيع حدود إمارته، وقد سعى جاهداً إلى تنفيذ هذه التطلعات. لقد حاول التوسّع جنوباً نحو جبل عامل وشمالاً نحو جبل لبنان، وشرقاً نحو البقاع، وغرباً نحو بيروت.

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٣.
- بازيلي، ص٦٢.
(٢) بازيلي، ص٦٢.

وفي سبيل تحقيق ما كان يطمح إليه، كان عليه أولاً، أن يتقرب من الولاة العثمانيين، في صيدا أو في الشام وطرابلس، بواسطة الرشاوى و«البرطيل» أو الهدايا والإكراميات، وثانياً، عليه إنشاء قوة عسكرية قادرة على قمع أي تمرّد أو عصيان ضد سلطته وحكمه. كان جيش الأمير ملحم أول جيش نظامي أنشئ في عهد الإمارة الشهابية.

لم يصل إلى المؤرّخين سوى بعض المعلومات الشحيحة والمبعثرة عن جيش الأمير ملحم، لكننا نعلم أن هذا الجيش كان يضم في صفوفه المشاة والخيالة. أما العديد فقد تضاربت حوله الآراء، منهم من زعم أن الحرس الوطني للأمير قد بلغ ستة آلاف مقاتل، ومنهم من ادّعى بأنه بلغ الخمسة عشر ألفاً عندما هاجم جبل عامل، ومنهم من قال أربعين ألفاً... والله أعلم!.

ومن المؤكد القول إن العثمانيين كانوا ينظرون بريْبة وبتحفظ شديدين إلى كل قوة عسكرية محلية تنشأ في بلاد الشام، وتحديداً في إمارة الشوف، لذلك كانت تعمل جاهدة لتعيق كل قوة عسكرية يمكنها تهديد سلطتهم في هذا الإقليم. وهكذا لم يكن مسموحاً لأمراء الشوف بدعوة متطوعين كما كان يحصل أيام الأمير فخر الدين الثاني المعني. لقد لجأ الشهابيون في حقبة حكم الأمير ملحم، إلى مجندين يستدعون عند الحاجة، إما بسرية تامة بواسطة رسل خيالة، أو علناً بواسطة النيران المشتعلة على قمم الجبال. إلى جانب كل هذا استطاع الأمير ملحم بفضل دهائه وحكمته، الحصول على ثقة الولاة العثمانيين في صيدا وطرابلس والشام، حتى إنه أصبح حليفاً مقرباً منهم، الأمر الذي سمح له بالتمتّع بهامش كبير من حرية المناورة لتنظيم جيش وطني ثابت ودائم، جامعاً بين صفوفه جنوداً من مختلف الطوائف، لا يؤثر فيهم نفوذ الإقطاع.

٢ - الأمير ملحم يوسع إمارته نحو جبل عامل

كان هدف العثمانيين من خلال تأجيج الصراع بين الحزبين القيسي واليمني

إضعاف الإمارة، للحد من طموحاتها الاستقلالية والتوسعية أولاً، وجعل سيطرة السلطنة تامة وسهلة التطبيق.

عندما تسلم الأمير ملحم الشهابي الإمارة من والده حيدر السنة ١٧٢٩، كان الحزب اليمني لا يزال على قوته في الجنوب، لأن القضاء عليه في الجبل لم يكن كافياً لاستئصاله كلياً. كانت مناطق الجنوب منذ الفتح العثماني تابعة للإمارة المعنية، وقد شارك أهالي جبل عامل في جيش فخر الدين الثاني المعني وأبلوا في حروبه البلاء الحسن، خاصة ضد الأمراء آل سيفا أو ضدهم وضد والي الشام في عنجر[١].

بعد موت فخر الدين، مرّت الإمارة المعنية بضعف وقلاقل جادة، كانت للعثمانيين اليد الطولى في ذكائها. إلاّ أنه بعد إنشاء ولاية صيدا السنة ١٦٦٠ بهدف تقزيم الإمارة، أصبح الجنوب بمناطقه موضوع تلزيم لحكامها، إذ صار تابعاً للولاية الجديدة.

وقد حاول الجنوبيون نيل استقلالهم، لكنهم لم يفلحوا، وكانوا يتململون من الانضواء تحت حكم الإمارة الشهابية بسبب حزبيّتهم اليمنية. ولما قضى الشهابيون القيسيون على اليمنيين في معركة عين داره ١٧١١، أصبحوا في حالة رفض سياسي عميق لسلطة الشهابيين، وخصوصاً للأمير حيدر. ولم يخفوا سرورهم لما توفي ذلك الأمير السنة ١٧٣١، فكانت لهم «مواقف احتفال وابتهاج»[٢]. «وأظهروا الشماتة... فخضّبوا ذيول (أذناب) خيولهم بالحناء سرورا»[٣].

أمام هذا الواقع في جبل عامل قرر الأمير ملحم الوقوف في وجه القوة المتنامية لحكام هذه المقاطعات الجنوبية، ورأى نفسه مكرهاً على كبح جماحهم وردع عصيانهم وثوراتهم بالقوة، وذلك بمساعدة والي صيدا. وفي أغلب الأحيان كان هذا الوالي

(١) الخالدي أحمد الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين، منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٨٧، ص١١١ وما بعدها.

(٢) بازيلي، ص٦٢.

(٣) الشدياق، ج٢، ص٢٤.

يطلب مساعدة الأمير لإخضاع العامليين بقوة السلاح. ما أن تسلم حكم الإمارة بعد وفاة والده، حتى «كتب الأمير ملحم إلى أسعد باشا العظم والي صيدا يلتمس منه ضمان ولاية بلاد بشارة»، فوافق الوالي على طلبه ومنحه حكم هذه المقاطعة آملاً أن يتم إخضاع أهاليها وحكامها عاجلاً أم آجلاً.

٢١ - معركة يارون (١٧٣٤):

بعد منح الأمير ملحم حكم مقاطعة جبل عامل من قبل والي صيدا أسعد باشا العظم، صديقه الحميم، «نهض الأمير إليها مع جيشه، فمال إليه سلمان الصعبي، صاحب مقاطعة الشقيف، فأمنه وأبقاه كما كان، ثم دهم بني علي الصغير في مركز سكنهم في قرية «يارون»[١]. كانت المعركة دموية بين الاثنين وانتهت بهزيمة بني علي الصغير. «فقد أهلكت القوة الشهابية منهم خلقاً كبيراً، وقبض على مقدمهم «نصّار»، ففر أخوته إلى قرية «جويا»، فسار الأمير خلفهم فانهزموا إلى «القنيطرة»، فظفر بجماعة من غلمانهم وأنصارهم فأهلكهم، ونهب تلك الديار، ثم قفل راجعاً إلى دير القمر ومعه «نصّار» مكبلاً بالحديد»[٢]. وولى سلمان صعب، حاكم بلاد الشقيف، على مقاطعة بني علي الصغير، وكان سلمان هذا حليفاً للأمير ملحم وعدواً لبني علي الصغير. وبعد أيام حضر أشقاء «نصار» واستماحوا من الأمير ملحم إطلاق سراح أخيهم، وقدّموا له مالاً، فأخذه، وأطلق لهم أخاهم وأعادهم إلى مقاطعتهم ولاة من قبله[٣].

٢٢ - معركة أنصار (١٧٤٣):

في هذه السنة ١٧٤٣، رفض حكام جبل عامل دفع ما يتوجب عليهم من أموال أميرية

(١) بلدة في قضاء الجنوب، ارتفاعها ٧٥٠م عن سطح البحر وعلى مسافة ١٢٦ كلم عن بيروت.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٤.
- الفقيه، محمد تقي - جبل عامل في التاريخ، دار الساعة، بغداد ١٩٤٥، ص٧٨.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٢٤.
- الفقيه، ص٧٨.

إلى «الدولة العلية». فطلب والي صيدا يومذاك، سليمان باشا العظم، من الأمير ملحم أخذ التدابير الضرورية لجباية هذه الضرائب. وجدها الأمير فرصة مناسبة كان ينتظرها منذ زمن بعيد للاقتصاص من هؤلاء الحكام الذين لم يكفّوا عن مضايقة جيرانهم، حتى إن وقاحتهم وصلت إلى اعتدائهم على إقليم التفاح التابع لإمارة الشوف. جهّز الأمير جيشاً قوامه حوالى الخمسة عشر ألف رجل وانطلق من دير القمر ووجهة مسيره جبل عامل، وما أن وصل إلى جسر الأولي على نهر الليطاني حتى أبلغ من قبل الوالي بالعودة مع جيشه إلى الشوف، لأن العامليين خافوا من وصول قوات الأمير إلى بلادهم، فوجهوا رسلاً «بهدايا وأموال إلى الوالي، يلتمسون منه الصفح على أنهم يدفعون المال الأميري ومالاً آخر غيره...»[1].

تكدر الأمير من موافقة الوالي بغير علمه والعودة إليه، فرفض الأمر وتابع تقدمه نحو جبل عامل، حيث كان بانتظاره في بلدة «أنصار»[2]، بنو علي الصغير وبنو منكر وبنو صعب، وجميع الأنصار والمحازبين دون استثناء، وهم على أهبة الاستعداد للقتال. «اصطف الفريقان المتحاربان في صحراء القرية». ابتدأت المعركة بأن اقتحم الأمير بقواته مراكز العامليين الذين لم يتمكنوا من وقف هذا الإطباق القاسي، فتراجعت قواتهم نحو الوراء ومن ثم تشتت تحت ضغط رجال الشوف، فهرب البعض منهم والتجأ إلى داخل القرية ونظموا في منازلها أعشاش مقاومة. هاجمت قوات الأمير القرية وقتلت كل الذين كانوا في داخلها، ما عدا النساء والأطفال ثم «أمر بنهب وحرق تلك الديار وقفل راجعاً إلى دير القمر ومعه أربعة أسرى من مشايخ آل منكر» فوضعهم في السجن وكتب إلى الوالي يخبره بنتائج المعركة وبانتصاره على العامليين، فأثنى عليه وأرسل له تكاليف المعركة برهاناً قاطعاً عن سروره بما

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٥-٢٦.

(٢) بلدة قرب النبطية تقع على ارتفاع ٣٠٠ متر عن سطح البحر وعلى مسافة ٨٠ كلم من بيروت.

حدث[1]. وتذكر المدونات أن الأمير ملحم ما لبث أن أطلق سراح الأسرى نتيجة توسط الشيخ علي جنبلاط، ولكن بعد تعهدهم بدفع ستة آلاف قرش سنوياً. وإن العامليين قد خسروا في هذه المعركة حوالى ألف وستماية قتيل... والله أعلم[2].

٢٣ - معركة مرجعيون (١٧٤٤):

لم يتمكن حكام جبل عامل وأعيانه من استيعاب الهزيمة التي حلّت بهم وبأنصارهم، والنهب والحرق والدمار الذي أصاب قرية «أنصار» في السنة السابقة ١٧٤٣، لذلك قرروا الانتقام وأخذ الثأر من أعدائهم، فهاجموا قرى وادي التيم ومرجعيون. تحزّب أهالي الشوف إلى جانب أهالي هذه القرى، خاصة أن أكثرية السكان كانوا دروزاً، واشتركوا معهم في المعركة، لكنهم لم يستطيعوا الثبات، فانتصر عليهم العامليون وأحرقوا البلدات والقرى التي هاجموها وقُتل من الشوفيين والتيميين حوالي الثلاثماية، رداً على ما فعله الأمير ملحم في بلدة «أنصار» في السنة السابقة. بعدها تجمّع العامليون في النبطية بغية استئناف القتال، لكن والي صيدا سليمان باشا العظم، منعهم عن تنفيذ مخططهم[3].

٢٤ - معركة جباع الحلاوة (١٧٤٩):

كانت منطقة إقليم الخروب تتبع إمارة الشوف، وقد ولّى الأمير ملحم عليها الشيخ علي جنبلاط، حليفه وأحد أهم أعيان جبل لبنان يومذاك. وقد اعتاد بنو منكر، مشايخ جبل عامل، على غزوها كلما عنّ لهم ذلك. وفي السنة ١٧٤٩ قتل هؤلاء رجلين من الإقليم، من أنصار الشيخ علي. عندها طفح الكيل وقرّر الأمير ملحم القيام بحملة

(١) الشدياق، ج٢، ص٦٥-٢٦.
(٢) أبو صالح، ص٦٢.
- الشدياق، ج٢، ص٢٦.
(٣) الفقيه، ج٢، ص٧٨-٧٩.
- الشهابي، ج١، ص٣٤.
- سويد، ج٢، ص٣٩١.

تأديبية ضد بني منكر فحشد قواته وانطلق باتجاه جزين، ومنها إلى قرية جباع الحلاوة التي احتشد فيها أعداؤه المناكرة، بكل ما لديهم من قوى وأنصار ومحازبين. «فالتقى الجيشان واصطدم الفريقان، فظفر بهم الأمير وأهلك منهم ثلاثماية رجل وفرّ الباقون إلى مزار هناك تحصنوا بداخله، فوجّه إليهم الأمير كتيبة من قواته، بإمرة الأمير مراد أبي اللمع يعاونه الشيخ ميلان الخازن»[1] فقضوا على المدافعين في المزار وأحرقوا القرية. بعدها أغار الامير على مقاطعة الشقيف وبلاد بشارة لملاحقة بني منكر وأنصارهم العامليين، فأمر بحرق القرى وقطع الأشجار، ثم رجع إلى عاصمته دير القمر.

٣ – الأمير ملحم يلتزم بلاد بعلبك (١٧٤٨)

أيـاً تكن الحال، فإن الأمير ملحم، كأسلافه الشهابيين والمعنيين، كان يحلم بربط البقاع الخصب بالإمارة الشهابية. فبعدما بسط سلطته، وإن عن طريق الضمان، على الجنوب، تطلع نحو هذا البقاع، لكنه لن يستطيع تحقيق طموحاته طالما هو على تحالفه الكبير مع أسعد باشا العظم والي صيدا، بسبب عداوته مع أخيه سعد الدين باشا العظم والي الشام. انعكست هذه العداوة على الأمير ملحم، فكرهه والي الشام وابتعد عنه. لكن الشهابي الداهية كان على بينة تامة من الدواء الفعال لهذا الداء. فعندما سنحت له أول مناسبة، دفع إلى والي الشام مبلغاً ظريفاً من المال، فانقلب كرهه وبغضه إلى إعجاب ومحبة، فتمكّن الأمير ملحم من التزام مقاطعة البقاع من الوالي، فعيّن عليها أخويه أحمد ومنصور نائبين عنه في بعلبك العام ١٧٤٤.

٣١ – معركة بر الياس (١٧٤٨)[2]:

كان سببها المباشر عدم قدرة الأمير على دفع الأموال الأميرية المتوجّبة عليه لوالي

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٩.
- الدبس، ج٧، ص٣٧٩.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٩-٣٠.
- الدبس، ج٧، ص٣٧٧.

الشام عن التزام البقاع، فقرّر الوالي المذكور مهاجمته لاسترداد هذه المقاطعة منه.

خرج سعد الدين باشا العظم بجيشه من دمشق نحو البقاع بسرية تامة، آخذاً كل الاحتياطات الاحترازية، بغية مفاجأة الأمير ملحم قبل أن يجمع قواته لمجابهته. استدعى الأمير كل أعيان البلاد إلى الباروك للتداول بالمستجدات. فعندما بلغته تحركات الوالي دقّ نفير التعبئة وجمع قواته وأسرع لملاقاة خصمه. فوصل إلى سهل المغيتة في ضهر البيدر وعسكر هناك. أما الوالي فقد وصل ليلاً إلى بر الياس، فشاهد بأم العين، الأنوار المنبعثة من معسكر الأمير، فعلم أن عنصر المفاجأة قد فقد من بين يديه، فقرّر التوقف حيث هو. أمضى الوالي ثلاثة أيام مجتمعاً مع أركانه لتحضير خطة العمل. في اليوم الرابع أخذ الأمير ملحم المبادرة وهاجم خصمه فجراً.

استغرقت المعركة الشرسة حتى الظهر، من دون أن يحسمها أحد من الفريقين. عندها قرّر الأمير إطلاق الإطباق ضد خصمه بكل قواته، مستفيداً من المفاجأة التي أحدثها ليحسم المعركة لصالحه، وهذا ما حصل فعلاً. لقد سحقت خيالة الأمير ومشاته قوات الوالي التي ابتدأت تقاتل متراجعة نحو الشرق، تشكو الجوع والعطش. فلاحقتها خيالة الأمير إلى بلدة جديدة يابوس على أبواب دمشق عاصمة الولاية، حيث قرر الأمير ملحم وقف الملاحقة، مما سمح لباقي قوات الوالي متابعة انسحابها نحو المدينة[1].

تقدّم الأمير إلى بعلبك فهاجم متسلمها حيدر الحرفوش، الذي انحاز مع الوالي، حارقاً بطريقه القرى التي مر بها، ثم أقاله وعيّن مكانه متسلماً حرفوشياً آخر من قبله، هو الأمير حسن، شقيق حيدر[2]. والأمير حسن هذا كان أثناء المعركة مع أمير الشوف. وقد استمرت المناوشات بين والي الشام هذا، وبين الأمير حيدر الحرفوش، الذي وصل جنوده في بعض الأحيان دمشق نفسها السنة ١٧٤٨.

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٩-٣٠.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٣٧.

أ - الاستنتاجات:

من خلال هذه المعركة، يمكننا استخلاص بعض الصفات العسكرية لهذا الأمير الداهية:

(١) - لقد استطاع الأمير إبطال مفعول عنصر المفاجأة، الذي حاول خصمه الإفادة منه، بأن توصّل إلى معرفة «نواياه»، فتصرف سريعاً لمقاومتها وإبطالها. هكذا ظنّ الوالي مفاجأة الأمير بانتقاله من دمشق بسرية تامة وحذر كبير للوصول إلى بر الياس. اكتشفت نواياه من قبل خصمه الذي حرّك قواته وأخذ مبادرة الهجوم ليظهر ريبته منه.

(٢) - خسارة عنصر المفاجأة أوقعت الوالي في حيرة وتردد، بينما أفادت الأمير للتصرف بسرعة. لقد نفذ قراره بهجوم سريع ومتقن. إن مفعول المفاجأة انتقل من معسكر إلى آخر، مما أحرج الوالي، فانتقل إلى موقف الدفاع بدلاً من موقف الهجوم، وبدلاً من أخذ مبادرة المفاجأة، فوجئ هو نفسه.

(٣) - إن اختيار موعد الهجوم من قبل الأمير كان موفقاً، فعند الفجر تكون القوى على وشك الاستيقاظ وللملمة حاجياتها من دون احتياطات احترازية. فضلاً عن ذلك، فالفجر هو الساعة المثالية للمباشرة بالهجوم.

(٤) - إن استغلال النجاح من قبل الأمير كان نموذجياً: لقد أرهق عدوه حتى الإنهاك، مجبراً قواته على التبدد في شكل يمنع الأمل لدى الوالي بتجميع قواته لاستئناف القتال أو القيام بهجوم معاكس.

بعد هذه المعركة، لم يبق سعد الدين باشا العظم طويلاً والياً على الشام. لقد حُكم عليه بالموتُ ونفّذ الحكم به، وعين مكانه أخوه أسعد باشا العظم، حليف الأمير ملحم.

وفي السنة عينها (١٧٤٨) توفي هذا الوالي في طبريا في فلسطين لسبب لا يزال مجهولاً، فحل مكانه سليمان باشا العظم في دمشق، كما عيّن عثمان باشا والياً على صيدا[1].

(١) الشدياق، ج٢، ص٣٠.
- الدبس، ج٧، ص٣٧٩-٣٨٠.

٣٢ - **معركة تعنايل** (١٧٥٠):

كان الشيخ شاهين تلحوق، من حلفاء الأمير، يسكن في بلدة تعنايل في البقاع، وكان مع عصابته يعترض المسافرين والمارة على طريق دمشق ليسرق أموالهم وأمتعتهم بالقوة. «أنفذ إليه سليمان باشا والي دمشق مدبره بعسكر دهمه ليلاً في بلدة تعنايل، ففر منها ونجا سالماً وقتل من أصحابه ثلاثة أنفار». فلما بلغ الأمير ذلك نهض برجالة نحو البقاع ودهم ذلك المدبر فقتله وقتل العديد من رجاله، وفر الباقون إلى دمشق.

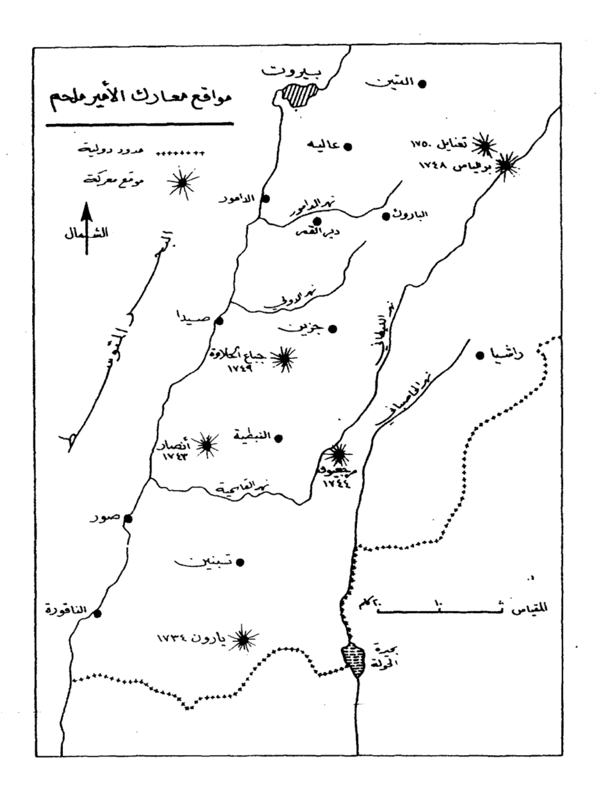
لم يرق للوالي ما حصل لمدبره: فنظم حملة تأديبية ضد الأمير ملحم، فبلغ الخبر سمع مصطفى باشا القواس، والي صيدا وصديق الأمير الخاص، فتدخّل في الأمر «فأرسل يلاطف سليمان باشا ويقدم له وسائل الصلح بينه وبين الأمير». ونهض إلى البقاع حيث تمكن من مصالحة الخصمين، «بشرط أن يدفع الأمير لسليمان باشا خمسة وسبعين ألف غرش كتغطية للمصاريف التي تكبدها الوالي على حملته العسكرية. وقد تعهد له بها وكفله مصطفى باشا. فأرسل الأمير ملحم أخاه علي كرهينة، إلى دمشق حيث بقي فيها حوالي الخمسة أشهر حتى دفع المال».

٤ - الأمير ملحم يوسع إمارته نحو بيروت (١٧٤٩)

استطاع الأمير ملحم أن يبسط سلطة الإمارة شرقاً نحو البقاع وإن عن طريق الضمان، كما أنه تمكن جنوباً من التزام مقاطعة جبل عامل من والي صيدا. أما شمالاً فقد تحالف مع إقطاع جبل لبنان. ولم يبق للأمير ملحم إلاّ أن يبسط سلطة إمارته غرباً على بيروت: المرفأ الحيوي الذي يصله ببلاد الغرب ومنفذه الوحيد إلى البحر المتوسط. لذلك راح الأمير ملحم يتطلع إلى استعادة بيروت التي كان متسلمها التركي ياسين بك، الذي لم يكن على حال جيدة معه. وقد تمكن الأمير من الوصول إلى غايته بمساعدة حليفه الشيخ شاهين تلحوق وجماعته، إذ راحوا يشنون الغارات على أطراف بيروت التي كانت تابعة لوالي صيدا، عثمان باشا، صديق الأمير. وتبين أن الشيخ شاهين كان ماهراً في تنظيم وتنفيذ هذه

خريطة رقم ٢

أمكنة المعارك التي قام بها الأمير ملحم شهاب.



الغزوات. وإذ عجز ياسين بك عن رد تلك الغارات المتكررة والمزعجة، عرض والي صيدا على الأمير ملحم السنة ١٧٥٠، ضم بيروت إلى حكمه، بعد عزل متسلمها، ففعل. ومنذ ذلك التاريخ حتى عهد أحمد باشا الجزار، كان الأمراء الشهابيون ينتقلون إليها ويتوطنوها، وكانت بالنسبة لهم عاصمتهم الثانية بعد دير القمر[١].

٥ - الأمير ملحم يتنازل مكرهاً عن حكم الإمارة (١٧٥٤)

تسلّم الأمير ملحم الإمارة من أبيه الأمير حيدر السنة ١٧٢٩. وفي السنة ١٧٥٤، «دخلت شوكة صبير في يده فأضنته كثيراً، فعالجه الأطباء يومذاك فعجزوا عن شفائها. فنحل جسمه ووهنت همته، فطمعت فيه مشايخ البلاد واتفقوا مع أخويه الأمير أحمد والأمير منصور على عزله...»[٢]، مما اضطره إلى تفويض مقاليد الإمارة كرهاً وإكراهاً «فتسلماها وجلسا في دير القمر»، ثم انتقل الأمير ملحم إلى بيروت بعياله وتوطنها منزهاً عن الأحكام، وعكف على درس الفقه ومعاشرة علماء الإسلام، وفيها (أي في السنة ١٧٥٤)، نصّر الخوري ميخائيل فاضل البيروتي[٣] الأمير علي حيدر، شقيق الأمير ملحم، ثم تنصّر من أولاد الأمير ملحم الأمراء: قاسم وسيد أحمد وحيدر[٤]، وتبعهم أكثر الأمراء الشهابيين، ثم اللمعيون. وقبل وفاته في بيروت السنة ١٧٦١ وعمره ستون سنة ودفنه في جامع الأمير منذر التنوخي، «أقام الأمير ملحم على أولاده، سعد الخوري صالح[٥] وصياً لأنهم كانوا صغارا»[٦].

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٦٥.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٣٠-٣١.
(٣) أصبح فيما بعد بطريركاً على الطائفة المارونية (١٧٩٣-١٧٩٥).
- الشدياق، ج٢، ص٣١.
(٤) نلاحظ هنا ورود ٣ أسماء فقط من أبنائه على أنهم تنصروا، ليس بينهم اسم الأمير يوسف.
(٥) هو جد آل السعد في عين تراز - ولد في رشميا وتوفي ودفن في جبيل، مدبر الأمير يوسف ملحم شهاب خلال ولايته على جبيل والبترون ولبنان ومعاونه في تأديب بني حماده وانتزاع الولاية منهم.
(٦) الشدياق، ج٢، ص٣١.

لقد حكم الأمير ملحم إمارة الشوف حوالى ٢٥ سنة وترك بعد وفاته عائلة مؤلفة من سبعة أولاد هم: محمد، يوسف، قاسم، سايد، أحمد، أفندي وحيدر.

لقد حزن الشهابيون كثيراً على موت الأمير ملحم لأنهم كانوا يعتبرونه بمثابة والدهم الكبير، رغم سلوك أخويه أحمد ومنصور وكرههما له. كان الأمير رجلاً كريماً وشهماً، جريئاً جسوراً، سفاكاً، دموياً وشغوفاً بالنساء الجميلات[1]. «فور شيوع خبر وفاته كانت مواقف احتفال وابتهاج من قبل أعدائه وخاصة أنصار ومحازبي أخويه الأميران أحمد ومنصور.

٦ – انتعاش الحزبية اليزبكية – الجنبلاطية في عهد الأمير ملحم وتنصّر الأمراء الشهابيين

في عهد الأمير ملحم حيدر شهاب، حصلت حوادث اجتماعية عدة، منها حادثان بارزان، كان لهما تأثير ظاهر وفعال في مجريات الأمور التي وقعت في ما بعد في إمارة الشوف والمقاطعات اللبنانية الأخرى، هما: انتعاش الحزبية اليزبكية – الجنبلاطية، وتنصّر أمراء الشوف الشهابيين.

٦١ - إنتعاش الحزبية اليزبكية - الجنبلاطية (الغرضية):

في عهد الأمير ملحم انتعشت فجأة، الخصومة الحزبية اليزبكية - الجنبلاطية التي كان مضى على نشوئها مائة عام. «حتى خُيّل إلى الباحثين أن تلك الخصومة قد نشأت في هذه المرحلة بالذات» وردوا سبب نشوئها إلى مشاحنة كلامية بين الشيخ عبد السلام العماد ومعاصره الشيخ علي جنبلاط السنة ١٧٦٣. «فانقسمت طائفة الدروز قسمين جنبلاطي ويزبكي. غير أن المشايخ النكديين ورجالهم لم يدخلوا في هذا الانقسام، الذي عمّ الأمراء الشهابيين واللمعيين والنصارى اللبنانيين... وكان زعيم اليزبكية بنو عماد وزعيم الجنبلاطية بنو جنبلاط»[2].

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص٤٩.
(٢) الشدياق، ج١، ص١٧٧.

في الواقع يعود تاريخ نشوء الحزبين اليزبكي والجنبلاطي إلى زمن الأمير فخر الدين المعني الثاني، وكان الشيخ جنبلاط، جد آل جنبلاط، قد قدم حديثاً إلى لبنان، وألّف حزباً انضوت تحت لوائه معظم العائلات الشوفية، فوقف منه الأمير فخر الدين موقف الحذر ثم أقدم على اعتقاله مدة، ثم أفرج عنه. وحين وقع الخلاف بين فخر الدين والعثمانيين، فضّل جنبلاط وأنصاره التفاهم مع العثمانيين. توفي الشيخ جنبلاط السنة ١٦٤٠، تاركاً ولداً وحيداً هو رباح الذي عاش في قصر أبيه في مزرعة الشوف معتزلاً السياسة وتوفي السنة ١٧٠٠ وله ثلاثة أبناء هم: علي وفارس وشرف الدين. وكان علي (١٦٩٠-١٧٧٨) أشهر أبناء رباح، وهو الذي عُرف بـ «أبو قاووق» لارتدائه قاووقاً مذهباً. كما عرف «بالشيخ طبق» نظراً لكرمه وسخائه، وقد تزوج السنة ١٧١٢ من ابنة الشيخ قبلان القاضي الوحيدة وانتقل معها إلى المختارة حيث بنى القصر الجنبلاطي وتولى مشيخة الدروز.

في أيام فخر الدين تولى الشيخ جنبلاط قلعة الشقيف بتكليف من الأمير، وفي تلك المنطقة كان بنو عماد يسكنون في قرية تسمى «الزنبقية»، فحدثت بينهم وبين الجنبلاطيين فتنة، فاقتتلوا وقتلوا من الجنبلاطيين جماعة ونهبوهم وفرّ الباقون إلى مزرعة الشوف، وانتقل العمادية إلى «عين وزين»، ومنها إلى الباروك. وتقول المدونات إن الشيخ يزبك بن عبد العفيف العماد، من أعيان الشوف، هو الذي ينسب إليه الحزب اليزبكي[1]. وإن تاريخ «الغرضتين» الجنبلاطية واليزبكية يعود إلى تلك الحقبة من الزمن.

إن هذا الصراع هو جزء من النزاع المقاطعجي العام في لبنان وفي استمرار تاريخي له. إنه صراع ما بين أسرتين مقاطعجيتين درزيتين. وهذا الصراع حصر دوماً بين أسرتين من الأسر المقاطعجية الدرزية مهما كانتا صغيرتين. فهو صراع محلي في بعض قرى الشوف من جهة، ومن جهة ثانية، كان يجرّ وراءه تحالفات داخل الفلاحين النصارى التابعين لهما في تلك

(١) المعلوف، عيسى اسكندر، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف، المطبعة العثمانية بعبدا ١٩٠٧، ص٢٠٦

المنطقة. إذاً لم يكن يشمل لبنان بأسره. كما لا يمكنه أن يشكّل بديلاً للصراع المقاطعجي العام في حقبة تسابق الأمراء الشهابيين على شراء خلعة الإمارة من أيدي الولاة العثمانيين.

إنّ الأسر السياسية التي كانت موزعة على الحزبين الجنبلاطي واليزبكي، إنما هي في مجملها كانت قيسية الحزبية. فعندما وقعت معركة عين داره السنة ١٧١١ وقضى الأمير حيدر على اليمنية نهائياً في الجبل، انتعشت داخل الحزب القيسي العصبية الجنبلاطية - اليزبكية، من خلال طبيعة نشوء المعارضة السياسية للحاكم. فقد بدأت هذه الغرضية تعود إلى الظهور في عهد الأمير حيدر، إذ بدأ المؤرخون يذكرون فيحولياتهم «الجنبلاطيون واليزبكيون». فعندما التمس الشوفيون من والي صيدا عثمان باشا السنة ١٧١٢، مهلة لسداد المال المتوجب، على أن «يضعوا عنده الرهائن» وقد «قبل عثمان باشا بذلك، أرهن الشيخ على جنبلاط «المقدم شرف الدين»، مقدم حمانا، وأرهن اليزبكية «ابن الشنيف»[1].

غير أن تلك الحزبية برزت بشكل واضح في عهد الأمير ملحم. «وكان أعيان لبنان في زمن الأمير ملحم قد انقسموا حزبين، اليزبكي وزعيمه الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق ونسب إلى يزبك جد بني العماد، والجنبلاطي وزعيمه الشيخ علي جنبلاط ... »[2].

بينما جمع الحزب اليزبكي إلى آل العماد الذين تزعّموه عائلتي تلحوق وعبد الملك ومن وإلى العائلات الثلاث، وجمع الحزب الجنبلاطي أنصار آل جنبلاط، بينما بقي آل نكد خارج هاتين الغرضيتين، فكانوا يرجّحون الحزب الذي يتحالفون معه عند اللزوم، وعرفوا بأنهم كانوا يمثلون «بيضة القبّان» في هذا الصراع الحزبي.

(١) الشهابي، الغرر، ج١، ص١٥.
(٢) الشهابي، الغرر، ج١، ص٤٩.
- المعلوف، دواني القطوف، ص٢٠٦.

لم يكن هذا الصراع وذاك الانقسام بين الأسر في الإمارة، انقساماً دينياً، فلقد بدأ بين الأسر الدرزية وانتقل إلى الأسر المسيحية، لقد كان انقساماً أفقياً، بمعنى أنه شمل الدروز والنصارى. كما أنه لم يكن انقساماً اجتماعياً طبقياً، بل كان تكتلاً للأسر اللبنانية، يضاف إليها العامل الاقتصادي. فالشيخ علي جنبلاط كان الأغنى بين الدروز، بينما عبد السلام العماد لم يكن بمرتبته. وبديهي أن يكون أتباع الغني أكثر عدداً من أتباع الثاني، وبالتالي فإن هذا الدافع الاقتصادي الاجتماعي أدى إلى صراع سياسي على الحكم والسلطة، تحول، داخل الأسرة الشهابية إلى صراع من أجل السلطة، ففي هذه المرحلة حكم الأمير ملحم، وفي أيامه ظهر عامل جديد في الصراع، هو الصراع على ملكية البقاع بين الأمير وبين والي الشام، والصراع على بيروت التي ضمها الأمير إلى الإمارة، والذي سيكون مدار خلاف في ما بعد بين الأمير يوسف ملحم الشهابي وأحمد باشا الجزار والي عكا.

في عهد الأمير ملحم كانت أولى نتائج هذه الحزبية، أن هذا الأمير اضطر إلى الدخول في خصام مع أخويه الأميرين أحمد ومنصور، الذي أدى إلى تنازله عن حكم الإمارة إلى أخويه المذكورين السنة ١٧٥٤. ورد في نص للشدياق، «لقد طمعت منه المشايخ»، وهذا يدل إلى أن صمود الأمير الحاكم في وجه الصعاب، هو الذي سيبقيه في السلطة. وإذا ضعف الأمير الحاكم تكون نتيجته المباشرة، محاولة التخلص منه. والتجمع الحزبي حول الأمير كان من شروطه أن يكون الأمير ذا شخصية قوية ومهمة. ففي الصراع من أجل السلطة، دخلت القوة كعامل جديد، أن الأميرين أحمد ومنصور شكّلا نوعاً من الجبهة ضد الأمير ملحم والأمير قاسم شقيقه... وتقول الرواية: إن الأمير ملحم طلب من الأمير قاسم الذهاب إلى اسطنبول للمطالبة بالولاية، فذهب إلى هناك وعند وصوله تغير الصدر الأعظم فقدم المعاريض وعاد إلى دمشق في الوقت الذي عينت السلطنة عثمان باشا والياً عليها. فوافق على الأمير قاسم وأرسل له خلعة الولاية، مما اضطر الأميران أحمد ومنصور إلى التنازل له، وحصل خلاف بينهم انتهى بأن زاد

الأميران منصور وأحمد المال لوالي صيدا، فخلع عليهما الولاية. ثم سرعان ما نشبت النفرة ما بين أحمد ومنصور بفعل التحزب: فالأمير أحمد كان يزبكياً والأمير منصور جنبلاطياً، وانعكس الخلاف الحزبي على الأميرين، فوقف والي صيدا إلى جانب منصور داعماً الموقف الجنبلاطي، مما اضطر الأمير أحمد إلى التنازل للأمير منصور الذي تفرد بالحكم.

إن توسط والي صيدا كان العامل الخارجي الذي لعب دوراً جديداً إلى جانب الانقسام الداخلي. هذه الخلافات على السلطة، وحول السلطة، انعكست على الأوضاع الاجتماعية في الإمارة: فللحصول على الولاية يجب زيادة المال المترتب للدولة العثمانية، وبالنتيجة زيادة الضرائب على الشعب، وخاصة على «الأخصام». فالمال عامل جديد في الصراع داخل الإمارة (عامل اقتصاري). وهذا الأمر سيزداد أهمية في عهد الأمير يوسف وبداية حكم الأمير بشير الثاني، وسينعكس على الوضع الاجتماعي بما نسميه «العاميات».

٦٢ - التصنيف الحزبي للعائلات الشوفية:

على سبيل المثال يمكننا تصنيف بعض العائلات الشوفية وفق انتمائها الحزبي إلى أحد الأحزاب «الجنبلاطي - اليزبكي - النكدي» أو وفق انتمائها إلى غرضية ثانوية، تعود بانتمائها إلى هذه الأحزاب.

أ - الأحزاب:

أولاً - الحزب الجنبلاطي:

يقوده المشايخ الجنبلاطيون، وتتبعهم عائلات درزية هي: أبو شقرا في عماطور - تقي الدين - طليع - بعيني - أبو كروم - زين الدين - سيف - أبو حسن - يقظان وتاج الدين. وعائلات مسيحية هي: قهوجي - أبو عبسي - مشايخ آل الخازن في كسروان.

ثانياً - الحزب اليزبكي:

يقوده المشايخ العماديون، وتتبعهم عائلات درزية هي: عبد الصمد من عماطور - أرسلان - الأعور - حماده - علامة - ناصر الدين - هاني وتلحوق. وعائلات

مسيحية هي: مشايخ آل الدحداح في كسروان وغيرهم.

ثالثاً - الحزب النكدي:

يقوده المشايخ بنو نكد، وتتبع له كل العائلات المحايدة والتي ترغب في أن تكون على مسافة متساوية من الحزبين المتصارعين: اليزبكي والجنبلاطي. لقد بقي هذا الحزب موحداً ومتماسكاً. يرجّح كفة الحزب الذي يتحالف معه عند اللزوم وعرف بأنه «بيضة القبان». وكان النكديون في «عبيه» دائماً قريبين جداً من الأمير الحاكم في دير القمر. ونحن نعتقد غير ذلك إذ أن هذا الحزب، أنشأه الأمير الحاكم نفسه، ليكون بتصرفه قوة خاصة قادرة على أن تبدّل توازن القوى الموجودة في إمارته(١).

ب - الغرضيات الثانوية:

استناداً إلى المدونات يومذاك يمكننا ذكر:

أولاً - في عماطور:

الغرضية: أبو شقرا - عبد الصمد: كانت عائلة أبو شقرا جنبلاطية ومعها العائلات التالية: أبو الحسن - يقظان وتاج الدين.

أما عائلة عبد الصمد فكانت يزبكية ومعها عائلات: علامة - ناصر الدين والهاني.

ثانياً - في شارون:

الغرضية: الأحمدية - الصايغ في شارون نفسها.

ثالثاً - في قرنايل:

الغرضية: آل الأعور - آل هلال في قرنايل نفسها.

جميع هذه الغرضيات كانت تنتمي في نهاية المطاف إلى أحد الحزبين المتخاصمين: الجنبلاطية أو اليزبكية(٢).

٦٣ - اعتناق بعض أمراء الشوف الشهابيين الديانة المسيحية:

كان الشهابيون، منذ تسلمهم إمارة الشوف من الأمراء المعنيين الدروز، يعتنقون

(١) أبو شقرا يوسف خطار - الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية - ١٩٥٢، ص٨٣-٨٥.
(٢) مماثل، ص٨٤.

المذهب السني، وأول من اعتنق المسيحية على المذهب الماروني، كانت أرملة الأمير بشير الأول، مع ابنها وابنتيها العام ١٧٠٧[1].

وخلال حكم الأمير ملحم حيدر شهاب، تنصّر عدد من الأمراء الشهابيين واللمعيين على المذهب الماروني أيضاً. ففي السنة ١٧٥٤ نصّر الخوري مخايل فاضل الماروني، الأمير علي حيدر، شقيق الأمير ملحم، وعدداً من أولاد الأمير المذكور وهم: قاسم وسيد أحمد وحيدر، وتبعهم أكثر الأمراء الشهابيين ثم اللمعيين[2]. بينما نقل الدكتور ربّاط أن اثنين فقط من أولاد الأمير ملحم تنصرا وهما يوسف وقاسم[3]. ويقول الشدياق في كتابه إنه في السنة ١٧٦٤، اعتنق الأمير قاسم عمر المسيحية عن يد البطريرك الماروني يوسف إسطفان الغسطاوي[4].

إن تنصّر الأمير يوسف بحاجة إلى إثبات. فهو أحد ستة أشقاء هم: أحمد - قاسم - سيد أحمد - أفندي وحيدر[5]. وهؤلاء هم أولاد الأمير ملحم الذي تسلم الإمارة من أبيه حيدر السنة ١٧٢٩، وسلمها مرغماً إلى شقيقيه أحمد ومنصور العام ١٧٥٤. والملاحظ أن الأمير ملحم مات مسلماً سنياً بدلالة دفنه في جامع الأمير منذر التنوخي. وإن أبناءه الذين تنصروا السنة ١٧٥٤، كانوا لا يزالون قاصرين السنة ١٧٦١، مما يعني أن تنصرهم جرى وهم أطفال، «وإن هذا التنصر قد جاء بناء على طلب والدهم»[6]. وإن الأمير يوسف لم يكن بين الأسماء التي ذكرها الشدياق.

(١) إسماعيل، عادل - المحررات السياسية والقنصلية - بيروت ١٩٧٥، ج١، ص٧٣.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٣١.

(٣) ربّاط، إدمون، التكوين التاريخي للبناني السياسي والدستوري - بيروت - الجامعة اللبنانية، ١٩٧٣، ص١٧٨.

(٤) الشدياق، ج٢، ص٣٨: والأمير قاسم عمر هو والد الأمير بشير الشهابي الكبير الذي ولد العام ١٧٦٨ في غزير مقر سكن والده.

(٥) مماثل، ص٣٣.

(٦) مفرج، ٣٢٣.

لا يوجد أي نص صريح في أي مرجع يذكر أن الأمير يوسف قد تنصر فعلاً «غير أن بعض المؤرخين قد استنتج تنصره: إما لأن جيش الأمير يوسف كان يضم عدداً من الكهنة، وكان يطلب إليهم إقامة القداس، أو لأن مدبره كان الشيخ سعد الخوري، وربما كانت لهذه الوصاية الدور الرئيسي في تنصر أولاد الأمير ملحم وعلى رأسهم الأمير يوسف على المذهب الماروني»(١). وهذا الاستنتاج خاطئ، لأن الأمير ملحم كان قد نصّر ثلاثة من أولاده السنة ١٧٥٤، بينما لم يقم الشيخ الخوري وصياً على أبنائه قبل السنة ١٧٦١(٢).

في مطلق الأحوال لا يمكننا أن نؤكد أو أن ننفي كون الأمير يوسف قد تنصر؛ فطالما أن الأمير يوسف كان في الظاهر مسلماً، «إنه كان دائماً يتظاهر بالإسلام...»، ولم يذكر أي مرجع أساسي إنه نُصّر أو تنصر، فلماذا الإصرار على أنه كان مسيحياً؟ وإذا عدنا إلى أولاد الأمير يوسف: حسين وسعد الدين وسليم، فليس بين هذه الأسماء ما من شأنه أن يدل على أنهم قد ولدوا من أسرة مسيحية، وإن كان العكس وارداً أيضاً. وقد يكون هؤلاء الثلاثة تنصروا أو نصّروا لاحقاً. يقول الدكتور إدمون رباط، إن تنصر الشهابيين واللمعيين كان «منعطفاً في تطور ونشوء لبنان».

كان اندحار اليمنيين في عين داره حدثاً بالغ الخطورة في تاريخ لبنان، إذ إنه وطد دعائم السيادة الشهابية وقضى على الخلاف القيسي - اليمني في البلاد، إلى جانب ذلك، كانت لطرد اليمنيين من المناطق اللبنانية نتائج خطيرة في السياق الطويل، لأنه أنقص عدد الطائفة الدرزية بالنسبة إلى عدد الموارنة. لكن ميزان القوى بين الطوائف ظل، إلى حين، من دون تغيير. فانتصار القيسيين الساحق دعم في البدء تفوق الدروز السياسي، إذ التفّ القيسيون حول الأمير حيدر لاقتسام مغانم المعركة. غير أن الأمير عمد إلى تعزيز النظام الإقطاعي للحؤول دون قيام ما يهدد الحكم الشهابي. وقد بلغت مكانة الأسرة الشهابية في لبنان،

(١) أبو صالح، التاريخ السياسي، ص٨٣.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٣٢-٣٣.

في عـهـده، مـن الـقـوة بـحـيث رسـخت في الأذهان استـحـالـة زعزعتـهـا. فحين اعتزل الأمير ملحم الإمارة، كان الدروز قد اصبحوا أقلية في مناطقهم. والموارنة ازدادوا قوة على قـوة. ويـبـدو أن الأمير ملحم تأثر باختلال التوازن بين الطوائف في أيامه، ولذلك سمح لأولاده بـعـد اعـتـزالـه، وهـو المسـلـم السنّي المؤمن، بأن يتنصّروا. بل لعله شجعهم على ذلك. ومـع مـرور الأيـام، اقـتـدى الأمـراء الشـهـابيـون والـلـمعيـون بأبنـاء الأمير ملحم فصـاروا نصـارى. ولـم يـطـل الـوقت حـتـى نشأت طبقة من الموارنة المتعلّمين، تبوأت أعلى المناصب في الحياة العامة، وأملت، في الكثير الغالب، سياسة الإمارة الشهابيـة.

إلى جـانب هــذا، فـقـد نشـط عـدد مـن الإرسـالـيـات الأجـنـبـيـة في لـبـنـان، مـن فـرنسـيسـكـان وعـازاريين وكـرمـلـيين ويسـوعـيين. وكـانـوا جـمـيـعـاً مـقـربين لـدى الأمراء الشهابيين وعلى صلة مباشرة بهم. إن تـنـصـر الشـهـابـيين «أدى إلى إعـادة ربـط الخيط المقطوع الذي عقده فخر الدين مع الغرب في أيامه». فمن خلال الموارنة وهذه الإرساليات سمح الشهابيون بدخول تيارات سياسية وثقافية جديدة إلى إمارتهم، هيأت لـبـنـان، في الـقـرن المقبـل، لأن يـكـون الخلية المحرّكة والفاعلة في النهضة العربية.



الفصل الرابع

الأميران أحمد ومنصور: الصراع من أجل السلطة (١٧٥٤ - ١٧٧١)

١ - من تقاسم السلطة إلى الانفراد بالحكم

خلال حقبة سبعين سنة من حكم الأمراء الشهابيين، برزت في الإمارة ديموقراطية محدودة، اقتصر حق الخيارات السياسية فيها على الأسر السياسية - الإقطاعية من دون عامة الشعب. ومن الأمثلة على ذلك، مؤتمر مرج السمقانية السنة ١٦٩٧ الذي أسفر عنه اختيار الأكثرية للأمير بشير الشهابي الأول خلفاً للأمير أحمد المعني، واجتماع الباروك الذي دعا إليه الأمير منصور حيدر شهاب السنة ١٧٧٠ ليعلن «للأعيان» قراره التخلّي عن حكم الإمارة للأمير يوسف ملحم شهاب.

إذن، في ظل هذا الواقع، كان لا بدّ من ظهور معارضة وموالاة للحكم القائم، وطموحات لدى بعض من يتمتعون بالمعطيات والمؤهلات التي تسمح لهم بالوصول إلى سدة الإمارة. وهكذا يصبح ظهور الحزبيات السياسية أمراً محتماً، فظهرت الغرضية اليزبكية الجنبلاطية، وانقسم الأعيان بينهما. هذا الانقسام الحزبي المتجدد، نشط قوياً في عهد الأميرين الشهابيين أحمد ومنصور، اللذين خلفا أخاهما الأمير ملحم مشتركين إثر مرض هذا الأخير السنة ١٧٥٤، وتنحّيه عن السلطة وتسليمه «الإمارة لهما كرهاً وإكراها».

لقد اتفق الأخوان أحمد ومنصور، بمباركة الأعيان على اقتسام سلطة الحكم في إمارة الشوف، ولكن سرعان ما وقع الخلاف بينهما لحظة وصولهما إلى السلطة السنة ١٧٥٤. في

هذه السنة «طمعت مشايخ البلاد بالأمير ملحم واتفقوا مع أخويه الأمير أحمد والأمير منصور على عزله». وقد رأينا سابقاً أن أعيان البلاد «المقاطعجية» كانوا منقسمين ما بين » غرضيتين: الجنبلاطية التي أيدت الأمير منصور، واليزبكية التي أيدت وساندت الأمير أحمد. وقد حاول كل من الأميرين الانفراد بحكم الإمارة.

بالرغم من هذا الصراع الحزبي المحتدم، فرضت ظروف البلاد آنذاك وأعيانها حلاً يقضي باقتسام السلطة بين الأخوين المذكورين لمدة زمنية امتدت عشر سنين (١٧٥٤-١٧٦٣) بلا مماحكات واصطدامات تذكر، اللهم إلاّ معركة بيروت.

١١ - معركة بيروت (١٧٦٠):

شكّل الأميران أحمد ومنصور نوعاً من الجبهة ضد الأمير ملحم، الذي ندم على تنازله عن الحكم، والأمير قاسم عمر شهاب. وتقول الرواية إنّ الأمير ملحم طلب من الأمير قاسم الذهاب إلى اسطنبول للمطالبة بالولاية. وكان الأمير قاسم صديقاً حميماً لنعمان باشا، والي صيدا. فقد ذهب وقدم المعاريض وعاد وقد نجح باستصدار فرمان سلطاني يعينه «أميراً حاكماً على الشوف». فجهز جيشاً من أنصاره ومحازبيه وعسكر والي صيدا، وقام به إلى بلدة الحدث، ومن هناك استطاع أن يقتحم مدينة بيروت «غفلة» ويحتلها، تاركاً فجوة لخروج عمّيه، أحمد ومنصور اللذين كانا فيها. وقد تمكنا من الهرب خارج المدينة في الوقت الذي كان بإمكان الأمير قاسم إلقاء القبض عليهما[1].

ذهب الأميران إلى الشوف وجمعا الأعيان و«الأكابر وكتبوا إلى الوالي كتاباً مضمونه أنهم لا يرضون ولاية الأمير قاسم عليهم والتمسوا منه عزله عنهم وأن يعيد الولاية إلى الأميرين أحمد ومنصور، ودفعوا له على ذلك خمسين ألف غرش...»[2]. أرسل الوالي أمراً بعزل الأمير قاسم وبتولية الأميرين على الشوف. وفي النهاية تمّ الصلح بين الأمراء الثلاثة.

---

(١) الشدياق، ج٢، ص.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٣٤.

في العام ١٧٦٢، تزوّج الأمير قاسم من ابنة عمه الأمير منصور فولدت له الأمير حسن والأمير بشير الذي سيصبح في ما بعد حاكم لبنان لمدة خمسين سنة، ولعظمته لقب بالكبير.

لم يستمر التوافق ما بين أحمد ومنصور لاقتسام الحكم في الإمارة، ففي السنة ١٧٦٣، وقعت «النفرة بينهما وتنازعا على السلطة، ساند الجنبلاطيون الأمير منصور، واليزبكيون الأمير أحمد الذي توجه إلى دير القمر عازماً على الانفراد بالحكم، وتوجه الأمير منصور إلى بيروت عازماً على ما عزم عليه أخوه...»[1].

كان الأمير منصور أكثر دهاء وكفاءة من أخيه أحمد. لقد صادق والي صيدا، محمد باشا العظم، وعقد معه ارتباطاً قوياً، فكتب له يستنجده لمؤازرته وتثبيته كحاكم وحيد لإمارة الشوف. استجاب الوالي لهذا الطلب «ونهض من صيدا بعسكر إلى حرش بيروت لمعونة الأمير منصور وخيم هناك...» بانتظار وصول رجال منصور للهجوم على الأمير أحمد في دير القمر. حاول أحمد استنفار محازبيه اليزبكيين، لكن أحداً منهم لم يلب النداء، لأنهم كانوا على علم بانحياز الوالي المذكور إلى جانب الأمير منصور. أمام هذا الواقع وجد الأمير أحمد نفسه مكرهاً لترك دير القمر واللجوء إلى كفر نبرخ. أما ابن شقيقه، الأمير يوسف، فقد فرّ هو أيضاً بأخوته وأهله إلى المختارة «لأنه كان متحزباً مع عمه أحمد، فنزل على الشيخ علي جنبلاط»[2]. استقر الأمير منصور في دير القمر حاكماً وحيداً على الإمارة الشوفية. تم الصلح بين الأميرين بتدخل الشيخين، علي جنبلاط وعبد السلام العماد، زعيمي الحزبين اللدودين. وهكذا سمح للأمير أحمد بالعودة إلى دير القمر مظهراً إخلاصه لأخيه منصور الذي أخذه تحت حمايته، وبقي هناك حتى وفاته السنة ١٧٧٠.

(١) الشدياق، ج٢، ص٣٥.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٣٥.

٢ – الأمير منصور يتفرّد بحكم الشوف (١٧٦٣ – ١٧٧١)

مع الأمير منصور، دخل عامل خارجي ليلعب دوراً جديداً إلى جانب الانقسام الداخلي. هذه الخلافات من أجل السلطة وحول السلطة، انعكست على الأوضاع الاجتماعية في الإمارة، إذ أنه للحصول على الإمارة، يجب زيادة المال المترتب للدولة العثمانية وفي النتيجة زيادة الضرائب على الأهالي. لقد أصبح المال عاملاً جديداً في الصراع داخل الإمارة إذ دفع الأمير منصور «عشرة آلاف غرش للوالي» مقابل مساندته له وإخماد الفتنة:

اعترف الأمير أحمد والحزبان الجنبلاطي واليزبكي، وكل الأعيان بالأمير منصور حاكماً وحيداً على إمارة الشوف. ولم يشذ عن هذا الإجماع سوى ابن أخيه، الأمير يوسف ملحم شهاب، الذي رفض الاعتراف به، معتبراً نفسه الأحق بحكم الإمارة من عمه منصور.

بعد مكوثه مدة قصيرة في المختارة، توجه الأمير يوسف إلى راشيا، ومن ثم إلى بشامون، ومنها إلى دمشق، حيث يوجد صديقه عثمان باشا الخورجي والي الشام الذي أوصى به عند ابنه محمد باشا والي طرابلس لتوليته على بلاد جبيل، وكان ذلك العام ١٧٦٣.

حكم منصور في إمارته حتى السنة ١٧٧٠، ولم يعكر صفو خاطره أي أحداث تذكر، سوى «الوسواس» الذي تركه في نفسه خصمه الأمير يوسف حاكم بلاد جبيل. فقد تمكّن هذا الأمير من تأليب عدد كبير من أعيان ومحازبي الشوف حول شخصه، فيتصل اتصالاً مباشراً بهم ويحثهم على معارضة الحكم، آملاً يوماً ما بالوصول إلى تبوء الإمارة الشوفية. وفي الوقت نفسه، حافظ الأمير يوسف على صداقته مع والي الشام لاكتساب نفوذه وقوته عندما تدعو الحاجة لذلك.

أمام هذا الواقع المستجد، تحالف الأمير منصور مع الأمير إسماعيل، حاكم حاصبيا، ومع الشيخ ضاهر العمر، والي عكا. في هذه الأثناء، كان الأمير منصور على خلاف مع والي صيدا بسبب رفضه دفع المستحقات المتوجبة عليه عن بيروت. وقد هدده الوالي

بالإستيلاء على المدينة في حال تمنّعه عن الدفع، فأجابه الأمير منصور بعنجهية وتكبر، بأنه سيمنعه من تنفيذ ذلك ولو بالقوة. عندها جمع الوالي حوالي الخمسماية من الخيالة قرب جسر الأولي، ثم طلب من أحد أخصائه في الشاغور قرب حلب بموافاته بخمسة عشر ألف مقاتل. عندها راح الأمير منصور يستعد عسكرياً لمجابهة قوات الوالي العثماني. لكن تدخل بعض المصلحين وأعيان الشوف وعلى رأسهم تحديداً، الشيخ علي جنبلاط، أدى إلى حل هذه الأزمة من دون اللجوء إلى السلاح[1].

في السنة ١٧٧٠ كانت السلطنة العثمانية في حال حرب مع الإمبراطورية الروسية، فاغتنم الفرصة كل من حاكم مصر علي بك الكبير وحليفه الشيخ ضاهر العمر والي عكا، واتفقا على الهجوم على سوريا واحتلال دمشق وخلع واليها عثمان باشا. لأجل ذلك أرسل علي بك الكبير إلى سوريا جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل، بقيادة محمد بك أبو الذهب. ولدى وصوله إلى عكا، استقبله الشيخ ضاهر استقبالاً رائعاً، مقدّماً له الأرزاق والذخيرة. وانتقل مع أنصاره مشايخ جبل عامل وجيوشهم باتجاه دمشق.

وقع الاصطدام بالقرب من المدينة ولم يتمكن الوالي من الصمود، فترك جيشه وفر هارباً باتجاه حمص. ولم يطل الوقت حتى استسلمت ثكنة دمشق بعد أن أمطرها المهاجمون ببعض قذائف المدفعية من العيار الثقيل. ومن حمص أرسل الوالي مدبره يوسف آغا ابن جبرا، إلى الأمير يوسف في جبيل يستنهضه لنجدته ومعونته على قتال أبي الذهب وإعادة احتلال دمشق[2].

راح الأمير يوسف يجمع محازبيه وأنصاره وما تيّسر له من عساكر «بين المهلة والتراخي لينظر عاقبة الأمور». لم يمكث القائد المصري في دمشق إلاّ قليلاً، ومن دون سابق إنذار أخلى المدينة وقفل راجعاً إلى مصر. وكذلك فعل ضاهر العمر

(١) إسماعيل، ج٢، ص١٥٩.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٤٠.
- الشهابي، الغرر الحسان، ص٨٧.

ومشايخ جبل عامل. ولما بلغ عثمان باشا انكفاء أبو الذهب عن عاصمة ولايته، عاد إليها بعساكره. أما الأمير يوسف فقد بلغه انكفاء أبي الذهب إلى مصر، فنهض برجاله وسار مسرعاً فأدرك الوالي في دمشق، فأظهر له «اشتداد الهمة بنجدته وإنه لم يعلم بقيام أبي الذهب حتى دنا من دمشق». فصدقه الوالي «واستقبله بالترحاب وجميل اللقاء ثم خلع عليه وأصرفه مكرما»[1]. وبدلاً من بلاد جبيل عاد الأمير إلى دير القمر وفي بردتيه شعور بأن قوته أصبحت الآن كافية لانتزاع السلطة من عمه الأمير منصور. وفي دير القمر مالت إليه وجوه البلاد وأعيانها ولهجت الناس فيه كثيراً وأعد له أنصاره ومحازبوه استقبالاً حافلاً مقدمين له الخضوع ويمين الولاء.

كان الأمير منصور يسكن في بيروت، فلما بلغه قدوم الأمير يوسف إلى دير القمر وتكوكب أعيان البلاد ومشايخها حوله، خاف على نفسه من عاقبة ذلك «فحسّنت له الجبانة أن يخلع تفسه من الولاية ويقلدها للأمير يوسف»، فأرسل له كتاباً يشكو له فيه «ضعف جسمه من الكبر» وضمور همته وإنه أصبح عاجزاً عن حمل أعباء الإمارة وإنه يريد أن يخلعها عنه ويسلمها إليه.

وافق الأمير يوسف بعد أن تظاهر بعدم القبول وبعدما أقنعه الأمير إسماعيل أمير حاصبيا بحسنات هذا العرض. ترك الأمير منصور بيروت باتجاه الباروك حيث التقى بابن شقيقه الأمير يوسف وأعيان البلاد، فتنازل عن سلطة الإمارة لصالح الأمير يوسف وسطر المجتمعون كتاباً إلى والي الشام بما حصل في الباروك، ملتمسين منه أن يكتب إلى ابنه درويش باشا والي صيدا «ليوجه خلعة الولاية إلى الأمير يوسف»[2].

«وسنة ١٧٧٠، أرسل درويش باشا خلعة الولاية للأمير يوسف إلى دير القمر واستقل له الأمر في الولاية على جبل لبنان من ظاهر طرابلس إلى ظاهر صيدا»[3].

(١) الشدياق، ج٢، ص٤٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٤١.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٤١.
- الدبس، ج٧، ص٤٠٢.

إن تنازل الأمير منصور عن السلطة كان نتيجة منطقية لتحالفه مع أبي الذهب ومشايخ جبل عامل. فعندما بلغه أن هؤلاء دخلوا دمشق وان واليها عثمان باشا فرّ منها، استعجل بإرسال الهدايا لهم، مع كتاب تهنئة لأبي الذهب بانتصاره. لقد كان الأمير منصور يكره والي الشام كرهاً عميقاً، كونه كان صديقاً للأمير يوسف، وهو الذي عمل على تعيينه حاكماً على بلاد جبيل.

بعد تخليه عن الإمارة، توطن الأمير منصور بيروت، إلى أن توفي فيها عن عمر يناهز الستين سنة، فدفنت جثته في مسجد الأمير منذر التنوخي[1].

(١) إسماعيل، ج٢، ص١٨٦.

الفصل الخامس

الأمير يوسف ملحم شهاب: استمرار الصراع على السلطة وحولها. الولاة الأتراك يبتزون الإمارة مالياً وسياسياً (١٧٧١ - ١٧٨٨)

١ - الأمير يوسف (١٧٧١ - ١٧٨٨)

تسلّم الأمير يوسف ملحم شهاب حكم بلاد جبيل السنة ١٧٦٣، من محمد باشا والي طرابلس. وفي العام ١٧٧١، آلت إليه السلطة في إمارة الشوف، خلفاً للأمير منصور شهاب، من درويش باشا والي صيدا. ويقال إنه اعتنق النصرانية على المذهب الماروني السنة ١٧٥٤، فكان بذلك أول أمير ماروني يتسلم إمارة الشوف الدرزية... وقد ذكر مؤرّخون كثر نقيض هذه المقولة، فالأمير يوسف كان مسلماً سنياً ومات سنياً بعكس ما ورد في تقرير القنصل الفرنسي في طرابلس «إن الأمير يوسف كان مسيحياً وإنه كان يتظاهر دائماً بالإسلام» والله أعلم!

في مطلق الأحوال لا يمكننا، تبعاً لهذه المعطيات، أن نؤكد أو أن ننفي كون الأمير يوسف قد تنصر، أو أن يكون قد مات مسلماً، خاصة أن الحوليات يومذاك لم تذكر أي معلومة عن مكان دفنه إثر شنقه في عكا. ولكننا نميل إلى اعتبار أنه لم يتنصر على المذهب الماروني أو غيره من المذاهب.

لقد كان عهد الأمير يوسف مضطرباً، لم يعرف الهدوء، وبدراسة أسباب ذلك الاضطراب، يتضح أن أهم عوامله كانت:

أ - طمع بعض الأمراء الشهابيين بالحكم.

ب - استمرار الانقسام الحزبي الجنبلاطي - اليزبكي - النكدي.

ج - السعي العثماني الدؤوب من أجل إضعاف الإمارة ومنعها من الاستقلال.

د - طمع الولاة الأتراك في تحصيل المزيد من الأموال بغية إفقار الإمارة.

هـ - الأحداث الإقليمية المستجدة ونشوء محاور متصارعة كانت تتجاذب الإمارة.

بعد تنازل الأمير منصور عن الحكم في اجتماع الباروك الشهير السنة ١٧٧٠، تسلم الأمير يوسف السلطة، تحت كنف رجل نشيط وفطن، من أعيان البلاد، هو مدبره الشيخ سعد الخوري صالح، وحكم الجبل لمدة عشرين سنة، يمكن تقسيمها إلى مرحلتين غير متساويتين زمنياً:

* **المرحلة الأولى:** من ١٧٧٠ إلى ١٧٧٥، وكانت مليئة بالحوادث التي أثرت عميقاً في تاريخ لبنان، وكان الشيخ ضاهر العمر، والي عكّا يومذاك.

* **المرحلة الثانية:** من ١٧٧٥ إلى ١٧٩٠، تحكم بها الصراع الدامي بين الأمير يوسف وأحمد باشا الجزار، والي عكا الجديد، وقد سقط في نهايتها الأمير يوسف صريعاً، دافعاً حياته ثمناً لذلك.

٢ - جيش الإمارة في عهد الأمير يوسف (١٧٧٠ - ١٧٩٠)

٢١ - توطئة:

بدأ الأمير يوسف حكمه في ظروف صعبة للغاية، داخلياً وإقليمياً. فالأمير منصور تنازل طوعاً، ظاهرياً وله أنصاره ومحازبيه في العائلة الشهابية وبين أعيان البلاد. والانقسام السياسي الذي عبّر عن نفسه بالصراع اليزبكي الجنبلاطي وقد تأثر بطمع الأمراء الشهابيين في الحكم، وكثيراً ما استغل هؤلاء الانقسام الحزبي لتأليب بعض المقاطعجيين ضد البعض الآخر، وأحياناً ضد الأمير الحاكم نفسه. وكان إذا استتب السلم في الداخل، تدخّل الولاة الأتراك من الخارج وأيقظوا الفتن من جديد[١]. وكان هؤلاء الولاة يتدخلون فيدعمون تارة الحكم ضد المعارضة، وتارة المعارضة ضد الحكم، تبعاً للظروف ولمصالحهم. إلى جانب كل ذلك، وجد الأمير يوسف نفسه أمام صراع الولاة في ما بينهم طمعاً بحكم بلاد الشام أو قيام

(١) أبو صالح، التاريخ السياسي، ص٩١.

أحدهم بثورة ضد السلطنة نفسها، طمعاً باستقلال ولايته.

أمام هذه الأمور مجتمعة حاول الأمير يوسف، مضطراً، أن يفرض نفسه في داخل الإمارة وخارجها. ومع هذا لا يمكننا قطعاً الادعاء بأن الأمير كان في إمكانه أن يضع تحت السلاح جيشاً قوياً ومنظماً كجيش فخر الدين المعني الثاني أو كالجيوش الأوروبية أو الجيش العثماني آنذاك. فالقوة العسكرية التي استعملها لم تخرج عن تقاليد الإقطاع في ولايات بلاد الشام، إن كان في التطوع والتجنيد أو في التعبئة الجزئية أو العامة.

٢٢ - قرار الحرب:

دوّنت الحوليات يومذاك، أن الأمير الحاكم لا يمكنه لوحده أن يأخذ قراري الحرب والسلم، بل كان من واجبه استدعاء أعيان البلاد ومشايخها، ليخبرهم عن الحالة السياسية العامة في الإمارة وليستمع إلى آرائهم في صدد ذلك. وبقدر ما يكون الأمير مستبداً وقوي الشخصية ومسيراً الأحداث في البلاد، يكون القرار النهائي بإعلان الحرب أو القبول بالسلم نابعاً من ذاته فيقرر ما يشاء من دون أن يعارضه معارض، كائناً من كان من الأعيان والمشايخ. والأمير يوسف كان من هذه الطينة، مستبداً، كفؤاً ومقتدراً يتمتع بهيبة كبيرة.

٢٣ - التجنيد والتعبئة:

لم يشذّ الأمير يوسف عن أسلافه الأمراء الشهابيين أو المقاطعجية في بلاد الشام، الذين لم تكن لديهم قوات عسكرية دائمة تحت السلاح، لها قوانينها وتقاليدها وتدريباتها لتبقى على المستوى المطلوب، جاهزة للتدخل الفوري. وعندما يقال «جمع الأمير يوسف عسكراً من دياره، وسار قاصداً مقاطعة كذا...»،[١] نعلم أن الأمير لم يكن عنده قوة عسكرية جاهزة للتدخل، بل كان عليه أن يجمع الأنصار والمحازبين ورجال الأعيان وخدامهم... ليؤلف قوة مسلحة يسير على رأسها شخصياً أو أحد مساعديه، وفق مستوى الحدث، صغيراً كان أو كبيراً.

(١) الشهابي، ص٩٥.

في حال الحرب كان الذكور جميعاً من رجال الإمارة أعياناً أو فلاحين، الذين في إمكانهم حمل السلاح، مدعوين إلى الاشتراك في القتال. فيحمل المقاتل بندقيته على كتفه وكمية من الذخيرة المتوافرة لديه، وكمية قليلة من البارود المصنوع محلياً في قريته، وكيساً في داخله بعض الأرزاق وينتقل إلى نقطة التجمع المحددة من قبل شيخ القرية أو مقاطعجي المنطقة. ومن هناك ينتقل الجميع بقيادة المقطعجي إلى بقعة تجمع كبرى يكون الأمير الحاكم قد حددها للجميع، ومنها تنطلق هذه القوى المسلحة إلى أرض المعركة.

وكثيراً ما كان هذا الأسلوب، من التطوع والتجنيد يصطدم بعراقيل جدية تؤدي في أغلب الأحيان إلى خسارة المعركة. فالحرب تلزمها أرزاق وعتاد وذخيرة، وفي حال الإخلال بتأمينها تكون النتيجة وبالاً على الأمير الحاكم. وقد حدث أن الأمير يوسف، في معركته مع أحمد باشا الجزار السنة ١٧٨٤، لم يتمكن من تأمين الأرزاق والذخيرة لرجاله بعدما طالت مدة المعركة، مما اضطره إلى القبول باتفاق مع الجزار لوقف المعركة، الأمر الذي لم يكن لمصلحة الأمير والإمارة معاً.

أما أسلوب تنفيذ التعبئة العامة والحشد فقد وصفه الرحالة الفرنسي فولناي على الشكل التالي(١):

«عندما قرر الأمير والأعيان الحرب في دير القمر مركز الإمارة، أسرع المنادون مساءً إلى قمم الجبال، وراحوا ينادون بصوت عالٍ: يا سامعين الصوت وقعت الحرب - وقعت الحرب، خذوا بنادقكم ومسدساتكم... الأعيان والمشايخ، امتطوا خيولكم وتسلحوا بالرمح والسيف... الموعد غداً في دير القمر... الجهاد إلى الله... والجهاد للقتال».

وما أن سمع الناس النداء هذا حتى لبوه بسرعة. وبعد ٣ أيام، احتشد في دير القمر حوالي خمسة عشر ألف مقاتل، جاهزين للشروع في العمليات العسكرية...».

إن تنظيم هذا الجيش كان مختلفاً عن مثيله من الجيوش الأوروبية، فلا لباس

(١) Volney, voyage en Egypte et en Syrie, Ed. Mouton et Cie, Paris - La Haye, 1959, p.240.

موحداً ولا لوجستية منظّمة وكان خليطاً من الفلاحين، يحمل كلٌ بندقية في يده... كانوا جميعاً مشاة فلا يمتطي الخيول إلاّ الأمراء والأعيان. يأكلون مما يحملون في مزاداتهم من البصل والزيتون والفاكهة والقليل من الخمر في بعض الأحيان. أما الخبز فيضعونه على جمر الأخشاب أو على الأجر المحمى[١].

٢٤ - أساليب القتال المتبعة:

لم تعتمد قوات الأمير يوسف التكتية أو أسلوب القتال الذي تعتمده الجيوش الحديثة. فلا مدارس تدريب معتمدة تعلم المقاتلين أساليب القتال الفردي أو الجماعي، ولا معاهد تدرب القادة على مبادئ الفن العسكري وتطور استعمال الأسلحة على كل الصعد والمستويات. فرجال الأمير يتدربون إفرادياً في قراهم على الرمي وإصابة الهدف بدقة، أو على امتطاء الخيول والجري بها بسرعة وقفز الحواجز... لكنهم كانوا منضبطين، يخضعون لرؤوسائهم المباشرين ويتلقون أوامرهم لينفذوها بدقة ومصداقية. فكل ما يقومون به من أعمال عسكرية لحماية رؤوسهم والسيطرة على الخصم، كانوا يعملونه بالسليقة ووفق العادات والتقاليد. «لم تكن لديهم معرفة بعلم التحصينات أو المدفعية أو إنشاء المعسكرات وغيره من متطلبات القتال الحديثة». ولكن العديد منهم كان حذقاً في هذا المضمار، فتعلموا بالسليقة ما يجب فعله، حتى أصبحوا «ميليشيا» مخيفة يحسب لوجودها في المعركة ألف حساب.

أما الحروب الدفاعية فقد أتقن رجال الأمير بعض أساليبها العلمية، فلا يخاطرون بالقتال في السهول والمنبطحات لأنهم لا يحتملون صدمة الخيالة، فبنادقهم كانت غير مزودة بالحراب[٢].

أما في حرب الجبال فقد أتقنوا هذا الفن، فالأرض تساعدهم على التمركز وراء صخورها وأشجارها ومسالك الاقتراب متعرجة وصعبة التسلق. فرجال الأمير كانوا

(١) Volney, p240-241

(٢) Volney, p240.

يثبون من مركز إلى آخر، محصن طبيعياً، فيحميهم من نيران الخصم ويسمح لهم بالرمي الدقيق، والفعّال الذي أتقنوه في رحلات صيدهم أو في مباراة الرمي في قراهم ودساكرهم(۱).

لقد أتقنوا بالسليقة القتال الليلي ونصب الكمائن والإغارة، بحيث يمكنهم مفاجأة العدو والالتفاف عن جوانبه بسرعة كبيرة ليلتحموا معه، وهم الأقوى في هذا المضمار، جسدياً وشجاعة.

لقد تعودوا على شغف العيش والنوم في الهواء الطلق لأيام عديدة، بل لشهور من دون أن تقيهم البرد والحر خيمة أو ما شابهها. كانوا رجالاً جسورين حتى التهور، ويتمتعون بصفتين متلازمتين جعلتا منهم جنوداً ممتازين هما: الانضباط والتعقل، فهما مصدر القوة الرئيسية في الجيوش.

٢٥ - عديد الجيش:

يختلف المؤرخون حول عديد جيش الأمير يوسف، فمنهم من يناقض نفسه بنفسه، كالرحالة فولناي الذي ذكر أن الأمير يوسف كان في إمكانه أن يجمع حوالي الخمس عشرة بندقية، بعد ثلاثة أيام من إعلان التعبئة العامة في إمارته. ثم يذكر أن عدد رجاله المسلحين في الإمارة يصل إلى أربعين ألفاً. وفي مكان آخر يقول إن الأمير هاجم جبل عامل السنة ١٧٧١ بجيش قوامه حوالي الخمسة والعشرين ألف مقاتل(٢).

أما بقية المؤرخين فقد اختلفوا على تحديد جيش الأمير، فالأكثرية منهم حددته بين العشرين والثلاثين ألف مقاتل. ففي معركة جباع الحلاوة السنة ١٧٧١، اتفق الجميع تقريباً على عدد عشرين ألف مقاتل.

يقول أحمد الشهابي إن الأمير يوسف جمع قوة عسكرية من عشرين ألف مقاتل للهجوم على مشايخ جبل عامل، وقد وافقه عيسى اسكندر المعلوف على هذا العدد، وكذلك الشدياق فقد ذكر أن الأمير يوسف هاجم مشايخ جبل عامل بفيلق عديده حوالي العشرين ألفاً بين خيالة ومشاة(٢).

---

(١) Volney, p240.

(٢) الشهابي، حيدر، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، الجامعة اللبنانية ١٩٦٩، ج١، ص٩١.

وفي حصار مدينة صيدا السنة ١٧٧١، كان عديد جيش الأمير يوسف حوالي ٢٠ ألف مقاتل[1]، بينما الأب لامانس اليسوعي يذكر بأن العديد كان ٣٠ ألف مقاتل، ومحمد بك علي يقول إن العدد كان حوالي ٢٠ ألف وبحوزتهم بعض المدافع... والله أعلم!

كتب فولناي في مذكراته عن حصار صيدا يقول: إن القوات العسكرية التي حاصرت صيدا، كانت مؤلفة من الأتراك والدروز، وعديدها حوالي ١٠ آلاف من الخيالة و٢٠ ألفاً من المشاة. مما يستدعي الظن أن فرسان الخيالة كانوا «عسكر الوالي» بينما المشاة كانوا رجال الأمير يوسف وأنصاره[2]. وقد أكد هذا الأمر القنصل الفرنسي في صيدا، في تقريره المؤرخ في ١٥ حزيران ١٧٧٢، ويقول فيه إن عديد هذا الجيش كان حوالي ٣٠ ألف مقاتل، منهم ستة آلاف فارس تركي والباقي من المشاة الدروز، يؤازرهم أكثر من ألف خيال[3].

٣ – تحالفات الأمير يوسف وحروبه

٣١ - حروب الأمير ضد ضاهر العمر وعلي بك الكبير:

أ - معركة صيدا الأولى (١٧٧١)

في نهاية ١٧٧٠، حصل تحالف بين الشيخ ضاهر العمر والي عكا وعلي بك الكبير حاكم مصر، ومشايخ جبل عامل، يقودهم الشيخ ناصيف النصار، بهدف محاربة والي الشام ووالي صيدا العثمانيين. وقد سبق وعلمنا أن الأمير يوسف حاكم بلاد جبيل آنذاك لم يتمكن فعلياً من الاشتراك بالقتال ضد هذا التحالف عند مهاجمته دمشق عاصمة الولاية. لكنه لبى نداء درويش باشا

(١) الدبس، ج٧، ص٣٩٤.
(٢) Volney, p258.
(٣) إسماعيل، ج٢، ص٢٤٧.
- شبلي، ميشال: تاريخ لبنان في عهد الأمراء ١٦٣٥-١٨٤١ - بيروت ١٩٨٤ - منشورات الجامعة اللبنانية، ص٩٥.



ALY BEY D'ÉGYPTE
(d'après une estampe du XVIIIe s., reproduite par Fr. Ch. - Roux: Les échelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe s.
(ISMAYL, Doc., t. 2, p. 112)

علي بك الكبير

والي صيدا عندما طلب مساعدته لرد هجوم محتمل على المدينة، من قبل الشيخ ضاهر العمر وحلفائه مشايخ جبل عامل.

بعد احتلال دمشق في ٦ حزيران ١٧٧١، من قبل التحالف المذكور، عاد علي بك الكبير إلى مصر لأسباب مجهولة، مما أوقع حلفاؤه في مأزق كبير، فتركوا بدورهم المدينة وعاد كل إلى دياره. بلغ الخبر عثمان باشا فعاد إلى المدينة. مع العلم أن درويش باشا والي صيدا، لما علم بسقوط دمشق بيد التحالف وفرار واليها إلى حمص، خاف على نفسه وفر بدوره من صيدا ولحق بوالده، تاركاً المدينة عرضة لهجوم محتمل من قبل ضاهر العمر وأنصاره الذي ما أن علم بالفرار حتى هاجم صيدا مع حلفائه واحتلها وعين عليها متسلماً من قبله. هذا التصرف أغاظ كثيراً الشيخ علي جنبلاط الذي كان قد عزز حامية المدينة بحوالي ١٥٠٠ من رجاله «العقال» بناءً لرغبة الأمير يوسف[١]، فطلب من مشايخ جبل عامل الخروج من صيدا فوافقوا، لكن المتسلم رفض، فأرسل الشيخ في ٢٠ حزيران ١٧٧١ حملة من الخيالة بقيادة ولدين من أولاده لطرد المتسلم الذي هرب فور علمه بخبر قدوم الحملة إليه، فاستولى رجال الشوف على صيدا إلى أن عاد واليها درويش باشا إليها.

أما ضاهر العمر فقد قرر العودة إلى صيدا تنفيذاً لمشروعه مع علي بك الكبير الذي وضع بتصرفه أسطولاً بحرياً من ١٧ مركباً. وأما مشايخ جبل عامل فقد قرروا هم أيضاً مساندته ضد الوالي. وصلت مراكب الأسطول إلى مياه صيدا وصور، ويقال لها مراكب مسكوبية[٢]، في الوقت الذي وصلت قوات جبل عامل إلى مركز قيادة ضاهر العمر، وهي بقعة تجمع القوات كافة، تبعد عن صيدا مسيرة ثلاث ساعات. شرع ضاهر بسير الاقتراب نحو المدينة على رأس قوة تقدر بحوالي ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ مقاتل. عندها دعا الوالي رؤوساء إدارته وقادة جيشه، عارضاً أمامهم

(١) فولناي، ص٢٥٧.
- الشهابي، الغرر الحسان، ص٩٠.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص٩١.

عدم قدرته على الوقوف بوجه ضاهر العمر، وبنيته ترك المدينة والذهاب إلى دمشق. لم يرضَ المجتمعون بهذا القرار واقترحوا إرسال وفد لمفاوضة الشيخ ضاهر العمر. ذهب الوفد إلى والي عكا وطلب منه مهلة يومين أو ثلاثة لخروج الوالي من المدينة، بعد أن تؤدى له مراسم التكريم البروتوكولية[١]. رفض الطلب جملة وتفصيلاً وعاد الوفد في ١٢ تشرين الأول حاملاً إلى الوالي وإلى مجلسه نتيجة مفاوضاته السلبية. عندها قرر درويش باشا المغادرة، فغادر في ١٣ تشرين الأول من دون أن يعترضه أحد من أعيان المدينة[٢].

في هذا الوقت كان الأمير يوسف يتقدم بجيشه البالغ ٢٥ ألف مقاتل باتجاه صيدا، بناءً لطلب الوالي للمساهمة بالدفاع عنها ضد الهجوم المتوقع. وقد وصلته أثناء سيره أخبار عن فرار الوالي، فأرسل وراءه على الفور مفرزة من أربعماية رجل، بقيادة أخيه الأمير فندي، لإيقافه وإعادته إلى صيدا.

في ١٧ تشرين الأول وصل الأمير يوسف مع جيشه إلى ضفاف نهر الأولي، وعسكر هناك مقرراً الدفاع عن صيدا مهما كلف الأمر. تراجع الشيخ ضاهر وأنصاره العامليون عن الهجوم فعاد الأول إلى عكا، أما العامليون فظلوا في معسكرهم قبالة المدينة، على ألا ينسحبوا إلاّ بناءً على أمر يعطى لهم في حينه.

في ١٨ تشرين وصل أمر من السلطان العثماني إلى الأمير يوسف يطلب منه مساندة ومؤازرة القوات العثمانية لملاحقة المتمردين في جبل عامل. في ١٩ تشرين غادر الأمير وجيشه المعسكر بعدما ترك أمر الدفاع عن صيدا إلى حليفه الشيخ علي جنبلاط وبمعيته حوالي ألف وخمسماية من العقال الدروز. اتجه الأمير نحو جبل عامل قاصداً جباع الحلاوي. «وفي مروره أحرق قرايا إقليم التفاح وبعدها جباع فقطع أشجارها وهدم عمارها»[٣].

(١) الثلاثة أيام المطلوبة كانت من ١١ تشرين الأول إلى ١٣ منه.

(٢) إسماعيل، ج٢، ص١٩١-١٩٢.

(٣) الشهابي، الغرر الحسان، ص٩١.

أفاد الشيخ ضاهر والعامليون من هذه المناسبة ليوجهوا الأسطول نحو صيدا التي وصلها في ٢٠ تشرين الأول فحاصرها بحراً وبدأت مدفعيته تدك المدينة. وقام رجال علي بك الكبير بمحاولة إنزال على الشاطئ، لكن المدافعين منعوهم عن تحقيق أمنيتهم، فراحوا يقصفون المدافعين بنيران مدافع مراكبهم، فرد هؤلاء عليهم بقصف معاكس من المدفع الوحيد الرابض في قلعة صيدا بالرغم من النقص الكبير بذخيرته[1].

بعدما أحرق الأمير يوسف جباع الحلاوي، توغّل بقواته في جبل عامل، فوقعت مقدّمة جيشه في ٢٠ تشرين الأول في كمين نصبته مفرزة من خيالة العامليين، بين كفررمان والنبطية، قدر عددها بحوالي الخمسماية فارس. لم يتمكن رجال الأمير من استعادة المبادرة تحت ضغط المهاجمين، فلاذوا بالفرار بعدما تركوا في أرض المعركة بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ قتيل[2]. وعندما وصلت أنباء الهزيمة إلى معسكر صيدا، وقع الرعب في نفوس الرجال فقرر الشيخ علي جنبلاط الانسحاب مع قواته والعودة إلى الشوف، فأصبحت المدينة بلا مدافعين، فأرسل الشيخ ضاهر العمر متسلماً من قبله، مغربي الجنسية، مشهوداً له بالقسوة والشجاعة هو أحمد آغا الدنكزلي.

ب - معركة صيدا الثانية (١٧٧٢):

في السنة ١٧٧٢ ثار قائد الجيش المصري، محمد بك أبو الذهب على علي بك الكبير وطرده من مصر. فقررت السلطنة العثمانية الاستيلاء مجدداً على مدينة صيدا مركز الولاية، وتأديب الشيخ ضاهر العمر وحلفائه مشايخ جبل عامل الذين خسروا مساندة جيش علي بك الكبير.

لجأ علي بك مع ثمانماية مملوك من مماليكه المخلصين إلى بلاد الشيخ ضاهر، الذي استقبله بحفاوة كبيرة.

(١) إسماعيل، ج٢، ص١٩٣.

(٢) إسماعيل، ج٢، ص١٩٥-١٩٦.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٩١.
- الشدياق، ج٢، ص٤٣-٤٤.

في هذه الأثناء تمكن الشيخ ضاهر من تحصين صيدا خوفاً من هجوم عثماني شهابي، خاصة وأن الأمير يوسف كان يدّعي أحقيته في حكم هذه المدينة، وهو على استعداد تام لبدء الهجوم والاستيلاء عليها.

كان هدف الشيخ ضاهر من المحافظة على صيدا، من جهة إعادة الأمير منصور إلى حكم الإمارة الشهابية بدلاً من الأمير يوسف الصديق الوفي للعثمانيين، ومن جهة أخرى إخضاع الشيخ علي جنبلاط الذي يمثل قوة لا يمكن إهمالها، في صفوف جيش الإمارة.

في بداية شباط ١٧٧٢، بدأت مفاوضات مع الشيخ ضاهر لتسليم مدينة صيدا إلى إمارة الشوف، فوضع شروطاً عدة منها[1]:

(١) - تسليم المدينة إلى الدروز أو إلى الأمير منصور شهاب صديق ضاهر.

(٢) - إشراك الأمير منصور في حكم الإمارة مع الأمير يوسف.

(٣) - وقف الضغينة ضد مشايخ جبل عامل وعدم مهاجمتهم والثأر منهم.

(٤) - القبول بالاتفاق على محاربة الدولة العثمانية في حال عدم موافقتها على التسوية.

لم تؤدّ هذه المفاوضات إلى أي نتيجة، وراحت حال العداء تشتد بين الفئتين، خاصة وأن الشيخ ضاهر تابع تعزيز معسكر المدينة بجنود أفارقة. وفي مطلق الأحوال كان الشيخ يعتبر صيدا ورقة رابحة بين يديه للضغط على الشهابيين والعثمانيين معاً[2]، الأمر الذي أدى إلى ازدياد التوتر بين الفئتين ومضاعفة الاستعدادات بانتظار المعركة التي ستقع بينهما في أيار ١٧٧٢.

القوى المتقابلة

أولاً - الحلف المصري-الصفدي الروسي

كان معسكر المدينة يتألف من عدد قليل من المصريين والمغاربة ومن رجال الشيخ ضاهر، قدر عددهم بحوالي الثلاثماية مقاتل

---

(١) إسماعيل، ج٢، ص٢٠٢.

(٢) إسماعيل، ج٢، ص٢٠٣.

يتناقص مع مرور الأيام بسبب الفرار، يؤازرهم عند الحاجة حوالي الأربعة آلاف مقاتل من جبل عامل القريب من صيدا.

كتب القنصل الفرنسي في صيدا بتاريخ ٢ حزيران ١٧٧٢:

«ليس مع مصطفى بك، حاكم المدينة سوى عشرة من الخدم فقط، أو يفتقر إلى جنود يحرسونه، بينما يوجد حوالي الأربعماية مقاتل بإمرة الآغا الدنكزلي، من ضمنهم أنصار الشيخ ضاهر من شيعة جبل عامل، يؤلفون القوة الرئيسية للدفاع عن المدينة...». لقد قطع الدنكزلي كل أشجار البساتين المحيطة بأسوار صيدا، ليوسع لمقاتليه حقلي النظر والرمي. وقد أقسم المتسلم ورجاله على القرآن بالدفاع عن المدينة حتى آخر نقطة دم من دمائهم، وأضاف «حتى لو أتى النبي محمد (ﷺ) نفسه فسوف أدافع مهما كلف الأمر»[1]. وهذا لا يعني أن المعسكر هو كل ما في حوزة علي بك والشيخ ضاهر العمر. لقد قدر عدد قوات هذا التحالف بحوالي العشرة آلاف مقاتل من الشيعة وحشد من الخيالة التركمان الذين أتوا من مصر مع علي بك الكبير.

يقول فولناي إن جيش التحالف كان يتألف من ستة آلاف خيال من أهالي صفد والشيعة إلى جانب ٨٠٠ من مماليك علي بك وألف من مشاة البربر[2]، جاهزين لقتال أعدائهم، لا تنقصهم الشجاعة لكنهم كانوا من القرويين الذين ليس باستطاعتهم هجر أولادهم وأرضهم لمدة طويلة... هؤلاء كانوا القوة الأساسية للشيخ ضاهر ولعلي بك الكبير[3].

إلى جانب هذه القوى البرية كان في الإمكان إضافة «خمسة غلايين كبيرة روسية وعدد من المراكب الصغيرة» كان علي بك والشيخ ضاهر، قد طلباها كمساندة بحرية لقواتهم من إمبراطورة روسيا كاترين الثانية التي كانت بحرب مع الباب العالي[4].

---

(١) إسماعيل، ج٢، ص٢٢٥.

(٢) فولناي، ج٢، ص٢٢٥.

(٣) إسماعيل، ج٢، ص٢٢٥.

(٤) الغليون كناية عن مركب شراعي حربي مجهز بمدفع أو مدفعين.
- إسماعيل، ج٢، ص٢٢٥.

ثانياً - الحلف العثماني - الشهابي:

في هذه الأثناء، طلب الباب العالي من بعض الباشاوات في بلاد الشام ومن الأمير يوسف، الاستعداد لمهاجمة صيدا. وبالفعل خلف عثمان باشا المصري، سرعسكر عربستان، عثمان باشا الكرجي على ولاية الشام. وفور وصوله إليها، أعطى للأمير يوسف أمراً بجمع قواته بقصد محاربة ضاهر العمر وأحزابه الشيعية. ووجه إليه خليل باشا أو الدالي خليل، والي القدس وكان شجاعاً مهيباً ومقاتلاً شرساً. وكان بصحبته أحمد باشا الجزار، الذي سيلعب دوراً مهماً في ما بعد مع الأمير يوسف والأمير بشير الثاني. «ومعهما ألف فارس وأردفهما بالعلائف والآلات الحربية والمدافع والذخائر... ولما وصل كتاب عثمان باشا إلى الأمير يوسف جمع رجاله وقام من دير القمر إلى عين السوق عند السمقانية، فلاقاه الوالي خليل ومن معه، فنهض الأمير إلى صيدا بجحفل جرار من نحو عشرين ألفاً لرفع يد ضاهر العمر عنها»[1]. ويقال إن قوات هذا الحلف وصلت إلى ثلاثين ألف مقاتل، منها عشرة آلاف من الخيالة التابعة للباشا والباقي رجال الأمير يوسف[2].

لم يتردد الأمير باستعمال الوسائل البحرية في هذه المعركة، فقد كتب إلى الشيخ أبو صقر الخازن، مندوبه البحري في بيروت، بحجز أحد المراكب الهولندية الراسي في مرفأ بيروت والذي كان يستعد للإبحار نحو عكا، لاستعماله في نقل المؤونة الحربية والذخائر[3].

ثالثاً - الإستعداد للقتال:

- وصل الأمير يوسف على رأس قواته إلى ضواحي صيدا - مقطع نهر الأولي، في أوائل حزيران السنة ١٧٧٢. وشوهد في صباح ٤ حزيران فيلق من حوالي ٦ آلاف مقاتل ينتقل ليتمركز حول المدينة، في تلة مار الياس. وبعد ظهر ذلك النهار سمعت طلقات نارية متفرقة وبعض قذائف مدفعية

(١) الشدياق، ج٢، ص٤٤.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٩٢-٩٣.
(٣) إسماعيل، ج٢، ص٢١٥.

من القلعة، بعدها توقف كل شيء عند بدء الظلام.

تمركزت القوات العثمانية على طول الخط الواقع بين البحر وسفح الجبل شرقاً، بفصائل متدرجة على خط واحد. بينما تمركزت قوات الشيخ علي جنبلاط (١٥٠٠) على شاطئ نهر الأولي وراء سياج البساتين وفي الحفر التي استحدثوها لمنع الخروج من صيدا. أما الخيالة فقد احتلوا السهل بمجموعات صغيرة. وأما المدافع فقد أربضها العثمانيون في الوسط وإلى الأمام قليلاً. أما بقية رجال الأمير يوسف فقد تمركزت في المنحدر الجبلي وبحوزتهم بنادقهم الإفرادية فقط[1].

أما الجناح الأيمن فقد كان بإمرة ناصيف النصار ومعه رجال جبل عامل وألف من المغاربة، ومهمتهم كبح رجال الأمير يوسف. أما الجناح الأيسر فقد كان بإمرة علي ضاهر العمر، وجهاً لوجه مع رجال الشيخ علي جنبلاط وعلى يساره الأسطول الروسي يمخر عباب اليم قريباً من الشاطئ بالتوازي مع الجيش ومضيقاً جبهة الشاطئ. أما في الوسط، فقد تمركز المماليك المصريون. القيادة العملانية تموضعت وراء جبهة المماليك، يقبع فيها علي بك والشيخ ضاهر، ويصدران الأوامر ويشجعان قواتهما «بدب النخوة وإعطاء المثل بالصمود والتصدي للأعداء».

في العاشر من حزيران السنة ١٧٧٢ كان وضع معسكر مدينة صيدا على الشكل التالي:

نظم رجال ضاهر العمر صفوفهم على أكبر جبهة ممكنة، وبذلوا وسعهم بأن يحتلوا أرضاً موازية ومعادلة لجبهة العثمانيين.

رابعاً - المعركة (١٢ حزيران ١٧٧٢):

يمكننا وصف المعركة من خلال ما كتبه القنصل الفرنسي في صيدا السيد تولاس (Taulès) وما كتبه المستشرق الفرنسي فولناي (Volney) وما كتبه بعض المؤرخين العرب:

(١) فولناي، ج٢، ص٢٥٨.

(١) السيد تولاس[١]:

- في ليل ١٠ حزيران ١٧٧٢ أعطيت الأوامر إلى الأسطول الروسي بالتوجه نحو مدينة بيروت وقصفها بالمدافع، على أمل أن يترك رجال الأمير يوسف جبهة صيدا وينتقلوا بسرعة إلى تلك المدينة للدفاع عنها، خاصة أنها المرفأ البحري الوحيد لإمارة الشوف.

- وفي ليل ١١ منه شوهدت تحركات عثمانية - درزية في تلة مار الياس شرقي صيدا وفي سهل الغازية، كان سببها ظهور مقدمة جيش الحلف الثلاثي عشية الليل السابق في السهل المذكور، وراجت شائعات بأن هذا الجيش كان مؤلفاً من ١٢ ألف من الفرسان.

- في ١٢ حزيران الساعة الثانية فجراً، باشر جيش العدو تقدمه نحو قوات الأمير يوسف، فتصدت له وحدة منها، وأغارت على المقدمة، لكنها منيت بهزيمة نكراء، فتراجعت تراجعاً شريفاً إلى الوراء وفرت من أرض المعركة. عند ذلك دبت الفوضى في باقي الوحدات فتبعتها بالفرار ولحق بها الأمير يوسف نفسه والدالي خليل[٢].

أمام هذا الواقع قرر عثمان باشا الالتحام مع القوات المتقدمة، فاقتحم على رأس وحدة من الخيالة، مؤلفة من أكراد وأتراك وتركمان وتمكن من وقف تقدم خيالة الشيخ ضاهر. لكنه رأى بعينيه كثافة جيش عدوه والأعداد الكبيرة من الخيالة، فوقع في ورطة وارتباك كبيرين مما دفعه إلى التراجع الذي تحول بأقصى السرعة إلى تضعضع وانهيار تامين. ولم نعد نرى في أرض المعركة سوى مقاتلين يفرون وآخرين يطاردونهم[٣].

- بعد ساعة واحدة من بدء المعركة، اختفى الجيش العثماني نهائياً عن ساحة القتال تاركاً لقوات أعدائه المنتصرين، السيطرة التامة على الأرض بكاملها جبلاً وسهلاً. فاستولوا على المدافع والخيم وعلى

(١) إسماعيل، ج٢، ص٢٤٧.
(٢) إسماعيل، مماثل.
- الشدياق، ج٢، ص٤٥.
(٣) إسماعيل، ج٢، ص٢٤١.

كل الأعتدة والأشياء التي تركها وراءه الجيش المنهزم.

- راوح عدد قتلى العثمانيين والشهابيين ما بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ قتيلاً، منهم ٦٧ قضوا في ساحة المعركة والعدد الباقي قتل أثناء الفرار[١].

(٢) المستشرق فولناي:

يقول هذا المستشرق إن المعركة ابتدأت في ١٢ حزيران صباحاً، عندما أطلق الأسطول الروسي عدداً من صليات مدفعيته على جبهة رجال الشيخ علي جنبلاط الذين فوجئوا بهذا القصف المدمر، فتركوا جبهة القتال وفروا، في الوقت الذي تقدمت خيالة الشيخ ضاهر في السهل المقابل، على مدى المدفعية العثمانية. وفي الوقت عينه اندفعت الخيالة المملوكية بهجوم جبهي على مرابض المدفعية العثمانية فأحس السدنة بأنهم وقعوا بين فكي الكماشة: خيالة الشيخ ضاهر وخيالة علي بك الكبير، وإن الدفاع عن مرابضهم أصبح مستحيلاً: أولاً بسبب عنصر المفاجأة الذي شل أي مبادرة معاكسة، وثانياً إن مراكزهم ومرابضهم لم تكن محصنة التحصين الكافي الذي يسمح لهم بالمدافعة عنها؛ كما أن وحدات المشاة المجاورة لم يكن في مقدورها مساندتهم. أمام هذا الواقع المستجد، لاذ هؤلاء بالفرار في كل الاتجاهات، فطاردهم المماليك.

وحيال هذه الفوضى العارمة وهذه الهزيمة النكراء، قرر الباشاوات الأتراك القادة، ترك ساحة القتال والفرار من أمام أعدائهم، فتبعهم «الدروز - رجال الأمير يوسف» الذين رأوا في هذا الفرار الفرحة المثالية للعودة إلى ديارهم. لم تمض ساعة على بدء هذه المعركة حتى خلت الساحة من العثمانيين وحلفائهم وسيطرت قوات الحلف الصفدي - المصري المنتصرة على المنطقة بكاملها. وقد ارتكبت خطأً عسكرياً لا يغتفر وهو عدم ملاحقة الفارين واستغلال النجاح. وهذا مبدأ مهم من مبادئ الفن العسكري[٢].

---

(١) إسماعيل، ج٢، ص٢٤٢.

(٢) فولناي، ج٢، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٣) المؤرخون العرب:

روى الأمير حيدر الشهابي في كتابه «الغرر الحسان» المعركة على الشكل التالي[١]:

«فحضر من البحر خمس غلايين مسكوب كبار وجملة قطع صغار إلى مدينة عكا... أرسلهم الشيخ ضاهر حالاً إلى مدينة صيدا. وكان عسكر الأمير يوسف وعسكر الدولة قائمين الحصار على مدينة صيدا. فضربوهم المراكب بالمدافع فرحلوا بالوطاق إلى الحارة. وحضر إلى الأمير مراسلة من الشيخ ضاهر أن يرجع بعسكره إلى جسر صيدا ليصير بينهما الاتفاق. وإن لم يقبل الأمير نصحه تصل إليهم العساكر. فما قبل الأمير يوسف الرجوع ... سار الشيخ ضاهر بعسكره وعسكر المتاولة وجملة خيل من الغز (المماليك) التي حضرت مع علي بك من مصر... وكان عسكرهم ينوف عن العشرة آلاف. وفي وصولهم إلى «براك التل» الذي في أول سهل الغازية بالقرب من مدينة صيدا... تقابل العسكران في سهل الغازية. فضربت عساكر الدولة عساكر المتاولة والغز... وراح منهم نحو ماية قتيل. وهجم الدالي خليل والجزار على المتاولة. فانكسر عسكر الدروز مما خلف الدولة واقتحمت الغز على الدولة... ودام ضرب السيف مدة وجيزة. فانكسر عسكر الدولة وقتل منهم نحو خمسماية نفر... وكان الدروز وهم راجعين يشلّحوا من الدولة الذي معهم...».

وقد روى الشيخ طنوس الشدياق في كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» الجزء الثاني، هذه المعركة على الشكل التالي[٢]:

«... ظهر في البحر تجاه المدينة سفن مسكوبية حربية خمس منا كبار والأخر صغار وقد أرسلها ظاهر العمر من عكا لمعونة الدنكزلي لأنه كان متحداً مع الدولة المسكوبية. ولما قربت السفن أطلقت المدافع والقنابل على العسكر فتحولت الجيوش إلى الحارة (حارة صيدا) التي في السفح... فأبى

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص٩٣.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٤٥.

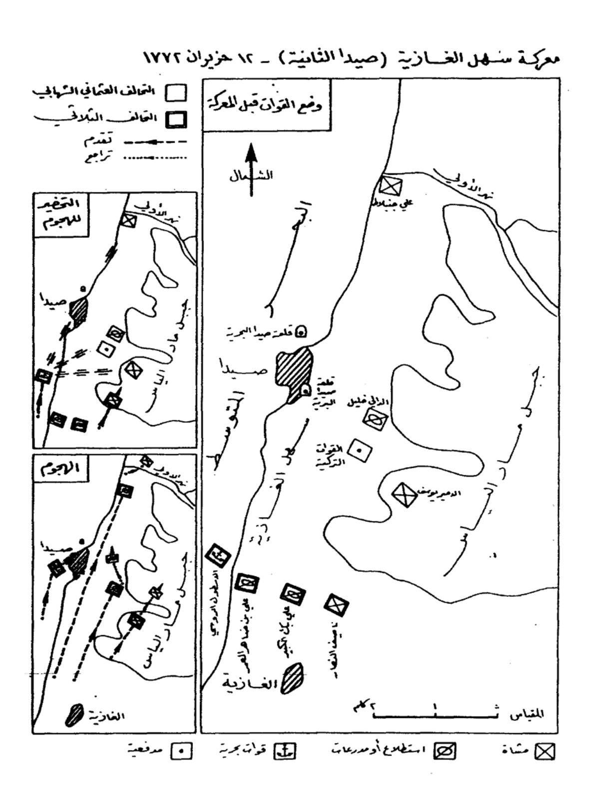
الأمير يوسف الرجوع إلى جسر نهر صيدا وكتب إلى الشيخ ضاهر كتاباً خشناً... ولما وفد ضاهر إلى سهل الصباغ فوق صيدا من جهة جبل عامل التقاه الأمير (يوسف) بجيوشه وتقابل الجيشان وثار القتال وانقسمت جيوش ظاهر العمر إلى قسمين قسم رجالة أتى على الجبل الذي ينفذ إلى الحارة فالتقاهم قسم رجالة من عسكر الأمير فزحف عليهم فأزاحهم من مواقفهم وقهرهم وقسم من فرسان أتى في السهل تحت ذلك الجبل فالتقاه فرسان الأمير وخليل باشا (الدالي) وفرسانه فثار بينهم القتال... فتقدم خليل باشا وفرسانه بالمدافع وشددوا الحرب... وغار علي بك بفرسان الغز واقتحم كتيبته... حتى أدرك محل المدافع واختطف عمالها. وفعلت باقي الفرسان الغز كفعاله وداروا في ذلك الجيش فمزقوه. فانكسرت حينئذ فرسان خليل باشا (الدالي) وقهقروا من كان خلفهم من فرسان جبل لبنان فانكسر الجميع ولحقتهم الغز وأوسعوا فيهم القتل والسلب. وعند كسرة الفرسان انكسرت الرجال. ولم يزل الجميع منهزمين حتى ولجوا جبل لبنان وفر خليل باشا بمن معه إلى دمشق وهلك من عسكره نحو ٥٠٠ فارس ومن عسكر ظاهر نحو ألف رجل».

٣٢ - الأسطول الروسي يقصف بيروت بالمدافع (١٧٧٢)

لم يرتوِ الأسطول الروسي مما فعله في صيدا ضد الحلف الشهابي - العثماني، فسارت مراكبه نحو بيروت التي وصلتها عند الصباح فقصفتها بقنابل مدفعيتها «وملكوا جانب البحر وأحرقوا بعض الأبراج»[١] وحوالي ثلاثماية من منازلها. وقاموا بإنزال عسكري على الشاطئ، حيث دخل رجالها المدينة وأحرقوا ونهبوا ما توصلت إليه أيديهم، ثم عادوا إلى المراكب الراسية على الشاطئ. في هذه الأثناء، هرب الشهابيون مع عائلاتهم إلى خارج المدينة، ولم يعودوا إلى منازلهم إلاّ بعدما ترك الأسطول مدينة بيروت. ولما أبلغ الأمير يوسف بهذا الحدث

(١) الشهابي، ص٩٤.

خريطة رقم ٣
معركة سهل الغازية (١٧٧٢)



الخطير «جمع عسكراً وأتى إلى بلدة حدث بيروت، وكتب كتاباً إلى عثمان باشا يلتمس منه المساندة والدعم، ودار لسان الصلح بينه وبين عمه الأمير منصور. فكتب الأمير منصور إلى ظاهر العمر يلتمس منه رفع المراكب المسكوبية عن بيروت»[١].

لم يترك هذا الأسطول المدينة إلاّ بعدما قبض قائده ليوتنانت جنرال «ريزو» من الأمير يوسف مكافأة مالية قدرها ٧٥٠٠ غرش وقد قيل ٢٥٠٠٠ غرش... والله أعلم[٢]. وافق والي الشام عثمان باشا على مساندته، فأرسل له كاخيته محمد آغا وبصحبته أحمد بك الجزار مع ثلاثماية جندي مغربي للمحافظة على بيروت. ولما علم الأمير منصور بقدوم الجزار «أرشى رجلاً مغربياً يلقب «بأبو عقلين» لاغتياله»، فكمن له في الحرش بالقرب من ميدان البلشة وأطلق عليه النار لدى مروره فأصابه في عنقه، إصابة خطيرة. فاهتم الأمير يوسف بمداواته، رغم نصائح أنسبائه ومعاونيه بتركه لشأنه، ثم أمر بقتل أبي عقلين. وبعد أن شفي الجزار سلمه الأمير بيروت للمدافعة عنها وأقر من فيها بطاعته[٣].

٣٣ - اتفاق الأمير يوسف مع الشيخ ضاهر العمر والشيخ ناصيف النصار (١٧٧٣):

بعد هزيمة الجيوش العثمانية والشهابية أمام قوات الشيخ ظاهر فقد الأمير يوسف الثقة بقوة السلطنة وبمقدرتها على حماية «رعاياها» في الإمبراطورية، الأمر الذي دعاه إلى التفكير في إقامة تحالف عسكري بينه وبين الشيخ ضاهر، الرجل الأقوى في بلاد الشام. ففي العام ١٧٧٣ اجتمع الاثنان في رأس العين، قرب صور، واتفقا على إنهاء

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٤٦.
- بازيلي، ص٧٧.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٤٦.
- بازالي، ص٧٨.
(٣) الشهابي، تاريخ الجزار، ص٤٨.

حال الكراهية والعداوة بينهما. وقد استمر هذا الاتفاق معمولاً به حتى وفاة الشيخ ضاهر العام ١٧٧٥.

لقد رأى الأمير يوسف بثاقب بصره وبصيرته أن شيخ صفد سيكون الحليف الأهم الذي سيدعمه بقوة على الصعيدين السياسي والعسكري في مواجهته مع أحمد باشا الجزار في بيروت السنة ١٧٧٣ ومع والي الشام في العام ذاته.

بعد المصالحة مع الشيخ ضاهر واتفاقه معه، كان من الطبيعي جداً أن تتبعها مصالحة أيضاً بين الأمير والشيخ ناصيف النصار زعيم جبل عامل. ففي ٨ حزيران ١٧٧٣، اجتمع الشيخ علي جنبلاط ممثلاً الأمير يوسف، والشيخ ناصيف ممثلاً الشيخ ضاهر، فتصافت القلوب واعتبرت العداوة منتهية بين الخصمين اللدودين[(١)].

في السنة ١٧٧٥، هاجم محمد بك أبو الذهب حاكم مصر الأراضي الفلسطينية التابعة للشيخ ضاهر بكل القوى التي كانت في حوزته وقد قدرت بحوالي ٦٠ ألف مقاتل، فوصل إلى يافا، وأقام عليها الحصار مدة «عشرين يوما» فاستولى عليها ونهبها وقتل عدداً كبيراً من أهلها، وقبض فيها على نائب الشيخ ضاهر[(٢)]. أمام هذا الواقع طلب الشيخ ضاهر من حلفائه مساندته، فلم يلقَ الجواب الشافي فالأمير يوسف لم يتجاسر على تلبية النداء، وكذلك الشيخ ناصيف النصّار، كما أنهما خافا إمداده بالمؤن والذخيرة في حصار يافا[(٣)].

بعد سقوط مدينة يافا توجه أبو الذهب بقواته نحو عكا «فارتجت له الأقطار، وخافته الديار، ودخل الوجل في قلب ضاهر العمر، فترك عكا وفر منها هارباً بأهله وعياله إلى جبل الريحان واختفى هناك...»[(٤)] وحاول ابنه الشيخ علي، الاستئثار بالسلطة في عكا فعقد اتفاقاً مع أبي الذهب لكنه فشل في ذلك مما اضطره للفرار أيضاً... في هذه

---

(١) إسماعيل، ج٢، ص٣١٥.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١١٠.
(٣) فولناي، ج٢، ص٢٦١-٢٦٢.
(٤) الشهابي، الغرر الحسان، ص١١٠.

الأثناء وجه أبو الذهب قوة من عنده استولت على صيدا وصور، وراحت تعيث فساداً وحرقاً ودماراً في المناطق المجاورة. ثم «تملك صفد وهدم قلعة دير يوحنا ودير مار الياس الكرميلين وقتل رهبانهما». ولم تنته مأساة الشيخ ضاهر العمر إلاّ عندما مات أبو الذهب فجأة، مما أجبر المصريين على العودة إلى ديارهم. «وقد حنطوا جسده ووضعوه في تابوت. وبعد وصولهم إلى القاهرة في أحزان وافرة، صنعوا له مماليكه مناحة عظيمة ودفنوه في الجامع الذي كان قد بناه». وقد أرّخ السيد أحمد البربير موته بقوله[١]:

لما دنا كل المنا
والهمّ من قلبي ذهب
والسعد أقبل ظاهراً
أرّخت مات أبو الذهب

ونعود إلى الأمير يوسف، فقد داخله الخوف والهلع حين قدم أبو الذهب إلى البلاد، فأراد «أن يصانعه ويتقرب إليه لعله ينجو من أذاه. فوجه له رسولاً من خواصه... وساق له معه أربعة من الخيل الجياد مسومة بالحلى الفاخر والزي الباهر. وأصحبه بكتاب يتضمن التهنئة بالحضور». وعندما وصل رسول الأمير إلى صيدا بلغته وفاة محمد أبو الذهب فعاد إلى بيروت وأخبر أميره بالحدث فارتاح وانشرح. أما الشيخ ضاهر العمر فقد خرج من مخبئه فوراً وعاد إلى عاصمته عكا مع عياله وأهله لمعاودة الأحكام، بعدما فقد واقعياً خلفاءه وأنصاره. ولم يطل الوقت حتى اغتاله جندي مغربي عقب مؤامرة حاكها العثمانيون ضده عند هجومهم على ولايته[٢]. وبمقتله تفرق بنو ضاهر في كل ديار وقبض حسن باشا «القبوذان» أي وزير البحرية وقائد القوى التي دخلت عكا، على كثير منهم ووضعهم في الأسر والاعتقال. وبعدها استولى على صيدا وصور وسائر أقاليم البلاد ثم عين محمد باشا ملك، صديقه، والياً على صيدا. وقد وجّه الأمير يوسف إلى حسن باشا الرسل بالهدايا وساق له الخيل الجياد المسومة يهنئه بالحضور

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١١١.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١١٣.

إلى هذه البلاد، كما وأنه لم يسمح لأحد من بني الضاهر بالإقامة في إمارته خوفاً من ردة فعل حسن باشا[1].

٣٤ - اختلاف الأمير يوسف مع والي الشام (١٧٧٣):

لم تكن علاقات الأمير يوسف مع الولاة الأتراك المحيطين بإمارة الشوف إلاّ علاقات ود وإخلاص وأمانة مستمرة. فوالي الشام عثمان باشا الكرجي هو الذي أوصى ابنه محمد باشا والي طرابلس سنة ١٧٦٣ بتعيين الأمير يوسف حاكماً على بلاد جبيل. وعثمان باشا نفسه هو الذي نصح ابنه الثاني درويش باشا، والي صيدا بتعيين الأمير يوسف أيضاً السنة ١٧٧١، حاكماً على إمارة الشوف.

إلى جانب هذه العلاقات الهادئة والمهمة بالنسبة إلى الأمير يوسف، أتى اتفاق المصالحة والصداقة مع الشيخين ضاهر العمر وناصيف النصار السنة ١٧٧٣، ليقوّي من عزيمته ومن ثقته بنفسه. فراح يقيس ذاته على مقياس هؤلاء الولاة، فوقع أول اصطدام بينه وبين والي الشام عثمان باشا المصري الذي عيّن خلفاً للوالي السابق عثمان باشا الكرجي السنة ١٧٧٣.

أ - معركة بر الياس ١٧٧٣:

في هذه السنة وقع الخلاف بين الأمير وعثمان باشا المصري وسبب هذا الخلاف أن الأمير يوسف كان قد أرسل قبل فترة من الزمن إلى عثمان باشا يلتمس منه تفويض ولاية البقاع إلى أخيه الأمير سيد أحمد. فأجابه بما طلب «ووجه الولاية المذكورة على الأمير المذكور فتولاها. ونهض من محله إليها، فتوطن قلعة قب الياس وعمّر ما كان مهدماً منها. وأحضر إليها المدافع والآلات الحربية»[2]. وراح يقوم بغزوات على البلاد المجاورة له. وفي إحدى المرات تصدى لقافلة من التجار السوريين على طريق دمشق - شتورا، ونهب ما كانت تحمله من المؤن

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١١٤-١١٥.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٠٣.

والبضائع والسلع. شكا هؤلاء إلى الوالي الذي كتب إلى الأمير يوسف لردع أخيه وإعادة المسلوبات إلى أصحابها. أبى الأمير السيد أحمد الخضوع والانصياع فاضطر الأمير يوسف إلى المماطلة محاولاً التملص من تنفيذ وعوده التي قطعها للوالي الذي «أخذ من ذلك غيظاً شديداً، وكان الأمير يوسف لا يعبأ به كثيراً للاختلال الحادث في تلك الأيام ولما بينه وبين عمه الأمير منصور وضاهر العمر وأصحابه من المحالفة والانضمام»[1]. فحشد الوالي حملة عسكرية لتأنيب ومعاقبة حاكم البقاع. فقرر الأمير يوسف مساندة أخيه فور معرفته بنوايا الوالي. «فجمع العساكر من الديار اللبنانية ونهض من دير القمر...» إلى البقاع وأقام معسكره في المغيته. بعدما بلغه أن الوالي قد وصل إلى صحراء بر الياس. ثم انحدر لقتاله وحدث بينهما «بعض المواقع لم يتم فيها الظفر لأحد منهما». فكتب الأمير يوسف إلى حليفيه الشيخين ضاهر العمر والنصار يستنجدهما «فقام عليه منهم علي ابن الشيخ ضاهر وناصيف النصار نفسه وانتقلا بقواتهما باتجاه ساحة القتال في البقاع فوصلا إلى القرعون بقصد الاشتراك بالمعركة». ولما بلغ الوالي قدوم هؤلاء «دخله الرعب والخوف وتقلقلت أحوال عساكره. ففر هارباً تلك الليلة إلى دمشق»، تاركاً مدافعه وعتاده وخيامه وعلائف حيواناته، فأرسل الأمير يوسف قوة إلى المعسكر المعادي فجمعت الأعتدة والمدافع وأحضرتها إلى قلعة قب الياس. فركزت المدافع في القلعة المذكورة لاستعمالها للدفاع عنها. بعد ذلك أغار علي الضاهر على القرى المجاورة في أطراف البقاع فنهبها. ثمّ اجتمع الأمير يوسف مع حليفيه وأثنى عليهما لإجابتهما دعوته، ثم عاد كل منهم إلى دياره.

بقي الأمير سيد أحمد في قلعة قب الياس، ولم تطل المدة حتى سوّلت له نفسه الخروج على أخيه الأمير يوسف، وكان بمعيته الأمير فارس يونس شهاب. واستمال إليه

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٠٤.
- الشدياق، ج٢، ص٥٠.

الأمير منصور شهاب، حاكم راشيا والشيخ عبد السلام العماد زعيم الحزب اليزبكي والشيخ حسين تلحوق، وكل الذين كانوا يناصبون الأمير يوسف العداوة[1].

في بداية السنة ١٧٧٤ قصد الأمير يوسف قتال أخيه وإزاحته عن القلعة، فجمع قواته وسار نحو البقاع ولما وصل أقام الحصار عليها نحو شهر من الزمن «فلم يجد نفعاً» فطلب مساعدة من والي الشام فأرسل له قوة من المغاربة لمحاصرة القلعة وفي نهاية الأمر تدخل الشيخ علي جنبلاط والشيخ كليب نكد واستعطفا الأمير يوسف بشأن أخيه الأمير سيد أحمد، فوافق على طلبهما وخرج سيد أحمد من القلعة مع عياله وأمواله وجماعته وانتقل إلى الحدث قرب بيروت. وعند تسلمه القلعة أمر يوسف بهدمها، لكن الفعلة لم يتمكنوا إلاّ من هدم القليل منها.

٣٥ - صراع الأشقاء على السلطة:

في السنة ١٧٧٦ أصبح أحمد باشا الجزار والياً على صيدا. فخاف منه الأمير يوسف لما بينهما سابقاً من الكره والضغينة، لكنه أظهر له الملاطفة والود وأرسل له هدية من بعض الخيل العربية. ثم سارع واستنجد بقائد الأسطول العثماني حسن باشا القبوذان وأفاده عن خوفه من الجزار فطيب له خاطره وطمأنه «واستنهضه لنجاز ما وعد به من المال»[2] فقام الأمير يوسف ووضع يده على ما للأمراء الشهابيين من القرى والمزارع وجمع من ريعها ذلك المبلغ المطلوب وأرسله إلى حسن باشا الذي أرسل لح صكاً يتضمن براءة ذمته من تلك الأموال السلطانية. ووجه له الخلع والإنعام «وأطلق له الولاية على جبيل والبقاع وبيروت وجبل الشوف وتوابعه وكتب له عهدة بأن ليس لوالي صيدا سبيل عليه بشيء سوى قبض الأموال الميرية السلطانية ...»[2].

بعدما ترك حسن باشا عكا عائداً إلى اسطنبول، أظهر الجزار ما في نفسه من الضغينة والحنق على الأمير يوسف، فنهض بعسكره من صيدا إلى بيروت، فاستولى

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٠٥.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١١٦.

عليها ورفع يد الأمير يوسف عنها. وضبط كل أملاك الشهابيين فيها، ثم طلب من الأمير يوسف الأموال السلطانية عن مدة ٣ سنين الماضية. بعد ذلك عاد الجزار إلى صيدا بحراً وأرسل جنوده اللاوند المرافقين له براً، فعلم الأمير يوسف بذلك فأرسل ليلاً مشايخ بيت بو نكد أنصاره، على رأس قوة من المشاة قدرت بحوالي مئتي مقاتل لنصب كمين لعسكر اللاوند في منطقة السعديات بين بيروت وصيدا. وهي أرض صعبة المسالك، ضيقة المجازات، لا تعبرها الخيول إلاّ بصعوبة ومشقة، وكانت ممراً إجبارياً للوصول إلى صيدا. وأمرهم بسك الطريق على عسكر الجزار ومنعهم من العبور. وفي صباح اليوم التالي، ظهرت طلائع اللاوند ولما اقتربوا، هاجمهم المشايخ ودار القتال بينهم وأسفرت النتيجة عن مقتل العدد الكبير من بيت بو نكد وعلى رأسهم مقدمهم الشيخ أبو فاعور، ووقوع الشيخ محمود والشيخ واكد ابن الشيخ كليب بو نكد أسيرين وسقوط شقيق أبو فاعور، الشيخ بشير جريحاً. ثم تابع اللاوند مسيرهم إلى صيدا. خاف الأمير يوسف مغبة هذا العمل فجعل «يتلطف للجزار ويتوسط إليه بصفا القلب والخاطر ويستعطفه ويعتذر له، وطلب إطلاق المشايخ المسجونين لديه لقاء مئة ألف غرش». فأجابه الجزار بالقبول[1] وبعث إلى دير القمر مدبره مصطفى آغا قرى منلا وأحد قادة اللاوند عبد الله آغا البيوق مع أربعماية فارس. فارتاب الأمير يوسف من البيوق وغدره فطلب من الآغا أن يصرفه وفرسانه إلى صيدا، فأجابه بما طلب.

قسّم الأمير يوسف هذا المال على أهالي البلاد والأعيان والأمراء، فتمنع بيت بو اللمع عن الدفع وأظهروا العصيان. فطلب من الآغا الانتقال إلى بيروت ومصادرة أملاكهم وعقاراتهم وكتب له صكاً على أن بيروت أصبحت باستلامه. فأعرض الآغا للجزار جلية الأمر، والتمس منه إرسال عسكر من اللاوند إلى تلك المناطق للاستيلاء عليها. وافق الجزار على هذا

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١١٩.

الأمر، وحين وصول القوة إلى بيروت توجه قسم منها إلى المكلس والجديدة والدكوانة التابعة لإقطاع أمراء أبي اللمع، فأحرقها وقتل بعض أهلها. ثم انتقل إلى الشويفات فلم «يقدر عليها» فانكفأ عنها وصادف جماعة من الشوف فقتلهم، ثم رجع إلى بيروت. ومن ذلك الحين خرجت المدينة من يد الأمير يوسف.

لم يستطع الأمير يوسف جمع المبلغ المتوجب عليه للجزار الذي وجه جنده إلى البقاع ليضبط ما فيها للأمير يوسف ولأهل «دياره من الأرزاق» مقابل هذا الدين. فبلغ ذلك الأمير يوسف فجمع عسكراً من أهل البلاد وأصلح الأمير بينه وبين الأمراء بيت بو اللمع وضمهم إليه وسار بقواته العسكرية ونزل منطقة المغيته فوقع القتال بين المتخاصمين في مواقع متعددة كان النصر في جميعها لجنود الجزار. وتفرقت قوات الأمير بعدما تكبدت عدداً كبيراً من القتلى والجرحى منهم الشيخ السيد أحمد أخو الشيخ عبد السلام العماد والشيخ ضاهر عبد الملك والمقدم شرف الدين مزهر من مقدمي حمانا.

وفي السنة ١٧٧٧ تمكّن أحد اللبنانيين، ويدعى حنا بيدر من تهريب الشيخين المسجونين من السجن بواسطة حبل كان قد أدخله لهما من نافذة في السجن.

أ - معركتا البرجين ونهر الحمام (١٧٧٨):

اعتبر مشايخ بيت بو نكد أن الأمير يوسف تقاعس عن «استفداء ولديهما من أسر الجزار»، فانضموا إلى أخويه الأمير سيد أحمد وأفندي خصميه، وراحوا «يهيجونهما عليه ويحرضونهما على النهوض ضده»[1] ويرغّبونهما في حكم إمارة الشوف، فتوصلوا إلى استمالة الفئة الجنبلاطية «وصار الجميع يداً واحدة بالقيام عليه وخلعه عن الإمارة الشوفية». وتشير المراجع إلى أن الجزار راح يوهم السلطنة، عبر تقاريره، بأن ثورة وشيكة ستحصل في الجبل، كما راح يثير القلاقل والاضطرابات داخل الإمارة من أجل

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٢.

التأكيد على مضمون تقاريره[1]. انتبه الأمير يوسف لما يحاك له من مكايد، «فأظهر إنه يريد العزلة عنهم» فنهض من دير القمر إلى غزير. ولم يقم فيها إلاّ قليلاً حتى ثار مشايخ بيت بو علوان الجنبلاطيون، على ابن عمهم الشيخ ضاهر وقتلوه، وكان يزبكياً. وجد الأمير يوسف هذه الفرصة مناسبة للثأر من المشايخ بيت بو علوان الذين استجاروا بالجزار في عكا بحيث طلبوا منه المساعدة لخلع الأمير يوسف عن إمارة الشوف. وكان الجزار يكره الأمير، فمال لما طلبوه منه وأمدهم بالعسكر، فنهضوا بمعيتهم من عكا إلى صيدا، ومنها إلى نهر الحمام عند مدخل الشوف الغربي. مال النكديون إلى الأمير يوسف، وكان على رأسهم الشيخ كليب وابنه الشيخ بشير، وانتقلا بقواتهما من المناصف لملاقاة أخصامهم، فدارت المعركة بين الخصمين اللدودين حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر، وانجلت عن اندحار أبي علوان وقوات الجزار والتراجع إلى صيدا. وفي اليوم الرابع تقدمت قوات الجزار وبيت أبو علوان إلى قرية البرجين في إقليم الخروب، فاندفع النكديون إليهم وقامت معركة شرسة بينهما انتهت باندحار النكديين وفرارهم من أرض المعركة. لم تستغل قوات الجزار المتعبة النجاح بل عادت مسرعة إلى صيدا وبقيت فيها[2].

ب - إستقالة الأمير يوسف من إمارة الشوف (١٧٧٨):

بعد معركة البرجين عاد الهدوء قليلاً إلى البلاد، إلاّ أن الخصام عاد من جديد بين أمير البلاد يوسف وأخويه سيد أحمد وأفندي. وتشير المراجع إلى أن أعيان جبل لبنان كانوا يساندون سراً أحمد وأفندي ضد أخيهما يوسف الذي كان يشعر بضعفه العسكري لمقارعة القوى الثائرة ضده.

بقي الأمير في غزير حتى تنجلي الأمور، وفي هذه الأثناء توفي الشيخ علي جنبلاط فنهض الأمير يوسف إلى الشوف، فحضر المأتم وقدم تعازيه ثم اتجه إلى الباروك، وجمع هناك أعيان البلاد «وخلع نفسه عن الإمارة

(١) لا كروا، إدوار، أحمد باشا الجزار، ترجمة جورج مسرّة، ساو باولو ١٩٢٤، ص١٦٨.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٢.

وسلم أمرها لأخويه الأميرين سيد أحمد وأفندي لوجود الاختلاف الحادث في البلاد. وعدم إطاعة أهاليها لأوامره وعدم الانقياد... وكتب بذلك كتاباً إلى الجزار يتضمن خلع نفسه من الولاية... »[١] ويلتمس منه تقليدها لأخويه المشار إليهما. ثم عاد إلى غزير بعدما عينه أخواه حاكماً على بلاد جبيل وكسروان وأسقطت عنه ماليتها الميرية. بعد ذلك خلع الجزار الولاية إلى سيد أحمد وأفندي السنة ١٧٧٨ مقابل المزيد من الأموال. وكان في مختلف الأحوال يخلق الظروف التي تخدمه في ابتزاز الأموال من الأميرين.

ج - هجوم الأميرين على الأمير يوسف في كسروان وجبيل (١٧٧٨):

كان الأمير يوسف من الحكام الذين لا يستسيغون كثيراً الانكفاء والانزواء عن الحكم بهذه السهولة، لذلك راح ينسج لنفسه مخططاً يعيده إلى حكم الإمارة ولو بعد حين، ولقد راهن الأمير على أمور ثلاثة كان يتوقع حصولها:

- فشل أخويه في حكم الجبل.
- جشع والي عكا أحمد باشا الجزار وابتزازه،
- انقلاب الأمراء والأعيان على أخويه.

باشر الأمير يوسف الاتصال سراً بالأعيان، محاولاً إبعادهم عن أخويه، وقد استجاب البعض له[٢]. ثم لم يطل الوقت حتى وقع الخلاف مجدداً بين الأخوة وسببه أن سيد أحمد وأفندي أرسلا محصلين «بطلب المال الأميري من إقطاعه المعفى من تأديته، فطردهم الأمير يوسف فغضب الأميران من ذلك ونهضا بالرجال إلى بعبدا وخيّما فيها لإلقاء الرعب في قلب أخيهما...»[٣]. وطلبا من الجزار المساعدة فلبى الطلب وأرسل لهما قوة وضعت بتصرفهما.

أما الأمير يوسف فطلب النجدة والمساعدة من آل مرعب حكام عكار ومن

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٣.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٣.

(٣) الشدياق، ج٢، ص٥٧.

آل رعد حكام الضنية. «فسارع إليه بنو رعد برجالهم صحبة كبيرهم رعد المقدم ذكره. وبنو مرعب بفرسانهم صحبة كبيرهم يومئذ عثمان الشديد... »[1] ونزلوا في المعاملتين. أما قوات الجزار التي وضعت بإمرة السيد أحمد وأفندي، فقد خيمت في حرش بيروت. والجزار نفسه أتى بحراً من عكا إلى صيدا ومنها إلى بيروت.

قسمت قوات الجزار والشوف إلى رتلين، وأعطيت المهمات التالية:

- الأول: قوات الجزار، بإمرة سيد أحمد - مهمتها محاصرة الأمير حيدر شقيق الأمير يوسف في جبيل.

- الثاني: قوات الشوف، بإمرة الأمير أفندي - مهمتها احتلال كسروان.

فحين بلغ الأمير يوسف نوايا أخصامه، بادر إلى نقل قوات أنصاره إلى جبيل لمساعدة معسكر شقيقه حيدر.

وصل الأمير سيد أحمد إلى قلعة جبيل ووضع الحصار عليها وحاول تدميرها بالألغام والمتفجرات أو الدخول إليها بواسطة نفق، لكنه فشل. طال الحصار ولم يتمكن من الدخول إلى القلعة. أما الأمير أفندي فانتقل بقواته إلى منطقة زوق مكايل وزوق مصبح، ومنها إلى جرد كسروان، حتى وصل إلى تنورين، فتوقف بقواته وعسكر فيها.

خلال هذا الوقت، مستفيداً من انشغال أخويه في جبيل وكسروان، انتقل الأمير يوسف بسير حثيث من بسكنتا إلى بعقلين في الشوف واستقر فيها. «ثم راح يتصل بالأعيان الذين هم من «غرضيته»»[2].

د - ابتزاز الجزار وعودة الأمير يوسف إلى حكم الإمارة:

علم أحمد باشا الجزار بوصول الأمير يوسف إلى بعقلين في الشوف، فبعث إليه

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٤-١٢٥.
- الشدياق، ج٢، ص٥٧.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٥.
- الشدياق، ج٢، ص٥٧.

برسول، هو أسعد بك بن طوقان حاكم ديار نابلس، «ليراوده» بإعادته إلى حكم الإمارة مقابل أن يدفع المزيد من المال. وافق الأمير يوسف على هذا الابتزاز الشنيع وتعهد بدفع ماية ألف غرش للوالي. فأمر الباشا جيشه بالانكفاء والعودة إلى صيدا وترك الأميرين سيد أحمد وأفندي. وخلع من جديد حكم الإمارة إلى الأمير يوسف الذي انتقل فوراً من بعقلين إلى دير القمر حيث وافاه «جميع أهل البلاد من خاص وعام. وتسلم زمام الأمر والأحكام»(١).

أمام هذا الواقع المستجد، هرب الأميران سيد أحمد وأفندي إلى المتن. توسط «أكابر البلاد وأعيانها أمر الصلح بين الأمير وأخويه... فرضي عنهما وكتب إليهما... يطيب به قلبيهما ويدعوهما إليه، فحضرا». في هذا الوقت، أعاد الأمير يوسف كسروان إلى مشايخ بيت الخازن وغزير إلى المشايخ الحبيشية.

هـ - اغتيال الأمير أفندي (١٧٨١):

مما لا شك فيه أن عودة الأمير يوسف إلى الحكم أغاظت أخويه كثيراً، فقررا العمل سراً على إزاحته مجدداً عن السلطة، فحاولا دفع الأعيان إلى إثارة الفتنة في الإمارة، بعدما أمّنا مساندة الشيخين حسن وقاسم ولدي الشيخ علي جنبلاط اللذين يخفيان في نفسيهما كرهاً وضغينة شديدن ضد الامير يوسف، ويعملان منذ زمن بعيد لجمع أكبر عدد ممكن من الأعيان والأمراء ورجال الدين، في حلف واحد بغية الإطاحة به.

تشير المراجع إلى أن الأمير يوسف، فور تسلمه الحكم من جديد، «راح يثقل على بيت بو نكد، وخاصة كبيرهم الشيخ كليب، ليحصّل منهم المئة ألف غرش التي تعهد بها للجزار». فر الشيخ كليب بأهله من دير القمر إلى جبل عامل وأقام عند الشيخ ناصيف النصار، فاستولى الأمير يوسف على أملاكه، وعقاراته وسلمها إلى سيد أحمد وأفندي ليوقع «النعرة بينهما وبين بيت بو نكد»(٢). عاد الشيخ كليب بعد سنة إلى البلاد بموافقة

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٦.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٦-١٢٧.

الأمير يوسف، الأمر الذي لم يعجب سيد أحمد وأفندي لأنه رجع بغير علمهما «فأضمرا الشر للأمير يوسف وجعلا يستميلان إليهما بيت جنبلاط ويجددان معهما العهود. وكان الأمير يوسف قد أظهر إلى بيت جنبلاط الصد والجفا». ولم يوافق على عودة الشيخ كليب نكد إلاّ نكاية ببيت جنبلاط.

كان الأمير يوسف داهية وعاقلاً ومجرباً. لقد كان على علم مسبق بما يصمم له أخواه في الخفاء ضده. لكنه كان يتظاهر دوماً بجهل ما يدور حوله من مؤامرات. في السنة ١٧٨٠، فرض الأمير يوسف ضريبة على «بزر دود الحرير» فدس الأمير سيد أحمد والأمير أفندي دسيسة إلى المشايخ بيت جنبلاط بأن يهيجوا العامة ويغيروهم على الإباءة»[١] فحضر الشيخان حسن وقاسم جنبلاط وأنصارهما من العامة والأعيان إلى السمقانية وأظهروا عدم القبول بهذه الضريبة. ثم اتجه الجميع إلى دير القمر بنية طرد الأمير يوسف وقتل مدبره الشيخ سعد الخوري. وراحوا يطلقون «البارود ويكثرون من العجيج والضجيج»[٢] ولم ينفضوا إلاّ بعدما وعدهم الأمير بإبطال هذه الضريبة المستحدثة.

اتفق الأميران سيد أحمد وأفندي مع الشيخين حسن وقاسم جنبلاط على خلع أخيهما يوسف وفقء عينيه وقتل مدبره سعد الخوري وإهلاك النكدية أنصار الأمير يوسف بعد الظفر بما يخططان له. كاشف الأميران الشيخ كليب نكد بما أضمراه على أخيهما، وطلبا منه ومن انصاره التحالف معهما لتنفيذ المخطط. واتفق الجميع على إجراء قسم اليمين ليلاً وسراً في كنيسة سيدة التلة في دير القمر. تظاهر الشيخ كليب بالموافقة وأخبر الأمير يوسف بما جرى وسيجري. وفي الوقت المحدد لتنفيذ القسم، هيأ الأمير يوسف، بواسطة جنود مغاربة، كميناً «في الدكاكين التي في طريقهم» في سوق الدير. ولما دنا الأميران سيد أحمد وأفندي ومن معهما من السوق، تأخر النكدية عنهم فوقع الأميران وأتباعهما في الكمين وألقى المغاربة القبض على الأمير

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٢٧.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٥٨.

أفندي وفر الأمير سيد أحمد إلى كنف آل جنبلاط. أدخل الأمير أفندي إلى أخيه الأمير يوسف «وفي دخوله نهض الأمير إليه من مجلسه وقتله بيده طعناً بالخنجر».

سبب هذا الحادث هيجاناً كبيراً في الشوف، حتى أن الجزار أرسل سراً ثلاثة آلاف مقاتل إلى المنطقة لحفظ الأمن. وفي اليوم التالي جمع الأمير يوسف أقرباءه الشهابيين في دير القمر وشرح لهم ملابسات الحادث معتذراً عن قتل أخيه بهذه الطريقة، وموضحاً كل تفاصيل المخطط الإجرامي الذي استهدفه.

و - معركتا علمان وقب الياس (١٧٨١):

بعد فرار الأمير سيد أحمد ووصوله إلى المختارة راح «يحزب الناس معه مستغلاً مقتل أخيه الأمير أفندي والطريقة التي قتل فيها، يؤازره في ذلك أنصاره الجنبلاطيون». وقد تمكنوا من تأليب كل الذين يحملون في قلوبهم الحقد والضغينة ضد الأمير يوسف وعلى رأسهم الشيخ عبد السلام العماد زعيم اليزبكية، الذي انضم إلى الحلف بعدما دفع له الشيخ حسن جنبلاط، مبلغاً من المال. وهكذا نرى أن «الغرضيتين اليزبكية والجنبلاطية أصبحتا يداً واحدة ضد الأمير الحاكم وإلى جانب الأمير سيد أحمد». واتفق الجميع على «السير إلى دير القمر وخلع الأمير من الولاية وتقليدها للأمير الخصم»[١] وقد فعلوا ما اتفقوا عليه.

لقد ظهرت بوادر ثورة كبرى في الجبل، فخاف الأمير يوسف من نتائجها، فترك الدير مع أربعماية من أنصاره على رأسهم سعد الخوري والشيخين كليب وبشير نكد باتجاه عكا لمقابلة الجزار وإفادته عمّا حدث ملتمساً منه «النجدة ومتعهداً له بدفع ثلاثماية ألف غرش... فأجابه إلى ما طلب ووجه معه مملوكه سليم باشا بجحفل جرار...». وقبل ذلك كان الجزار قد استقبل الأمير يوسف بحفاوة كبيرة فأرسل لملاقاته في ٢٥ كانون الثاني خارج عكا مدبره، ودخل الأمير المدينة على ألحان وترانيم الموسيقى وقد أطلقت صلية

(١) الشدياق، ج٢، ص٥٩.

من مدفعية القلعة ومن كافة البوارج البحرية المتواجدة في الميناء[1].

نهض الأمير يوسف في ٣١ كانون الثاني من عكا، فوصل صيدا في ٤ شباط وبمعيته أربعماية جندي مغربي من جنود أحمد باشا، «فالتقتة النكدية وقدموا معه إلى إقليم الخروب فخيم في صحراء قرية علمان. فلما ذاع خبر قدومه قدم إليه التلاحقة وبنو عبد الملك وأخواه الأميران قاسم وحسن عمر... فاشتد عزمه وكثر صفه». ولما بلغ الأمير سيد أحمد قدوم الأمير يوسف إلى علمان جمع أربعة آلاف من أنصاره وعسكره «ووجههم إلى قتاله صحبة الأمير قعدان بن الأمير محمد بن الأمير ملحم الشهابي». وكان اليزبكيون لا يثقون بالأمير سيد أحمد «لعدم ثباته على حال» والأهم ميله الظاهر إلى الجنبلاطيين. وقد كتبوا إلى الأمير يوسف بهذا الشأن ووعدوه بالانضمام إلى جانبه عندما تبدأ المعركة. وقد تم ذلك وانتصر الأمير يوسف في المعركة وفر الأمير قعدان بمن معه فتبعهم رجال الأمير يوسف «وأكثروا فيهم القتل والسلب وقبضوا على كثير منهم فأمر الأمير يوسف بإطلاقهم»[2].

وصلت أنباء الهزيمة إلى دير القمر، ففر الأمير سيد أحمد إلى صليما ومنها انطلق إلى قب الياس والتجأ «إلى والي الشام محمد باشا العظم والتمس منه ولاية وادي التيم والبقاع فأجابه. وأرسل له خلعة وعسكراً فحضر إليه الجنبلاطية فكثر جيشه وقوي جأشه ونهض بمن معه إلى راشيا فالتقاه الأمير محمد شهاب برجاله إلى الضهر الأحمر ودار بينهما القتال فانكسر الأمير محمد وفر برجاله...»[3]. وتقدم سيد أحمد إلى حاصبيا مقاطعة خاله الأمير إسماعيل الذي طلب من والي الشام أن يبقيه على مقاطعته، فأبقاه حاكماً عليها بعدما دفع له مبلغاً لا بأس به من المال، ثم طلب من الأمير سيد أحمد العودة من حيث أتى. فترك هذا

---

(١) إسماعيل، ج٢، ص٣٦١.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٦٠.
- الشهابي، الغرر الحسان، ص
(٣) الشدياق، مماثل، ص٦١.

الأمير وادي التيم الفوقا بعدما عين موسى منصور شهاب متسلماً عليها وجاء مع أنصاره الجنبلاطيين وحل في قلعة قب الياس.

علم الأمير يوسف بمكان تمركز أخيه الأمير سيد أحمد، فأرسل له مبعوثاً من قبله يعرض عليه الصلح بشرط تخليه عن المشايخ الجنبلاطيين.

قبل الأمير بهذا العرض، لكن الجنبلاطيين اشتكوا عليه إلى والي الشام الذي هدده بخلعه عن ولاية البقاع وراشيا إذا نقض تحالفه مع آل جنبلاط. أنكر الأمير سيد أحمد هذا الاتفاق واستمر محافظاً على تحالفه معهم.

اعتبر الأمير يوسف هذا الأمر تحدياً له ولسلطته، فجمع قوة عسكرية من رجاله وجنود الجزار وتوجه بهم إلى البقاع حيث عسكر في منطقة المغيته. أما الأمير سيد أحمد فقد حصل على نجدة من عسكر والي الشام المغاربة إلى جانب أنصاره الجنبلاطيين، فخرج من القلعة متجهاً إلى سهل قب الياس لملاقاة أخيه، بعدما أبقى المغاربة في القلعة المذكورة.

نشب القتال بينهما «من الصباح إلى المساء، فانكسر سيد أحمد وأصحابه»(١).

فلحق بهم جنود الأمير يوسف وقتلوا عدداً كبيراً منهم. بعدها حاصر الأمير القلعة ولم يفك الحصار إلاّ بعدما اتفق والي الشام ووالي عكا على حل المسألة، شرط أن تهدم القلعة المذكورة.

هرب المشايخ الجنبلاطيون إلى وادي التيم، وكلفوا أمير حاصبيا إسماعيل بالتوسط مع الأمير يوسف لالتماس العفو عنهم والعودة إلى ديارهم. فتمت الموافقة شرط أن يدفعوا له مائة وخمسين ألف غرش «فارتضوا وعادوا إلى البلاد ودفع المبلغ». أما الأمير سيد أحمد فقد فر هارباً إلى المتن «وطلب من عمه الأمير علي أن يتوسط أمره عند الأمير يوسف برفع الضبط عن أملاكه

(١) الشدياق، مماثل، ص٦١-٦٢.
- الشهابي، الغرر الحسان، ص١٣٢.

فأجابه الأمير برفع الضبط وأمره بأن يتوطن بلدة الشويفات فتوطنها»[1].

٣٦ - حاكم حاصبيا يطمع في إمارة الشوف (١٧٨٤):

أ - توطئة:

بعد أن استتب الأمر للأمير يوسف، تجدد الخلاف اليزبكي الجنبلاطي وانقسمت العائلة الشهابية بين الأمير يوسف والأمير سيد أحمد، وكان يزبكياً. أما الأمير يوسف فلم يكن لا يزبكياً ولا جنبلاطياً لأنه قد بدأ بالخلاف مع الجنبلاطيين. وفي هذه المرحلة حصن أحمد باشا الجزار عاصمته عكا وبدأ يتدخل في شؤون لبنان الداخلية، يعود ذلك بسبب الفوضى التي كانت قد دبّت في السلطنة العثمانية في شكل عام وفي الشرق في شكل خاص. لقد أفاد الجزار من هذه الفوضى ليحصن عكا، ومنها يحاول أن يقضي على نفوذ رؤساء العشائر ويفرض نفسه كحاكم بالقوة، وأن يوسع ولايته فيربط عكا بدمشق جغرافياً ويقيم سلطة محلية. وخطته كانت بسيطة: هي التدخل في شؤون الولاة المجاورين وإثارة الفتن ضدهم وإثارة العشائر بعضها على بعض واستعمال القوة للسيطرة.

نجحت خطته في تقليص نفوذ العشائر، أما ربط عكا بدمشق فكان يعني السيطرة على جنوب لبنان أي إقليم التفاح وإقليم جزين. ولم تكن في المنطقة قوة تستطيع مجابهته، إلاّ أمير الشوف. لذلك نقول إن معارضة الأمير يوسف للجزار كانت الصراع حول ملكية الجنوب، إذ أن الأمير رفض التنازل عن إقليمي جزين والتفاح، وعندما فشل الجزار، كما يقول ميخائيل مشاقه في كتابه «منتخبات من الجواب على الأحباب»، «حاول أن يدمر قوة الأمير يوسف من الداخل»، فبدأ يثير الأمراء الشهابيين على بعضهم البعض مما أدى إلى صراع جديد ضمن العائلة الشهابية وإلى خلافات

---

(١) الدبس، ج٧، ص٤١٢-٤١٣.
- الشدياق، مماثل، ص٦٢.

جسيمة بين الأمير يوسف والجزار. ولكن هذه الخلافات كانت في شكل أعنف بين مختلف الفئات في لبنان والعائلة الشهابية.

ومن نتائج الخلافات الاجتماعية كانت زيادة الضرائب، إذ أن الأمراء المتنافسين دخلوا في مزايدات مالية للحصول على خلعة الإمارة. من هنا تبدأ مرحلة نهاية الأمير يوسف.

ب - حاكم حاصبيا إسماعيل شهاب يدخل صلب الصراع:

تميّزت السنة ١٧٨٤ بدخول عامل جديد في الصراع على السلطة هو الأمير إسماعيل شهاب، حاكم حاصبيا التابعة لوالي الشام.

في هذه السنة وقع الخلاف بين الأمير يوسف وخاله الأمير إسماعيل، وسبب ذلك أن الأمير إسماعيل كان يملك إقطاع مرجعيون التابع لولاية صيدا، وكان هذا الإقطاع يؤمن للأمير مداخيل هامة تغطي القسم الأكبر من مصاريفه. وقع الخلاف بين إسماعيل والجزار بسبب جريمة قتل يهودي في حاصبيا، فعزله الجزار عن هذا الإقطاع وسلمه إلى الأمير يوسف، الذي أرسل الشيخ بشير نكد متسلماً من قبله، فضبط كل موجودات وعقارات الأمير إسماعيل هناك. حاول أمير حاصبيا بشتى الطرق إقناع الأمير يوسف بترك هذا الإقطاع لكنه لم يفلح رغم حضوره إلى دير القمر وإلحاحه متذللاً، خاصة وإن وارداتها كانت تقدر بحوالي خمسين ألف غرش. «فلم يزداد الأمير يوسف إلاّ قساوة وجفاء»(١).

ولما يئس الأمير إسماعيل «من مراده نهض راجعاً إلى حاصبيا حنقاً، فأشار إليه الشيخ قاسم جنبلاط أن يدفع إلى الجزار على ولاية الإمارة ومرجعيون ثلاثماية ألف غرش وهو يتعهد معه للجزار بذلك. وهذا المبلغ كان يزيد بحوالي مئة ألف غرش عما يدفعه الأمير يوسف. فكتب إلى الجزار بهذا الشأن فأجابه وطيب قلبه «واستدعاه إليه واعداً إياه بالولاية بشرط أن يكون أحد

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٣٦.
- الشدياق، ج٢، ص٦٣.

الأمراء الشهابيين شريكاً له فيها... وهو الأمير سيد أحمد القابع في الشويفات». وكعادته، أرسل الجزار إلى الأمير يوسف يخبره ويخيره... وحكم الولاية لمن يدفع أكثر.

جمع الأمير يوسف أعيان البلاد «فوافقوه على الدفع إلاّ الشيخ قاسم جنبلاط فإنه أفسد رأيهم وأقنع الأمير بالقتال، فأذعن الأمير لرأيه... وكتب المناصب إلى الجزار إنهم لا يقبلون بأموال جديدة على بلادهم. «فحنق الجزار وأرسل يستدعي الأمير إسماعيل من حاصبيا إلى جبل الريحان فقدم برجاله»[1].

ج - معركة جزين (١٧٨٤):

وصل الجزار بحراً إلى صيدا في ٤ أيار ١٧٨٤، وبعده ببضعة أيام لحق به بعض مئات من جنوده الألبان (٥٠٠ - ٦٠٠) من الذين يثق بهم ثقة عمياء في القتال. فأرسلهم إلى بلدة جباع قرب جزين. وكانت أوامره لهم بألا يكونوا البادئين بالقتال، لأنه كان يخاف من هزيمة تؤثر من هيبته وشهرته لكن هؤلاء الألبان كان همهم النهب والسرقة قبل القتال.

في هذه الاثناء كان الأمير يوسف قد جمع رجال الإمارة وأرسل قوة عسكرية إلى جزين مع مدبره الشيخ سعد الخوري يتقدمهم الأمير حسن قاسم شهاب ومعه من أمراء حاصبيا الشهابيين، الأميرين أسعد وقاسم ابنا الأمير سليمان شقيق الأمير إسماعيل.

من جباع اجتاز الجنود الألبان الوادي الفاصل باتجاه جزين. فنصب لهم رجال الأمير قاسم كميناً محكماً. ولما أصبحوا منهم على مسافة جد قصيرة، انطلقوا بالهجوم عليهم فقتلوا منهم حوالي المئة جندي وهرب الباقون فلم يلاحقهم رجال البلاد خوفاً من أن تعدهم السلطنة العثمانية من المتمردين عليها[2].

بالرغم من هذه النتيجة، تابع الأمير

(١) الشدياق، ج٢، ص٦٤.

(٢) إسماعيل، ج٢، ص٤٢٠.

يوسف تعبئته العسكرية واستعداداته القتالية بهدف البقاء في موقف دفاعي بانتظار ما ستظهره الأيام المقبلة من مفاجآت. وفي هذا الوقت، كان الشيعة، زعماء جبل عامل والذين قد لجأوا قبل سنتين إلى بكوات بني مرعب في بلاد عكار، قد حضروا من تلك الديار ويريدون «الغارة على جبل عامل فتلقاهم الأمير يوسف بالبشاشة والقبول. ومدهم بالخيل والأسلحة، فشنوا الغارة ودهموا عامل تبنين في قلعتها فقتلوه ونهبوا وسلبوا»[1].

ولما أبلغ الجزار بهذه الواقعة، خلع ولاية الإمارة الشوفية على الأميرين إسماعيل وسيد أحمد وزودهما بالجنود والمعونات والعتاد اللازم. فنهضا في ٢٩ أيار من صيدا إلى بلدة علمان وعسكرا فيها. كما بعث الجزار برسالة إلى الشيخ قاسم جنبلاط يطلب منه الالتحاق مع رجاله بالأميرين المذكورين بقصد توحيد جهودهم لطرد الأمير يوسف من دير القمر. نهض الشيخ قاسم مع رجاله من الشوف إلى علمان واجتمع مع الأميرين المذكورين وقرروا الزحف نحو الشوف لتنفيذ المهمة الملقاة على عاتقهم وكان ذلك في الأول من حزيران. تجاه هذا الواقع: تخلي الجنبلاطيين عنه وتقدم ثلاثة آلاف مقاتل من القوات الحليفة للإطباق على عاصمته دير القمر في الشوف، قرر الأمير يوسف مغادرة مركز الإمارة دير القمر واللجوء إلى مكان أكثر أماناً. «فنهض من الدير بمن معه إلى كفر قطرا، ثم إلى المتين، ومنها إلى بسكنتا». ولما شاع خبر فراره ووصول الأميرين إسماعيل وسيد أحمد إلى دير القمر، مالت إليهما وجوه البلاد وأكابرها «فتقلدا الزمام والأحكام وأطاعهما الخاص والعام» وزحف أعيان الإمارة ظرافات ووحدانا للتهنئة... كالعادة! وكلّ من «تزوّج أمي أصبح عمّي...»

د - ملاحقة الأمير يوسف للقضاء عليه:

بعدما وصل الأميران إسماعيل وسيد أحمد إلى سدة الحكم في الإمارة، راحا

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٣٧.

يلاحقان الأمراء الشهابيين المناوئين لهما بعدما تقاسما هذه المهمة: فوجب على الأمير إسماعيل استرجاع إمارة وادي التيم من أمير راشيا محمد شهاب ومن أمير حاصبيا أسعد شهاب اللذين هربا من هناك والتحقا بالأمير يوسف في بسكنتا. فولّى الأمير اسماعيل، الأمير فارس شهاب على راشيا واستأثر لنفسه بإقطاع حاصبيا ثم قفل راجعاً إلى دير القمر. أما مهمة الأمير سيد أحمد فكانت ملاحقة الأمير يوسف في بلاد كسروان. لذلك انتقل مع خيالته إلى حرش بيروت. فلما بلغ الأمير يوسف ذلك رجع من بسكنتا إلى المتين. ومن هناك إلى جرد كسروان ومنه إلى ساحل جبيل، بعدما رفض عرض الأميرين الحاكمين لتسلم حكم بلاد جبيل[1]. لاحقه الأمير إسماعيل من الباروك وسار خلفه برجاله إلى بسكنتا ومنها إلى نبع الحديد الواقع في أعالي كسروان ثم قفل راجعاً إلى وطا الجوز.

أما الأمير سيد أحمد فنهض بخيالته من حرش بيروت إلى البترون لطرد الأمير يوسف الذي توجه من هناك إلى عكار ومنها إلى دير صافيتا بالقرب من طرطوس في سوريا حيث «تلاقاه» حاكمها صقر ابن محفوض ابن شمسين وأباح له الدخول وأنزله قرية سرستان. ومن هناك «أرسل إلى الجزار يلتمس صفو خاطره عليه»[2].

٣٧ - الأمير يوسف يعود إلى حكم الإمارة من جديد:

لم يستطع إسماعيل وسيد أحمد الشهابيان، جمع الأموال من المكلفين، لذلك كتبا إلى الجزار «يلتمسان منه عسكراً لأن الناس طمعت فيهما ولم يؤدوا لهما المال». فلما بلغ الجزار ذلك وكان قد وصله كتاب الأمير يوسف الذي يلتمس منه صفو خاطره، تشير المراجع إلى أن الأمير يوسف تعهد للجزار أن يدفع له مبلغاً كبيراً من المال

(١) الشدياق، ج٢، ص٦٦.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٦٦.
- الشهابي، الغرر الحسان، ص١٣٨.

في حال إعادته إلى الحكم. فما كان منه إلاّ أن طلب من مدبره المعلم مخايل السكروج الاتصال بالأمير يوسف للرجوع إلى لبنان. أوصل كتاب السكروج إلى مدبر الأمير الشيخ سعد الخوري كاتبه الياس أده. وفيه يعرض الجزار إعادة حكم الإمارة إلى الأمير يوسف. وبالفعل فقد أعاد الجزار الولاية إلى الأمير يوسف مقابل تعهد الأخير بدفع مبلغ مليون غرش في مدة ثلاثة أشهر[1]. أما الشريكان: الأمير إسماعيل خال الأمير يوسف، وسيد أحمد شقيق الأمير، فعندما علما بالأمر، بعثا إلى الجزار يعرضان عليه خمسماية ألف غرش مقابل أن يقدم على قتل يوسف.

ورغم أن الجزار كان فقد ثقته بقدرة الأميرين على تأمين هذا المبلغ، فقد كتب إليهما بالقبول، غير أنه في الوقت نفسه أرسل جيشاً بصحبة الأمير يوسف الذي دخل دير القمر في خريف ١٧٨٤ في حين غفلة، واستعاد كرسي الإمارة[2]. ثم بادر إلى اعتقال الأمير إسماعيل وسجنه، وتمكن من الغدر به، بواسطة السم، بعد سنتين[3]، بينما فرّ سيد أحمد إلى حوران فدمشق، وقد تمكن يوسف لاحقاً من القبض عليه، في قرية الرمتانية في البقاع السنة ١٧٨٦ بينما كان يصطاد الطيور فيها، وسمل عينيه وأرسله للعيش في عبيه.

وكان على الذين ناصروا الأميرين الشريكين من الأعيان أن يتلقوا ضربات انتقامية قاسية من الأمير العائد وعلى رأسهم الأمير بشير نجم، فقد أعطاه الأمان وعندما حضر إلى ديوانه قتله ذبحاً بالخنجر مع مدبره عبد الله مالك السنة ١٧٨٧، كما وضع في السجن الشيخ محمد القاضي وسمل عينيه وقطع لسانه ثم أطلقه. وجرّم

(١) الشدياق، ج٢، ص٦٧.
- الشهابي، الغرر الحسان، ص١٣٨-١٣٩.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤٠.
(٣) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤١.

بيت جنبلاط بأموال وافرة. «وفعل فعالاً هايلة، حتى أرهب أهل البلاد».[1] وبذلك كان الأمير يوسف يفقد مزيداً من مراكز النفوذ. ففي السنة نفسها التي عاد فيها الأمير إلى مركز حكمه (١٧٨٤)، أصبح الجزار والياً على دمشق، فجعل مملوكه سليم نائباً له في عكا، ومملوكاً آخر له يدعى سليمان والياً على طرابلس، وحصّل لكل منهما لقب «باشا». وفي هذه السنة «أيضاً كتب الجزار إلى الأمير أن يعتقل أولاد الشيخ علي الصفير الشيعة الذين كانوا في مشغره ويرسلهم إلى نائبه سليم باشا في عكا. فأرسل الأمير يوسف رجالاً إلى مشغره فقبضوا عليهم... وقد نكث بهم ونقض عهده لهم. ولما رجع الجزار من الحج أمر بقتلهم... ولام الناس الأمير يوسف على ذلك[1].

٣٨ - نهاية حكم الأمير يوسف المأسوية:

كانت الضربة القاصمة التي وجهها الجزار إلى الأمير يوسف الشهابي في السنة ١٧٨٩، عندما فاجأه بطلب دفع المال المتأخر عليه فوراً وقيمته مائة وخمسون ألف قرش[2]. وإذ عجز الشهابي عن الدفع قرر الجزار خلعه من الإمارة. وكان من أسهل الأمور عليه أن يجد البديل في العائلة الشهابية التي كانت عمت فيها السلطوية إلى حد كبير. وتقول المراجع أن غندور الخوري الذي حل مكان والده المتوفي سعد، هو الذي أثر على الأمير بعدم دفع المال المتأخر. فقد رأى أنه من الأربح محاربة الجزار ثلاث سنين على أن يدفع الـ ١٥٠ ألف قرش الباقية[3].

فقد استنسب الجزار من بين طالبي السلطة الأمير علي بن إسماعيل أي أنه اختار ابن خال الأمير يوسف الذي كان هذا

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤١.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤٢.

- بازيلي، ص٩٣ (يقول ٣٠٠ ألف قرش).

(٣) بازيلي، ص٩٣.

الأخير قد غدر به بالسم قبل سنة، وكان علي يسعى من أجل الثأر لأبيه من قاتله. فبدأت خطة الجزار لخلع الأمير يوسف بأن أرسل علياً على رأس فرقة عسكرية تابعة لولاية عكا إلى حاصبيا فاستولى عليها بسهولة. ومن هناك راح الأمير الشاب يعد العدة لمهاجمة دير القمر. فاتفق لهذه الغاية مع قريبه الأمير محمد شهاب أمير راشيا[1] الذي بعث له برجاله للمشاركة بالقتال إلى جانبه. ولسوء حظه قام مماليك الجزار بثورة ضده ودبت الفوضى في الولاية.

أما الأمير يوسف فقد أعلن التعبئة العامة في إمارته ونظم قواته على الشكل التالي:

- لحماية مداخل الشوف: الأمير بشير قاسم عمر يرافقه الشيخ قاسم جنبلاط ورجالهما.

- لقتال الأمير علي في البقاع: رجال الإمارة بقيادة الأميرين، حسن قاسم عمر وحيدر أحمد.

- مماليك الجزار الثائرون ضد مولاهم والملتجئون إلى كنف الأمير يوسف وكانوا بقيادة سليمان باشا.

- الأمير جهجاه الحرفوش متسلم بعلبك ورجاله.

- القيادة العامة لهذه القوات أعطيت إلى الأميرين حسن قاسم عمر وحيدر أحمد.

توجهت قوات الأمير يوسف من الشوف نحو البقاع وعسكرت في قب الياس حيث وافتها قوات الأمير جهجاه الحرفوش. أما قوات الأمير علي فقد توجهت نحو البقاع، وعندما دخلته أبلغ الأمير عن عددها الكبير وجهوزيتها للقتال، فعاد إلى نبع الفالوج القريب من بلدة كامد اللوز وعسكر هناك. قرر الأميران حسن عمر وحيدر أحمد مهاجمته، فأدركوه في وادي أبو عباد، وأسفرت المعركة عن انتصار قوات الأمير يوسف وفرار قوات خصمه. ولسوء حظ الأمير علي، ثار مماليك الجزار على سيدهم، الذي كان ينوي القضاء على قادتهم بسبب دخول أحدهم على حريمه

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤٢.
- الشدياق، ج٢، ص٦٩.

أثناء غيابه للقيام بفريضة الحج، فانفرط عقد الفرقة العسكرية التي كانت معه في حاصبيا، والتحق أفرادها بزملائهم في صيدا وانضموا إلى الثائرين. وجرت المراسلات بين المماليك الثائرين والأمير يوسف الذي سارع، أو تسرّع، في الانضمام إليهم. ذلك أن الجزار تمكن من حسم الموقف لصالحه بسرعة، إذ استنهض جنوده المخلصين وفاجأ الثائرين في عكا بانقضاضه عليهم ليلاً وفرّق صفوفهم(١).

كانت أولى بوادر الأمير يوسف العدائية ضد الجزار أنه أوى في عاصمته دير القمر أحد مماليك الجزار الفارين من أمامه، سليمان باشا، فكانت ردة فعل أحمد باشا عنيفة، إذ ما أن قضى على ثورة هؤلاء، حتى سارع إلى الانتقام من المتعاونين معهم، بدءاً بالأمير يوسف، فأرسل فرقة عسكرية جديدة إلى الأمير علي طالباً إليه الإسراع في احتلال البقاع. وكانت معركة طاحنة بين الفريقين في قب الياس امتدت إلى خربة روحا ونهر الحاصباني، انتصر فيها الأمير يوسف أولاً. وعندما وصلت تعزيزات الجزار وقعت المعركة التالية في جب جنين، حيث انكسرت قوات الأمير يوسف وسقط منها عدد كبير من القتلى والباقي فر إلى الشوف، ومن ضمنهم الأميران حسن وحيدر والأمراء أبي اللمع وسليمان باشا.

لم يعترف الأمير يوسف بالهزيمة، فأعاد تنظيم قواته مع مماليك سليمان باشا ورجال الشوف، وعين أخاه الأمير حيدر قائداً لها، فانتقل هذا الأخير مع جيشه إلى عين داره، ومنها إلى قب الياس، وكان ذلك في ١٧ آب ١٧٨٨، فاشتبك مع قوات الأمير علي في معركة قاسية انتهت بهزيمة كبيرة منكرة لقوات الأمير حيدر مع عدد كبير من القتلى. وعاد الأمير حيدر وسليمان باشا وباقي الجيش إلى دير القمر.

في الوقت نفسه كان الأمير يوسف قد أرسل قوة إلى جزين بقيادة الأمير بشير قاسم يعاونه الشيخ قاسم جنبلاط لسد منافذ الشوف من تلك الناحية، فجابهتها قوة من عند الجزار كانت وقد وصلت إلى

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤٢-١٤٣.
- الشدياق، ج٢، ص٦٩-٧٠.

جباع، وانتهت المجابهة بهزيمة قوات الإمارة.

إلى جانب كل هذه الهزائم أتى موت الشيخ كليب نكد، حليف الأمير الوفي، في ٢١ آب ١٧٨٨ ليزيد الطين بلة. وبذلك أصبح الأمير يوسف يائساً من وضعيه الداخلي والخارجي ومستعداً للتخلي من جديد عن الإمارة[١].

كل هذه الأمور مجتمعة من استشراء الحالة السلطوية في الإمارة، والمواهب الجمة التي كان يتحلى بها أحمد باشا الجزار لخلق الفتن، وحتى الهزائم المتلاحقة لقواته، أدت إلى الشرذمة والضعف، فعم التململ الإمارة وبدأ الأعيان يتطلعون إلى أمير جديد ينقذهم من تلك الأجواء القاسية. وهكذا برز اسم الأمير بشير قاسم الذي سيعرف لاحقاً بالأمير بشير الثاني الكبير.

سرّح الأمير يوسف المماليك الموجودين لديه، وأرسل عائلته للسكن في كنف الأمراء اللمعيين، لتكون في مأمن من غدرات الزمن. ثم جمع أعيان البلاد وأنبأهم بقراره التنحي عن الحكم، تاركاً لهم حرية اختيار خليفته، فاختاروا الأمير بشير ابن الأمير قاسم عمر شهاب، في أيلول السنة ١٧٨٨. ذهب الأمير بشير المذكور إلى عكا حيث نال من يد الجزار خلعة إمارة الشوف، ثم عاد إلى دير القمر مصحوباً من الأرناؤوط والمغاربة، كان قد زوده بها أحمد باشا لملاحقة الأمير يوسف وطرده من البلاد. وكان يوسف قد ترك دير القمر إلى بلاد جبيل، ومنها إلى جبة بشري. وبالفعل سار الأمير بشير من الدير إلى وطا الجوز، ومنها إلى العاقورة، على رأس قوة من رجال البلاد والأرناؤوط ومغاربة الجزار. عندما علم الأمير يوسف بهذه المطاردة الظالمة جمع أعيان الجبة والحمادية وطلب منهم مساندته، فتكوكب حوله عدد كبير منهم إلى جانب قواته واتجه بهم إلى وادي الميحان «وكان مكان صعب المسلك لم تجوزه الخيل إلاّ على الطريق فقط»[٢].

(١) الشدياق، ج٢، ص٧١.
- الشهابي، تاريخ الجزار، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤٨.
الشدياق، ج٢، ص٧٣.

«وربطوا على عسكر الجزار في أول تشرين الثاني» وكان الأمير بشير يجهل ذلك، لذلك وقع في هذا الكمين فقتل من عسكره عدد كبير جداً وهرب الباقي. لكن الأمير بشير بمساعدة الأغاوات، تمكن من إعادة الفارين إلى ساحة القتال والسيطرة التامة على المعركة، وألحق بقوات الأمير يوسف هزيمة ساحقة. بعدها فر الأمير يوسف إلى جبة بشري، ووصل الأمير بشير إلى لحفد «واستقام هناك ينتظر العسكر الذي كان طلبه من الجزار. فوجه له ألف خيال على ساحل البحر. وفي ١٥ تشرين الثاني وصل عسكر الخيل إلى البترون»[1].

فرّ الأمير يوسف من وجه الأمير بشير إلى إهدن، ومنها إلى بلاد بعلبك، ثم إلى الزبداني قرب دمشق، وبعدها استقر، بمعرفة وحماية متسلّم الشام ابراهيم باشا، في قرية منين شرقي الشام، وأقام هناك ثمانية أشهر. في شهر أيار السنة ١٧٨٩، عاد الأمير يوسف إلى حكم بلاد جبيل، بموافقة ابراهيم باشا. ولما علم الجزار بذلك أمر الأمير بشير أن يسير إليه. وحين بلغ الأمير يوسف حضور عسكر الجزار رجع نواحي الشام، ومنها إلى حوران «وأرسل عرض حال إلى الجزار يطلب منه الأمان وأنه يحضر إلى عكا» فوافق على الطلب، فذهب الأمير يوسف إلى عكا ودخل إلى الجزار واضعاً في رقبته محرمة علامة الاستلام المطلق، فطيب خاطره وأعطاه الأمان وبقي عنده خمسة أشهر بكل احترام. بعدها طلب الجزار منه أن يأتي بالشيخ غندور مدبره إلى عكا كي يبقيه عنده رهينة لأجل إيراد المال الذي تعهد به الأمير في حال أنعم عليه بخلعه الإمارة وكان عبارة عن ١٢٠٠ كيس على سنة كاملة.

عرض الأمير يوسف على الجزار أن يرجعه حاكماً على الشوف، على أن يقدم جزية سنوية قيمتها ٦٠٠ ألف غرش. أعجب الجزار بالاقتراح، فعدا عن المردود المادي كانت مصلحة الباشا تقضي بأن يمتلك بين يديه مرشحاً حاضراً دائماً كوسيلة لإخضاع الحاكم الجديد.

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ص١٤٨.

في بـــدايـــة ١٧٩٠، عـــلـــم الأمير بشير بالمساومات التي كانت تجري في عكا، فأسرع بنفسه إلى المزاد هناك وعرض على الباشا أن يدفع له في السنة الأولى ضعفي ما يقترحه الأمير يوسف، مشترطاً هذه المرة أن يشنق الأمير يوسف مع مدبره غندور الخوري.

عـاد الأمير بشير إلى الشـوف فـألـقـى القبض على كل مناصري الأمير يوسف، أو الـذيـن يميـلـون إلـيـه، فـحصـلت بـلـبـلـة واضطرابات في البلاد أخافت الأمير بشير من أن تنقلب عليه، فتدخل بسرعة وحزم وأرسـل بـعض الأمراء الشهابيين والأعيان إلى عكا يشكون بأن هذه الاضطرابات هي مـن صـنـع الأمير يـوسـف ومـدبـره غـنـدور الخوري، المستـفـيـديـن مـن حسـن ضـيـافـة «مولانا الباشا». فأمر الجزار بشنق المدبّر غـنـدور الخوري، وبعـده الأمير يـوسـف ولم يكن له من العمر سوى أربعين سنة.

في عكا أسدل الستار على الأمير يوسف الذي أهرق دماء أخويه، وأدخل الباشاوات الأتـراك في «تضاعيف السياسة اللبنانية. وساعد أكثر من كل أسلافه على الفساد السياسي لشعبه». أما الأمير بشير قاسم فقد عبر إلى حكم الإمارة على جثة ابن عمه المعلقة في عـكـا، مـتـبـعـاً أسـالـيـبـه عـيـنـهـا للمحافظة على سلطته.

القسم الثاني

الأمير بشير الثاني الكبير

يحكم لبنان ويقود الإمارة

إلى حتفها

(١٧٨٨ - ١٨٤٢)

الفصل السادس

- الإمارة الشهابية تترنح تحت ضربات أحمد باشا الجزار.
- وصول الأمير بشير قاسم إلى الحكم
(١٧٨٨-١٨٠٤)

١ - أحمد الجزار يبتزّ الإمارة (١٧٧٠ - ١٨٠٤)

لن يكون في وسع أي مؤرّخ أن يحيط بموضوع إمارتي يوسف وبشير الثاني الشهابيين من دون تكوين فكرة، ولو عامة، عن أحمد باشا الجزار الذي كان عنصراً محركاً لأهم أحداث الإمارة في عهدي الأميرين.

كان أحمد باشا الجزار نصرانياً بالولادة، من بلاد البوسنة في يوغوسلافيا السابقة، في السادسة عشرة من عمره، نجا هارباً إلى الأستانة من انتقام أقاربه، بعدما اغتصب زوجة أخيه، لا يملك من حطام الدنيا سوى لباسه الرث وخداعه وذكائه اللامع وساديته القذرة. وفي حيرة وضياع باع نفسه إلى نخاس يهودي، كان يتاجر برقيق القوقاز، بعدها ظهر في الديار المصرية في خدمة مماليك أحد بكاوات مصر، الذي قتل لاحقاً من قبل البدو. جمع أحمد كوكبة من أترابه وراح ينتقم بقتل من تقع عليه يده من البدو، وقد استدرج بالحيلة مرة أكثر من ٧٠ بدوياً، من ضمنهم بعض مشايخهم، وذبحهم جميعاً. وبعد كل عملية قتل كان يهتف «ضحية أخرى ثأراً لدم سيدي عبد الله بك»[1]. هذه الأعمال الإجرامية والسادية، كانت تلاقي هوى لدى المماليك. فأمنوا للفتى أحمد الشهرة الواسعة في مصر وأعطوه لقب «جزار». وانتهى أمره بعدئذٍ إلى علي بك الكبير في القاهرة، وكان

(١) بازيلي، ص٧٨-٧٩.

حاكماً لمصر، فعينه جلاداً، بعد أن قدم له رؤوس أربعة من مشايخ البدو المكروهين منه أشد الكره. وقد أظهر أحمد الكثير من التفنن في إنفاذ مهمته والرغبة في القيام بها، فاستحق لقبه عن حق، وكان شديد الافتخار بهذا اللقب. بالغ الحرص على أن يكون جديراً به، وقد كان به جديراً. وبواسطة أحمد الجزار هذا، تخلص علي بك الكبير، ليس من أخصامه وحسب، بل ومن مقربيه الخطرين أو خدمه الأمناء، الذين ربما شكلوا مصدر إزعاج له بقلة أدبهم. وكمكافأة ثانية لخدماته أعطي أحمد، إضافة إلى لقب الجزار، لقب «بك».

اعتذر الجزار من علي بك رافضاً قتل صالح بك، ساعد علي بك الكبير ومساعده على تسلم السلطة في مصر، وحجته إنه كان قد تآخى خلال إقامته في مصر مع صالح بك، ولهذا فهو لن يغدر به الآن. وقد تبين أن الجزار لم يخف الأمر عن صالح بك هذا، بل إنه فاتحه بكل ما كان قد حصل.

وتقول تقارير تلك الأيام إن علي بك الكبير قرّر التخلّص من الجزار وصالح معاً، فاختار محمد أبي الذهب، وكلّفه بمهمة التخلّص منهما. فدعاهما أبو الذهب إلى نزهة على ضفاف النيل من ناحية «الأهرامات»، وهناك اصطنع خلافاً فورياً وقتل صالح بك، الذي لم يكن يشك بأبي الذهب، لذلك لم يصطحب معه مماليكه. رأى الجزار ما حصل وقد وصل متأخراً لإنقاذ صالح بك. لم يتجرأ أبو الذهب على مهاجمة الجزار الذي كان مسلحاً، فاستقبله بحفاوة، وجلسا على السجادة وأخذ يفتخر ببولاد سيفه الدمشقي ماسحاً إياه من الدم وأراد أن يقارنه بسيف الجزار في حيلة لتجريده من السلاح، لكن الجزار أجابه ببرودة بأنه لن «يسحب سيفه من غمده إلاّ لكي يقطع به رأساً لأحدهم»[1]. بهذا انتهى اللقاء وامتطى الجزار حصانه في اتجاه القاهرة، وهناك تنكّر سريعاً في ثياب رجل مغربي وأبحر سراً إلى اسطنبول ناجياً من انتقام

(١) باز، رستم، مذكرات رستم باز، بيروت الجامعة اللبنانية ١٩٦٨، طبعة ثانية، ص٣.

علي بك. لم يجد في عاصمة السلطنة ميداناً مناسباً له، ولم يرَ امكانية أن يفتح لنفسه طريقاً في جمهرة سعاة العاصمة، فاتجه نحو دمشق فتقبله واليها في خدمته، وكانت سوريا أصبحت منطقة مناسبة لمثل هؤلاء الناس.

وبعد مدّة من الزمن، في السنة ١٧٧٠، «جاء للأمير يوسف من علي بك الكبير رسالة... يقول فيها إنه ضمن ولايتك موجود رجل يدعى «أحمد آغا الجزار»، فلك على قطع رأسه عشرة آلاف قرش... ». وقد تبين للأمير يوسف أن هذا الآغا الغريب كان ينام «... قدام دكان خليل بو سابا...» في سوق دير القمر، عاصمة الإمارة. ودكان بو سابا هذه كانت تقع بالقرب من بناء فيه مخازن الحرير والصاغة آنذاك ولا يزال البناء قائماً إلى يومنا هذه وهو في أكثره ملك راهبات مار يوسف الظهور، وقد جعلن من فسحة الدار ملعباً لتلميذاتهن. أما دكان خليل بو سابا فلا تزال في مقرها في سوق الدير، ولا يزال فيها أحد حفدة خليل المذكور محافظاً على مهنة جده الأعلى من بيع الخضر والسمانة... والله أعلم!

ولدى التفتيش عن أحمد آغا المذكور، وجده رجال الأمير يوسف في إحدى مقاهي الدير يحتسي الخمرة. نقل إلى دار الأمير، ولما مثل أمامه برع في إجاباته عن الأسئلة التي طرحها عليه، فاستبقاه الأمير يوسف في خدمته نظراً لما رآه فيه من ذكاء وفطنة وشجاعة، ثم عينه رئيساً على إصطبله.

وفي السنة ١٧٧٠، عندما بدأ الحديث عن معركة بيروت ضد الأسطول الروسي، وقع الاختيار على أحمد الجزار للمساهمة في الدفاع عنها، فكلفه الأمير يوسف بهذه المهمة.

وما أن تولاها حتى بدأ بتحصين جدرانها وتجديد أبراجها التي هدمها الروس، ولهذا فرض الجزية على الأهالي وهدم قصور الأمراء ليستعملها في تحصيناته. ثم منع أهالي الجبل من الظهور في المدينة وأباح لمغاربته القيام بغارات على الضواحي، فكانوا ينهبون ويذبحون الناس من دون شفقة.

تنادى المجرمون والأشرار والمشردون من كل الأنحاء وتراكضوا نحو الجزار ليدخلهم في خدمته، فأدخلهم، فتضاعف رجاله من

يوم إلى آخر. بعد ذلك منعَ الأمير يوسف من الإشتاء في بيروت جرياً على عادته، عندها فقط «أدرك الأمير غلطته إنما بعد فوات الأوان...». أرسل الأمير يوسف الشكاوى العديدة بحق الجزار إلى الباشا الوالي، فلم يلق أذاناً صاغية. فجرد قوة عسكرية كبيرة لمحاربته ورده إلى الطاعة، لكنه لم يتمكن من ذلك، مما دفعه إلى المصالحة مع ظاهر العمر حاكم صفد والجليل، مع العلم أن النزاعات العائلية بين الأمراء الشهابيين كانت سبباً للحروب ولتدخل والي الشام ووالي صيدا في أمور الإمارة.

التقى الأمير يوسف مع الشيخ ظاهر العمر في رأس العين قرب صور، وهناك عقدا تحالفاً ضد الباشاوات واتفاقاً يقضي بالتوجه إلى الأميرال الروسي بطلب لتحرير مدينة بيروت من الجزار وإعادتها إلى الأمير. كان هذا في السنة ١٧٧٢. ظهر الأسطول الروسي في ربيع ١٧٧٣ في الوقت نفسه التي كانت قوات الأمير يوسف تحاصر المدينة من ناحية اليابسة، وراح يقصف بيروت من البحر. استمر الحصار أربعة أشهر، دافع الجزار مع رجاله عن المدينة بشراسة وبيأس. ونتيجة لقصف الأسطول، والإنزال على الشاطئ، دمرت كل بطاريات المدفعية واحتلت أبراج المدينة. وفي النهاية اضطر المحاصرون إلى أن يأكلوا النفايات ولحوم القطط والكلاب ووقعت المجاعة بين الأهالي. وفي ٢٢ أيلول قَبِلَ الجزار ترك بيروت على متن سفينة روسية. وفي ٢٩ منه وقّعت الشروط التالية لتسليم المدينة: تنتقل بيروت إلى يد الأمير يوسف، وتدخل حامية الجزار تحت إمرة ظاهر العمر. دخل الروس المدينة التي سلمت إلى قوات الأمير يوسف في ٣٠ أيلول، أي بعد يوم واحد من الدخول، وكان الجزار لا يثق إطلاقاً بالأمير يوسف. تم كل هذا لقاء مبلغ وقدره ٣٠٠ ألف قرش دفعه الأمير إلى الأميرال الروسي. وغرّم أهالي المدينة بقسم منه. عاد الأمراء الشهابيون إلى بيروت وولّى الأمير يوسف عليها حاكماً من أهلها وعاد بدوره إلى دير القمر.

بقي الجزار في عكا ضيفاً على الشيخ ظاهر العمر، ولتعطشه إلى السلطة والمغامرات هرب إلى اسطنبول. وهناك وبطريقة مجهولة

حصل من السلطان عبد الحميد الأول على لقب باشا في «كاراخيسار»[1]. وبعد حملة قبودان باشا ضد ظاهر العمر والانتصار عليه، أسرع الباب العالي بتعيين أحمد باشا الجزار السنة ١٧٧٦ والياً على صيدا وتوكيله إدارة الإمارة الشوفية وجبل عامل وكل «البلاد التي كانت تحت سلطة الشيخ ظاهر العمر»[2].

إن ظهور أحمد باشا الجزار والياً على صيدا، كان ضربة موجعة لنفوذ الأمير يوسف وللعائلة الشهابية الحاكمة في الشوف ووادي التيم، إذ أضعف الأمراء والإمارة حتى انعدمت سلطتهم تقريباً طيلة حكم الجزار إلى حين وفاته ١٨٠٤.

لقد كانت شهية أحمد باشا إلى المال كبيرة وكبيرة جداً، لذلك راح يفرض الضرائب على الأمير يوسف، الذي بدوره كان يطلب دفعها من أموال بيت جنبلاط الأثرياء أموالاً نقدية، والأوسع أملاكاً عقارية ومن الأهالي الفلاحين، مما دفع الشيخ قاسم جنبلاط وولده الشيخ بشير إلى محاولة إيجاد منافس للأمير يوسف من العائلة الشهابية الحاكمة هو الأمير بشير قاسم شهاب الذي لم يكن يملك من حطام الدنيا سوى حمار وجمل وعبدة تسمّى مرجانة.

لقد برع الجزار في حكمه إذ أوهم السلطنة عبر تقارير بأن ثورة وشيكة ستحصل في الجبل، كما راح يثير القلاقل والاضطرابات داخل الإمارة، من أجل التأكيد على مضمون تقاريره. وكان في كل الأحوال يخلق الظروف التي تخدمه في ابتزاز الأموال من الأميرين يوسف، كما ورد سابقاً، وبشير كما سنرى لاحقاً. ويبدو أن الأموال التي قبضها الجزار من الإمارة لم تشبع نهمه، فقد نسب إليه قول شهير:

«عندي ثلاث مقاطعات، صفد ونابلس ولبنان. فصفد تعطيني ذهباً وفضة ونابلس بارودا ورصاصاً ولبنان كلاماً فارغاً وخداعاً...».

(١) بازيلي، ص٨٩.

(٢) خاطر، لحد، بين أمير وراهب، منشورات جامعة الكسليك، ص٢٢.

والجدير ذكره أن السلطنة كانت ترغب في إضعاف الإمارة على مبدأ «فرّق تسد»، وأنسباء الأمير يوسف أو الأمير بشير لاحقاً، الراغبون في كرسي الإمارة كثر. والأحزاب السياسية، من جنبلاطية ويزبكية ونكدية، في وضع المتربص من أجل تصفية الحسابات وتسجيل النقاط وتحقيق المكاسب. وكان قدر الإمارة اللبنانية خلال هذه الحقبة صراعات إقليمية ودولية كبرى، وقعت خلالها في حقل تجاذب هائج لا يعرف الاستقرار، «كما كانت الحال السلطوية التي انعكست مستشرية في الأسرة الشهابية إلى حد غير معقول، وكان للحزبيات من جهة، ولتدخل الولاة من جهة ثانية، فعل تغذية تلك الحال السلطوية التي انعكست صراعات مستمرة استغلها أحمد باشا الجزار كمسرح لمناوراته وأطماعه...».

لقد أعدم الجزار الأمير يوسف شنقاً، ويقال خنقاً، في عكا، لكنه تنبه إلى تسرعه باعتبار أن إعدام الأمير يوسف يفقده وسيلة ابتزاز في الإمارة. قُتل الأمير يوسف الند الأقوى للأمير بشير قاسم الذي سيمشي هو أيضاً على طريق جلجلته مع أحمد باشا الجزار حتى تاريخ وفاة الأخير السنة ١٨٠٤.

وصل الأمير بشير قاسم إلى الحكم، كما سنرى في ما بعد، وسقطت الإمارة في قبضة التحالف الجنبلاطي اليزبكي والجزار.

لقد جعل الجزار الأمير بشير ألعوبة بين يديه، يعزله ساعة يشاء ويعيده ساعة يشاء إلى الحكم. ويرافق هذا العزل وتلك الإعادة، ابتزاز جشعٌ لأموال اللبنانيين التي استنفدت آخر دراهمهم كضرائب لأحمد باشا.

كانت مناورات الأمير بشير والجزار تتقاطع ضمن مصلحة واحدة، أو تفترقا عند افتراق المصالح. إن العزل المستمر للأمراء اللبنانيين ثم إعادة تعيينهم برفقة جيش أجنبي غير لبناني، جعل الإمارة اللبنانية أخصب بلدان الشرق الأوسط والأدنى، تربة للتدخل الأجنبي منذ مطلع القرن التاسع عشر. لقد تدخل الجزار في شؤون الإمارة الداخلية مذكّياً الصراع، بغية الابتزاز المالي والسياسي. إلاّ أنه لا بد من أن نعترف «بأن تدخل الجزار هذا لم يكن ليبلغ درجة الخطورة لولا طغيان شهوة السلطة والحكم لدى الأمراء الشهابيين من جهة

ولولا انسياق بعض كبار «المقاطعجية» إلى حلبة الصراع بغية إحراز بعض المكاسب السياسية من جهة ثانية...».

٢ - وصول الأمير بشير قاسم إلى حكم الإمارة (١٧٩٠)

٢١ - من هو الأمير بشير قاسم؟

كان الأمير قاسم بن عمر بن حيدر شهاب، ابن عم الأمير يوسف. مات أبوه وهو رضيع. ربي في كنف الأمير ملحم إلى أن شب فزوّجه ابنته «صفا الود» التي لم تلبث أن ماتت من دون أن ترزق ولداً، ثم زوّجه عمه الأمير منصور ابنته المدعوة أسماء والملقبة بـ«سما الشرف» وأقطعه غزير.

نزح الأمير قاسم إلى هذه البلدة السنة ١٧٥٨، مستاءً من عميه الأميرين منصور وأحمد بعدما تجاهلا وصية أخيهما الأمير ملحم بتوليته على الإمارة، واستحوذا عليها بدلاً منه. وفي غزير تنصّر[1] الأمير قاسم السنة ١٧٦٧ مع زوجته الست أسما وولديه حسن وبشير في كنيسة سيدة الأبراج في البلدة نفسها، على يد المطران يوسف إسطفان الغوسطاوي الذي أصبح بطريركاً في ما بعد. وفي ١٨ نيسان توفي الأمير قاسم ودفن في قبة غزير التي كانت مدفناً للأمراء العسافيين التركمان، تاركاً ولديه المذكورين في عهدة الوصي الشيخ «بو منصور سلوم الدحداح». غير أن هذا الأخير لم يلبث أن استعفى عن متابعة مهمته بعد سنة، مستاءً من استدعاء جد الطفلين لأمهما له إلى دير القمر ليؤدي له الحساب عن الدخل والمصروف. إثر ذلك قام الأمير منصور بتعيين الشيخ بطرس نوفل الخازن وصياً على الطفلين. أما والدتهما فتزوجت مرة ثانية بعد وفاة زوجها بقليل، ابن عمها الأمير سيد أحمد، وانتقلت إلى منزله في حدث بيروت تاركةً طفليها في عهدة مربيتهما «مرحبا البشعلاني» والخادمة «العبدة مرجانة».

توالت الأيام وعندما أصبح الأمير حسن في السادسة عشر، من عمره، اقتسم مع أخيه الأمير بشير إرث والده، ثم انتقل إلى دير القمر حيث عطف عليه الأمير يوسف وكلّفه

(١) أي أصبح نصرانياً بعدما تلقى رتبة المعمودية... هكذا...

بعمل يلائم عمره، فعاش في كنف قصر الإمارة ضامناً راحته المادية والمعنوية.

أما الأمير بشير فقد كانت حصته من والده كما يقول هو نفسه، «عودة في برج البراجنة وأخرى في بشامون وعودتين في بتدين... فأقيم فيها زمناً اتلهى بالصيد... ولا أمكث عند والدتي في الحدث إلاّ يوماً أو يومين، نفوراً من ضيق عين زوجها... ذهبت إلى دير سير وصرفت فيه زمناً كله لذة ومتعة... حتى خطر لي أن أذهب إلى دير القمر... وكنت قد صرت في التاسعة عشرة من العمر، علّي أحصل فيها على وظيفة أستعين بها في شؤون معيشتي في قصر عمي الأمير يوسف، على مثال أخي حسن»[1].

وبالفعل حزم بشير أمتعته على ظهر جمل كان يملكه وأركب عليه مربيته مرحبا البشعلاني وخادمته مرجانة وسار وراءه «ماشيا» إلى دير القمر حيث لم يستطع استئجار منزل، نظراً لضيق ذات اليد، فانتقل مع الركب إلى بتدين وأقام في منزل متواضع في إحدى عوديته، التي كان قد أخلاه له شريكه الشيخ أبو علي، ثم بنى بنفسه غرفة صغيرة ملاصقة للمنزل، أعطاها للمربية والخادمة، والمنزل المذكور كان موقعه حيث الكنيسة اليوم.

لم يطل الوقت حتى جاء بشير إلى قصر نسيبه الأمير يوسف في دير القمر وواجه رب القصر طالباً منه أن يعطف عليه بأية وظيفة تليق به، فوعده الأمير يوسف خيراً، وقد أتى الخير واستدعي البشير إلى الدير، فأنعم عليه الأمير يوسف بجواد داكن اللون يدعى «بطاشا» لاستعماله في تنقلاته ثم انتظم في سلك «خيالة المير». وكثيراً ما كان الأمير يوسف يكلفه بقيادة العديد من الحملات القمعية ضد فلاحي الجبل... والعسكرية ضد عسكر والي عكا أحمد باشا الجزار[2].

كان الأمير بشير نجباً ذكياً، محباً للمغامرات، وكان يعلم العلم اليقين أن وصية الأمير ملحم شهاب، بتولية الإمارة إلى والده الأمير قاسم، قد تجاهلها عما والده منصور وأحمد واستحوذا عليها. وإلى جانب الذكاء والنجابة، كان الأمير بشير باسلاً

(١) خاطر، لحد، بين أمير وراهب، منشورات جامعة الروح القدس الكسليك، ص١٨-١٩. - والعودة كناية عن بستان فيه الكثير من الأشجار المثمرة.

(٢) خاطر، بين أمير وراهب، ص٢٠.

شجاعاً، كريم الخلق، جميل الطلعة، أشقر الوجه، متوسط القامة، طموحاً «يعرف من أين تؤكل الكتف». لقد طمح بالإمارة، لكن طموحه هذا، كان ينقصه المال ثم المال، ثم المال؛ رغم أن المال لم يكن صعب المنال على أبناء «الحسب والنسب في تلك الأيام الخوالي». لقد أتته الثروة على أسهل ما يكون... وعندما يبتسم الحظ فلا تسل. مع العلم أن زاد رحلة درب الإمارة كبير الكلفة.

٢٢ - الأمير بشير يقف أمام باب الإمارة:

كان للأمير يوسف خالاً اسمه بشير شهاب وكان حاكماً على حاصبيا في وادي التيم، وقد قتله الأمير يوسف بسبب محاولاته الدؤوبة في مزاحمته على حكم الجبل. وقد كان خاله هذا ثرياً للغاية، وبعد موته اختلف أشقاؤه مع أرملته الست شمس، ابنة الأمير محمد ملحم شقيق الأمير يوسف، على اقتسام الإرث، فرفعوا شكواهم إلى أمير البلاد لفض النزاع القائم بين الورثة، خاصة وأن الأمير المتوفي غادر الدنيا من دون عقب يرثه وأن أقرب الناس إليه كان الأمير يوسف نفسه. كان بود يوسف إرسال الشيخ جرجس باز في دير القمر مستشاره المقرّب، لكن مدبره الشيخ غندور السعد، ابن عمة جرجس باز وقف في وجه هذا الرأي لأن «التركة كبيرة... لا بد من قيل وقال ولا أرضى لابن عمتي، يمس بشيء يوجب تكدير خاطرك يا مولانا وسعادتنا...»، ثم اقترح له اسم الأمير بشير قاسم للذهاب إلى حاصبيا لتقييم الإرث وهكذا حصل.

ذهب البشير إلى تلك الناحية وعندما بدأ بتأدية مهمته التقى الأميرة شمس، أرملة المتوفي، واقفة على باب إحدى غرف قصرها، فبادرته قائلة:

«... يا بشير ألا تضبطني مع التركة وتبقي لي اسم بشير؟ فقال لها... استحي يا حرمة...». ويقال إنها كانت جميلة الخلقة والأخلاق، فتية تحب الحياة. واقعية في تصرفاتها... كيف وبشير لا يتعدى عمره الواحدة والعشرين، جميل المحيى، يليق بأن يكون لها زوجاً وهو من الأمراء الشهابيين(١).

(١) باز، ص٥.



L'ÉMIR BÉCHIR II LE GRAND
(Musée Nat. Beyrouth)
(ISMAÏL, Doc., t. 3, p. 176)
الأمير بشير الثاني الكبير

لقد فتح هذا اللقاء «الصدفة»... والله أعلم، للأمير بشير باب الثروة حينئذ وباب الإمارة في ما بعد. عاد الأمير إلى دير القمر بعدما نفذ مهمته الموكولة إليه، لكن قلبه بقي رابضاً في حاصبيا بين يدي تلك الأرملة اللعوب الذكية.

لم يطل الوقت حتى عقد الامير قرانه على الست شمس التي كانت تكبره سناً. وأتته الثروة من حيث لا يدري وقد أنجب منها أبناءه الذكور الثلاثة: قاسم وخليل وأمين. وبعد وفاتها تزوج الأمير، جارية شركسية اسمها حسن جهان، كانت قد أرسلت له كهدية من اسطنبول عاصمة السلطنة وقد أنجب منها ابنتين هما: سعدى وسعود. ولشغفه بسعدى أصبح يكنى «بأبي سعدى»[1].

٢٣ - الأمير بشير يلج بابا الإمارة (١٧٨٨):

عندما توافرت الأموال للأمير الشاب بعد زواجه، سارع إلى شراء بتدين ومعاصر بتدين والجية وسواها من العقارات، فأصبح بين ليلة وأخرى في مصاف الأعيان، وراح الناس وأعيان الجبل وعلى رأسهم الشيخان بشير جنبلاط وعبد السلام العماد، ينظرون إليه كخليفة محتمل للأمير يوسف، الذي نقم اللبنانيون عليه بسبب مظالمه الكثيرة، مثل قتله الشيخ أبو شقرا، شيخ عقل الطائفة الدرزية، والشيخ أحمد دبوس مدبر الشيخ عبد السلام العماد، وسمله أعين العديد من أقاربه الشهابيين وسيطرته على أموالهم وعقاراتهم، ناهيك عن فرض الضرائب الباهظة والمتعددة، التي كان أحمد باشا الجزار يطلبها منه. ويقال إن الأمير يوسف اضطر إلى دفع نحو مليونين قرش إليه خلال خمس سنين، بينما كانت الأموال السلطانية المترتبة على الإمارة سنوياً لا تزيد على الأربعين ألف قرش. لقد فقد الأمير يوسف المزيد من شعبيته داخل الإمارة، خاصة عندما أتته الضربة القاصمة التي وجهها إليه أحمد باشا الجزار السنة ١٧٨٨، عندما فاجأه بطلب دفع المال المتأخر عليه فوراً[2].

(١) الشهابي، الغرر، ص١٥٠.

(٢) خاطر، بين أمير وراهب، ص٢١-٢٢.

وكان الأمير بشير، كثيراً ما يزور الشيخ بشير جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد، بعيداً عن أعين الأمير يوسف، وفي هذه الأثناء تآمر معهما سراً على خلع الأمير عندما تحين الفرصة السانحة لذلك. وسرعان ما حانت الفرصة عندما حشر الجزار الأمير يوسف في زاوية مطالبه العسكرية والمالية.

٢٤ - الأمير بشير قاسم، يحكم جبل لبنان (١٩٩٠):

عندما أصبح الأمير يوسف يائساً من وضعه الداخلي والخارجي ومستعداً للتخلي عن الحكم، كان الأمير بشير أفضل المهيئين لخلافته، رغم أنه على رأس القوة التي زجها الأمير يوسف في معركته الأخيرة ضد الجزار في جباع الحلاوة، فقد تيقن الأمير يوسف من ولاء نسيبه الشاب الذي بدأ حياته العملية على يديه.

في هذه الأثناء، مال خصوم الأمير يوسف، وهم من قادة الأسر المقاطعجية الدروز، إلى الأمير بشير ورأوا فيه خير منافس لخصمهم اللدود. وأخيراً في بداية ١٧٩١ طلب الجزار من الأمير يوسف إرسال أحد أولاده ليكون رهينة لديه لحين دفع المتوجب عليه من أموال الميرة، وبما أن أولاد الأمير يوسف كانوا صغاراً وقاصرين «عزم على إرسال الأمير بشير مكانه» بعدها أرسل عائلته إلى منطقة المتن وجمع الأعيان وشرح لهم حقيقة وضعه مع أحمد باشا الجزار، ثم طلب من الأمير بشير الاستعداد للذهاب إلى عكا قائلاً له:

«إنزل يا بني إلى عكا وعُدْ منها بخلعة الولاية وأنا سأكون نصيرك ريثما نرى ما يخبئه لنا المستقبل... فأجابه الأمير بشير فوراً... أنا تحت أمرك... بس بخاف إنزل إلى عكا إبنك وإرجع منه إبن الجزار... فضحك الأمير يوسف وقال له... على سلامتك يا إبني مهما فعلت، يأكلها السبع ولا يأكلها الضبع»[1].

وقبل أن يسافر الأمير بشير إلى عكا بهذه المأمورية من قبل الأمير يوسف أعلم حليفيه بشير جنبلاط وعبد السلام اللذين أصحباه

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٧٢.
- خاطر، ص٢٢.

بالعرائض والتواقيع والأختام ضد الأمير يوسف، كما زوده الشيخ بشير بمبلغ كبير من المال لرشوة الوالي. وهكذا نرى الأمير بشير قاسم قد امتلأت جعبته بالأموال، القسم الأكبر منها من الشيخ الجنبلاطي والباقي من الأمير يوسف. فاشترى قبل توجهه إلى عكا، كما ذكرنا ذلك سابقاً «بتدين، وهي كانت خلوة صغيرة مهجورة، وكذلك المعاصر وكل ما هو حول بتدين، عن يد فرنسيس باز من دير القمر...».

لدى وصول الأمير بشير إلى عكا، تقدم من واليها الجزار، عارضاً عليه الشكاوى والتظلم والمحاضر المتضمنة ألوفاً من التواقيع التي يسترحم أصحابها توجيه الولاية لعهدة حاملها. ثم قدم له الهدايا الفاخرة التي أمده بها الشيخ بشير جنبلاط. والأهم من كل هذا أن الأمير قدم للجزار خمسماية كيس «زيادة عما يدفعه الأمير يوسف وهو ثلاثة آلاف كيس...» بغية الحصول على خلعة الإمارة.

ورغم وثوق الأمير يوسف بالأمير بشير، فقد أرسل معه إلى عكا، أحد أخصائه المقربين جداً وهو فارس ناصيف كي يخبره عما سيحصل هناك. ولم يطل الوقت حتى أصبح فارس المذكور من أشد أنصار الأمير بشير.

نجح الأمير في هذه المهمة، بفضل الأموال التي دفعها للجزار، وأيضاً بفضل مساعدة «بيت السكروج» المقربين من الجزار والذين كانوا يبغضون الأمير يوسف ومدبره الشيخ غندور السعد، وكان فارس ناصيف يعلم ذلك.

لم يطل الوقت حتى صدر أمر الجزار «فخلع عليه خلعة الولاية على جبل لبنان» ثم جهزه بقوة من عسكر الأرناؤوط والهوارة وطلب منه أن يطرد الأمير يوسف وأسرته وأعوانه إلى خارج الإمارة ومصادرة أملاكه وأملاك رجاله، الشيء الذي يساعده في استقرار ولايته ويقضي على الحالة السلطوية التي كانت مستشرية داخل الإمارة «بعد أن علمته تجربته مع الأمير يوسف أن تلك الحال كانت أم المشاكل». غير أن الجزار كان لا يزال في مكانه... وما وقع فيه الأمير يوسف لن ينجو منه الأمير بشير.

عاد الأمير بشير من عكا مع مرتزقته ولما وصل إلى صيدا، أرسل من يقول للأمير

يوسف بترك دير القمر. ولما وصل إلى خان بعقلين، أتى من أخبره بأن الأمير يوسف رحل من الدير إلى غزير فطارده بشير بقساوة فهرب إلى اللقلوق ومنها إلى حوران.

٣ – الجزار يغتال الأمير يوسف خنقاً (١٧٩٠)

لم تكن قد مرت مدة طويلة على حكم الأمير بشير، حتى تمكّن الأمير يوسف من الذهاب إلى عكا مع مدبره الشيخ غندور السعد، ومقابلة الجزار الذي طلب أن يدفع له خمسماية كيس زيادة عما يدفعه حالياً الأمير بشير، فيصبح المبلغ أربعة آلاف كيس، عندها يعيده إلى حكم الإمارة. لكن مدبره الشيخ غندور قال للأمير يوسف سراً: «... لا تقبل تدفع... إنت بتزيد وإبن عمك بيزيد بتخربوا البلاد... يجب أن تصبر حتى نشوف المير بشير شو بدو يعمل... أنا ما بظن إنو بيقدر يقوم بها الحملة الثقيلة...». فاقتنع الأمير بذلك وطلب التريث. علمَ الأمير بشير بوجود الأمير يوسف في عكا، فخاف عاقبة هذا الوجود فذهب فوراً إلى هناك وقابل الجزار عارضاً عليه مبلغاً أكبر من الذي عرضه الأمير يوسف. وافق الوالي على العرض وأعاد له الولاية، مبقياً عنده في عكا، الأمير يوسف ومدبره الشيخ غندور.

معنى هذا أن الأمير بشير سيسلك الطريق التي سلكها سلفه، إذ سيكون عليه إرهاق الأهالي بالضرائب والتشدد في جمعها.

في هذه الأثناء كان الجزار عازماً على أداء فريضة الحج، فأمر بإبقاء الأمير يوسف ومدبره في عكا لحين عودته.

علم الأمير بشير بسفر الجزار، فأرسل كاخيته فارس ناصيف لمقابلته في المزاريب، نقطة تجمع الحجيج. فقابله وقدم له مئة ألف غرش كهدية، وتقريراً يفيده عن حركة التمرد، متهماً الأمير يوسف ومدبره بالوقوف وراء تلك الحركة بغية إعاقته عن جمع أموال الميرة المتوجبة للسلطنة. فما كان من الجزار إلاّ أن أرسل إلى نائبه في عكا، أمراً بإعدام الأمير يوسف ومدبره فوراً، وقد نفذ أمره. لكن الوالي تنبه إلى تسرعه، باعتبار أن إعدام يوسف يفقده أهم وسيلة ابتزاز في

الإمارة. وهكذا قضي على الأمير يوسف شهاب، الند الأقوى للأمير بشير قاسم، في إطار لعبة الفئات المتعارضة التي كانت تتفكك ثم تعيد جمع نفسها، وفي إطار الالتزامات المالية المسددة أو المستحيل سدادها والمجابهات الدموية.

كانت مناورات بشير والجزار تتقاطعان ضمن مصلحة واحدة أو تفترقان عند افتراق المصالح.

٤ - سياسة الأمير بشير في الحكم حتى وفاة الجزار (١٨٠٤)

كل الحوادث التي وقعت بين ١٧٨٨ و١٨٠٤، لم تحدّ من مشاكل الأمير بشير. فمن عادات أحمد باشا الجزار، ألا يترك أمراء الشوف في حال من الهدوء والاطمئنان في إمارتهم. فتاريخ الإمارة في تلك الحقبة، كان تاريخاً لحروب أهلية دائمة، بتحريض تارة من والي الشام وتارة من والي عكا. أما أدوات هذا الصراع فقد تمثلت، إما بأولاد الأمير يوسف أو ببعض الأمراء الشهابيين. ومفجّر هذا الصراع كان دائماً جباية الضرائب الباهظة والأموال المتوجبة عن الإمارة إلى الجزار والتشدد في جمعها، ما سيشيع النقمة على الحاكم في أوساط الإمارة.

كانت أولى الانتفاضات ضد الأمير بشير في بلدة رأس المتن، إحدى معاقل الأمراء اللمعيين. فبمناسبة مأتم أحدهم الأمير محمد، ولم تكن قد مرت السنة الأولى من ولاية بشير، اجتمع أعيان الإمارة هناك «وراحوا يتداولون في ما آلت إليه أوضاع الأهالي بسبب سياسة الأمير التعسفية. ثم قرروا التصدي للأمير وعزله عن الإمارة وطرده من البلاد. كان ذلك السنة ١٧٩١، واختاروا بديلاً عنه الأميرين الشهابيين حيدر ملحم وابن أخته قعدان. وتوحد موقف الأعيان ضد سياسة الأمير بشير في شكل لم يسبق له مثيل، وطردوا الجباة».(١)

---

(١) أبو صالح، التاريخ السياسي، ص١٥٩.
- الشهابي، الغرر، ص١٦١.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٢-٨٣.

وبعثوا إلى الجزار رسالة مفادها أنهم ليسوا ضد السلطنة أو الجزار، إنما هم ضد سياسة بشير... «لظلمه وإنهم لا يؤدون إلاّ المال الأميري القديم، ويلتمسون من الجزار أن ينعم بخلعة الولاية للأميرين حيدر ملحم وقعدان، لقاء ستة آلاف كيس تدفع له على مدى ست سنين.[(١)] وافق الجزار وتسلم الأميران الحكم في الشوف مكان الأمير في الأول من حزيران ١٧٩١[(٢)]. وصدقا في «إيراد المال الذي تعهدا به والمصاريف التي تكلفها على القتال. ووضع الجزار قيد الحجز بشيراً الثاني في صيدا وأخاه الأمير حسن في بيروت».[(٣)]

لم يمضِ وقت طويل حتى تحالف الأميران الجديدان مع أولاد الأمير يوسف، لكنهما عجزا عن جمع الأموال الأميرية وعن بسط سلطتهما، الأمر الذي أوجد حالاً من التململ لدى الأكثرية من الأعيان، فعادوا يطالبون الجزار بإعادة الأمير بشير إلى الحكم، فعاد بموافقة الجزار السنة ١٧٩٢، معززاً بفرقة عسكرية من جنود الوالي، وحصلت معارك دامية بين أنصار الاثنين وخاصة أولاد الأمير يوسف اللذين هزما في النهاية إلى جبيل.

ويبدو أن الأمير بشير لم يدفع للجزار الأموال الأميرية عن العامين ١٧٩٢ و١٧٩٣، فسارع هذا الأخير في بداية ١٧٩٤ إلى إعطاء أوامره لرئيس جنده المرابط في دير القمر باعتقال الأمير بشير وشقيقه حسن وحليفه الشيخ بشير جنبلاط وسوقهم إلى عكا. ثم أمر بتولية ولدي الأمير يوسف، الأول حسين على رأس إمارة الشوف والثاني سعد الدين على بلاد جبيل. أما «الأمير بشير واخوه حسن والشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف مدبر الأمير، فقد وصلوا إلى عكا ووضعهم الباشا تحت التيسيق» وكان ذلك العام ١٧٩٥[(٤)].

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٢-٨٣.
(٢) الشهابي، الغرر، ص١٦٨.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٨٦-١٨.
(٤) الشهابي، الغرر، ص١٧٧.

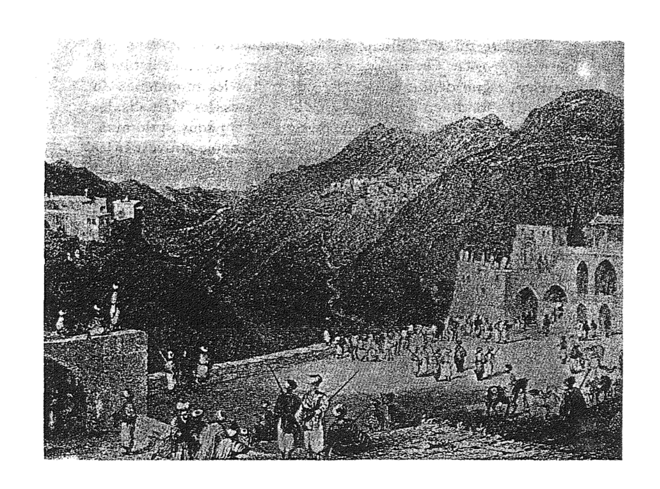
بيد أنه لم تمض سنة على تولية الأميرين حتى اضطربت الإمارة من جديد بسبب الانتقامات التي قام بها الشهابيان ضد أنصار الأمير بشير. ومن جديد كتب أكثر الأعيان إلى الجزار مطالبين بإعادة الولاية إلى بشير الثاني، فلبى الجزار هذا الطلب مقابل تعهد بشير بدفع ثمانماية ألف قرش على مدى ست عشرة سنة[1]. وبذلك عاد الأمير بشير في السنة نفسها إلى منصبه، ومعه أخوه حسن ومدبره الشيخ سلوم الدحداح والشيخ بشير جنبلاط، تاركاً لدى الجزار ولديه وزوجة الشيخ بشير جنبلاط وولده الأمير حسين، كرهائن.

قد يكون اختيار الجزار، أبناء الأمير يوسف أنداد الأمير بشير، بدلاً عن أبيهم، برهاناً واضحاً لأمرين:

- سياسة الجزار الابتزازية الموافق عليها، كما يبدو، من قبل الأستانة.
- الحال السلطوية الحادة التي كانت مستشرية في الأسرة الشهابية وسائر الأسر المقاطعجية في البلاد.

ما أن وصل الأمير بشير مع صحبه من عكا إلى دير القمر، وبيده خلعة الإمارة مكان ابني الأمير يوسف، حتى وقعت اضطرابات دامية انتهت بتمكن بشير من بسط سلطته على مجمل المناطق، ومن جباية الأموال وإرسالها فوراً إلى الجزار الذي أطلق الرهائن للحال. ثم انصرف الأمير إلى ملاحقة خصومه المنتشرين في الشوف وكسروان وبلاد جبيل (أولاد الأمير يوسف - الأمير قعدان وبيت بو نكد)، بدءاً بالنكديين الذين أُخذوا بالخدعة والحيلة وتم القضاء عليهم جميعاً في سرايا الأمير في دير القمر، وصادر بشير ممتلكاتهم وهدم بيوتهم، وكان ذلك في ٢٣ شباط ١٧٩٧[2]. وبعد زمن أقدم بالتعاون مع اليزبكيين والجنبلاطيين على تصفية أعيانهم[3]. ثم تحول إلى أولاد الأمير

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٤.
(٢) الشهابي، الغرر، ص١٨٣-١٨٤.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٩٧.



LE PALAIS DE BEITEDDÎN
(d'après Bartlett)
(ISMAÏL, Doc., t. 6, p. 208)
قصر الأمير بشير الثاني الكبير في بيت الدين

يوسف الذين كانوا قد انتقلوا إلى جبيل ومنها وضعوا أنفسهم تحت حماية والي الشام عبد الله باشا العظم ومكثوا عنده بعض الوقت. وأصبح الأمير بشير الحاكم المطلق في الشوف.

٤١ - بشير بين بونابرت والجزار (١٧٩٩):

عام ١٧٩٩، عاد الجزار إلى ابتزاز الأمير بحجة اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين في الحملة التي قادها نابوليون بونابرت على بلاد الشام.

لم تكن حملة نابليون موجهة ضد الإمارة اللبنانية ولا ضد السلطنة العثمانية، بل كانت موجهة ضد الإنكليز، إلاّ أن شظاياها طالت المنطقة بكاملها، وأحدثت في الكيان اللبناني جرحاً بالغاً «سيبقى قابلاً للالتهاب إلى أمد غير منظور».

في شهر آذار ١٧٩٩ حاصر الفرنسيون مدينة عكا، وكان على الأمير بشير أن يحدد موقفه بدقة في هذه الحرب الواقعة بين الجزار ونابليون. طلب الباشا من الأمير دعمه لصد الهجوم الفرنسي، فاعتذر متذرعاً بضعف موقفه السياسي في داخل الإمارة[١] كأنه أراد أن «يرد التحية» لما قام به الجزار من تقوية خصومه عليه وخلعه مراراً عن الإمارة»[٢].

لكنه إلى جانب هذا الرفض، سهّل مرور قوات عثمانية عبر أراضي الإمارة مزوداً إياها بالمؤن والذخائر. وفي نفس الوقت رفض أيضاً التحالف مع نابليون الذي كان قد بعث له برسالة موجهة إلى «الأمة الدرزية» يعد فيها «بتحقيق استقلالها وبتخفيف الجزية المفروضة عليها، وبإعادة مرفأ بيروت لها مع المدن الأخرى التي هي بحاجة إليها لتؤمن حرية تجارتها واتساعها»[٣]. إنما سمح للتجار اللبنانيين بتزويد الجنود الفرنسيين بالمؤن والنبيذ.

أما بالنسبة للعثمانيين فقد كان موقف الأمير، إزاء الصدر الأعظم، الذي قدم سوريا على رأس جيش من تركيا لوقف

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٨.
(٢) حتي، ص٥٠٢.
(٣) أبو صالح، ص١٧٤.

الغزوة الفرنسية، كان موقف ولاء وخضوع، إذ قدّم له الخيل والذخيرة في حماه والحنطة في دمشق. وكان مستعداً ليضع أهراء القمح في بعلبك والبقاع تحت تصرف الجيش التركي[1] وقد كلفه ذلك حوالي المئة ألف غرش.

كافأ الصدر الأعظم الأمير بشير على موقفه الحليف بأن استصدر فرماناً عينه بموجبه «حاكماً على جبل الدروز أي على الشوف، ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وجبل عامل ومنطقة جبيل». وأعطاه صلاحية أن يخابر الباب العالي مباشرة من دون الرجوع أو المرور بوالي عكا أو والي الشام. وكذلك أموال الميري، فيرسلها الأمير مباشرة إلى «الخزانة السلطانية العامرة»، كما كانت على أيام ابن معن[2]. وهكذا عاد الأمير بشير إلى الحكم أقوى مما كان عليه قبل اختلافه مع الجزار.

ولكن ما أن هدأت عاصفة الحملة الفرنسية بتراجع بونابرت، حتى بادر الجزار إلى الاقتصاص من الأمير بشير، غير آبه بما منحه السلطان من سلطات، وقرر خلعه من الولاية. استنجد الأمير بوالي الشام عبد الله باشا الذي أرسل له ألف خيال بقيادة الملاّ إسماعيل الدالي باش، فوصل البقاع وحقق الاتصال مع الشيخ بشير جنبلاط على رأس قوات البلاد وانطلقا معاً نحو حاصبيا، بينما هرب العماديون وأولاد الأمير يوسف إلى عكا. وما أن وصل الملاّ إسماعيل بقواته إلى البقاع حتى عزل الجزار الأمير بشير عن الولاية التي أعادها إلى أولاد الأمير يوسف حسين وسعد الدين مبقياً عنده شقيقهما سليم كرهينة في عكا. وزودهما بالعساكر لطرد بشير من دير القمر بعد أن حرض عليه الحزب اليزبكي. ففضل الأمير، والحال هذه، أن يترك الحكم من دون قتال رغم بقاء الحزب الجنبلاطي إلى جانبه، ومساندة والي الشام عبد الله باشا العظم له. ويبدو أن الأمير قد طلب تدخل قائد الأسطول الإنكليزي الأميرال سميث مع الجزار وسيطاً، غير أنه لم

(١) حتي، ص٥٠٣.

(٢) الشهابي، الغرر، ص١٩٥.

يحصل من الأميرال سوى على وعود وتطمينات كلامية جميلة[1].

في ٢٣ كانون الأول ١٧٩٩، سافر الأمير من البداوي قرب طرابلس إلى العريش في مصر لمقابلة الصدر الأعظم[2]. استغرقت رحلته ستة وعشرين يوماً تحمّل خلالها العذابات والأخطار الجمة وأخيراً رست باخرته في العريش فاستقبله الأميرال الإنكليزي سميث ومن ثم قدمه للصدر الأعظم، الذي استقبله بود وصداقة واعداً إياه بالاهتمام بقضيته وبإعادة حكم الإمارة إليه بعد إتمام مهمته في مصر والعودة إلى اسطنبول. وإذ لم يعد أمامه سوى العودة إلى لبنان عاد على باخرة الأميرال ونزل في طرابلس في ١٦ أيار «والتقاه أخوه حسن ومن معه إلى البارد ورجع الجميع إلى قلعة الحصن واستقاموا بضيافة علي بك الأسعد»[2].

وتشير المراجع إلى أن الأمير بشير راسل الجزار سراً من مقر إقامته، طالباً العفو، فاستجاب الباشا لطلبه وعرض إعادة الإمارة إليه شرط أن يزايد في الدفع على أبناء الأمير يوسف[3]، ولكن الشهابي اعتذر عن دفع المزيد لمعرفته باستحالة جمع المبالغ المطلوبة.

في هذه السنة ١٨٠٠، تفاقمت حال الشوف سوءاً بسبب جسامة الضرائب التي فرضها أولاد الأمير يوسف. فالأهالي لم يكن بوسعهم احتمالها، وعجز الأميران عن جمع الأموال المطلوبة من الجزار السنة ١٨٠١، فاستعانوا بعسكر هذا الأخير، وأنزلوا القسوة في الأعيان ما خلق تململاً وعصياناً ومطالبة بعودة الأمير بشير إلى الحكم، مما دفع بأبناء الأمير يوسف إلى طلب المزيد من العسكر وإنزال المزيد من القسوة بالمكلفين، فكانت ردة الفعل داخل الإمارة قراراً بالتصدي. وقد وقعت بالفعل معارك

(١) الشهابي، تاريخ الجزار، ص١٤٢.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٠٧.
- الشهابي، الغرر، ص٢٠٠-٢٠١.
(٣) الشهابي، تاريخ الجزار، ص١٤٩.

بين أهالي الجبل، وعلى رأسهم الشيخ بشير جنبلاط، وبين جنود الجزار بقيادة أبناء الأمير يوسف، وخاصة في المتن، مقر اللمعيين، ما سمح للأمير بشير بالتدخل مصلحاً بين المتقاتلين، فالتفّ أعيان الإمارة حوله نابذين أبناء الأمير يوسف بشبه إجماع[1]، رغم ذلك أصر أبناء الأمير يوسف على متابعة القتال مستقوين بجنود الجزار، فحصلت معارك طاحنة في الساحل، قاد رجال الإمارة فيها الأمير بشير وأخوه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط واشترك فيها العماديون والنكديون والتلاحقة، وقد انتهت تلك المعركة بإقرار أولاد الأمير يوسف بالعجز «وأصبحوا بلا صديق»[2]. ثم أرسل الأمير بشير العمادية إلى الشيخ جرجس باز مدبر أولاد الأمير يوسف يقنعونه «أن ينهض الأرناؤوط من دير القمر بناءً على أنه بعد انصرافهم ينعقد الصلح بين الأميرين والأمير على أن يكون الأمير والياً على البلاد، والأميران على بلاد جبيل فارتضى».

أما أحمد باشا الجزار فلم تعجبه هذه الطريقة التي عاد بها الأمير بشير إلى الشوف فقرر التصدي له، كما قرر الأمير متابعة القتال لكوكبة الناس حوله وليضع الجزار أمام الأمر الواقع فينعم عليه مجدداً بالولاية.

لكن الجزار استدعى عسكره من صيدا ووزعه في حصون إيالته ولم يرض بالأمير بشير رغم اتفاق الأعيان جميعاً على توليته[3]. لقد استقطب الأمير بشير غالبية أنصار أولاد الأمير يوسف، ولم يشذ إلاّ العماديون، المعروفون بكرههم للأمير، وقد حاولوا منعه من العودة إلى حكم الإمارة. إلى جانب ذلك، راح الجزار يفتش عن أحد الأمراء الشهابيين ليعينه حاكماً على الشوف بدلاً من أبناء الأمير يوسف، مستغلاً الحال السلطوية داخل هذه الأسرة. فبالرغم من تقليم أظافر أولاد الأمير يوسف، كان هناك آخرون. وقد عرف الجزار كيف يفيد إلى أقصى حد من استشراء تلك الحال الحادة. فعندما انتهى العام ١٨٠١، لجأ بعض

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠٩.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٠٩.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١١١.

أعيان العماديين إلى مطالبة الجزار بتعيين الأمير عباس أسعد شهاب على رأس الإمارة، فوافق الجزار غير أن الشيخ بشير جنبلاط، الذي تأكد له أن الجزار لن يجدد الولاية للأمير بشير، طالب بالأمير سلمان سيد أحمد شهاب دون سواه، واعداً الباشا بمائتين وخمسين ألف غرش مقابل ذلك. وهنا أيضاً استجاب الجزار لطلب الشيخ بشير. غير أن المشايخ العمادية أسرعوا بالسفر إلى عكا مع مرشحهم الأمير عباس، فرحب بهم الجزار وخلع الولاية على عباس وأرسل معه جنوداً لفرض رئاسته[1].

قرر الأمير بشير وأنصاره جميعاً التصدي لعباس وقد انضم إليهم أبناء الأمير يوسف ومدبرهم جرجس باز. وكانت المعركة الأولى في منطقة المغيتة قرب المديرج حيث قتل الجبليون نحو ثلاثمائة من عسكر الجزار[2].

والسنة ١٨٠٢ استدعى العمادية الأمير سلمان سيد أحمد ليتولى البلاد شراكة مع الأمير عباس «فأخبروا الجزار فأجابهم طالباً حضوره إلى عكا. ولما وصل... ترحب به... وعين له نفقات ووعده بالولاية»[3].

في هذه الأثناء كان الصدر الأعظم قد انتهى من انشغاله بالحملة الفرنسية، فسلم يافا إلى وال جديد متحدياً سلطة الجزار، وأصدر فرماناً يدين عصيان الباشا الذي تطاول على قراره بتعيين الأمير بشير «حاكما» على جبل الدروز ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وجبل عامل ومنطقة جبيل»[4]. غير أن الأمير بشير لم يسلك درب الشماتة، بل راسل الجزار طالباً الرضا، فأجابه هذا الأخير إلى ذلك، وطلب من رسول الأمير أن يتوجه الأمير حسن أخو بشير إلى صيدا لاستلام خلع الولاية[5]، إنما في الوقت نفسه، كان قد استقبل الأمير

---

(١) أبو صالح، ص١٨٤.

(٢) الشهابي، ج٢، ص٣٥٧.

(٣) الشدياق، ج٢، ص١١٤.

(٤) الشهابي، تاريخ الجزار، ص١٥٩.

(٥) الشهابي، ج٢، الغرر، ص٣٦٩.

سلمان سيد أحمد ووعده بالولاية أيضاً وترك الأمر معلقاً حتى السنة ١٨٠٣، إذ أرسل إلى اليزبكيين قوة من الفرسان من أجل ضبط غلال الأمير بشير وأولاد الأمير يوسف من البقاع، ثم سحب القوة فجأة، ما جعل اليزبكيين في مواجهة الأمير بشير وحلفائه من دون مساندة. ولما جدّد هؤلاء مطالبته بالدعم العسكري، كان جوابه بأنه هذه المرة يجب أن يبرهنوا له عن أنه بإمكانهم التغلب على الأمير بشير بقواتهم الذاتية. وبعد حصول استنفارات متبادلة في أنحاء الجبل برز في الحزب اليزبكي عقّال عارضوا الفتنة، ما نجّى البلاد من حرب أهلية[1]. بعدها تنادى كل الأعيان للذهاب إلى خان الحصين بالقرب من صوفر ليعلنوا تأييدهم للأمير بشير. وأخيراً انتهت الأزمة بموافقة الجزار على تجديد الولاية للأمير بشير مقابل أربعماية ألف قرش[2] بعدما قلّص منها إقليمي جزين وبرجا.

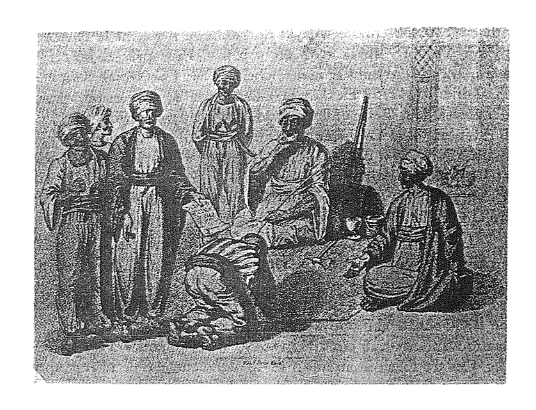
كانت تلك آخر مأساة للإمارة اللبنانية مع أحمد باشا الجزار، الذي شاءت الأقدار أن يقضي موتاً طبيعياً السنة ١٨٠٤، والإمارة بيد بشير الثاني الكبير.

لقد كان الجزار ظالماً إلى حدّ الوحشية «وبلاصاً قاسياً سفاكاً للدماء بطاشاً. فخشيت الناس شره وجوره. وبموته عم الفرح والسرور الإمارة الشهابية، فنظم أحد الشعراء أشعاراً تشير إلى ظلمه وغدره وقسوته حيث قال:

يا آل بر الشام بشراكم فقد
مات الذي أنشا المظالم وانتهكْ
الخائن الغدار سفّاك الدما
من كان في قتل النفوس قد انهمك.

(١) الشدياق، ج٢، ص١١٥.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١١٥-١١٦.

أحمد باشا الجزار جالساً على قوس المحكمة



AHMED PACHA EL-JAZZAR RENDANT LA JUSTICE
(d'après une gravure anglaise du XIXe s., reproduite par Fr. Ch. - Roux: Les échelle de Syrie et de Palestine au XVIIIe s.)
(ISMAIL. Doc., t. 2, p. 208)

الفصل السابع
الأمير بشير الثاني سيد لبنان المطلق وأول نصير للعثمانيين في بلاد الشام (١٨٠٤ - ١٨٣١)

١ - توطئة

وصل الأمير بشير الثاني إلى الحكم في جبل لبنان بمساعدة الشيخ بشير جنبلاط المالية والعسكرية. وقد تآمر الإثنان على الأمير يوسف الشهابي. وكانت للأمير بشير بين العامين ١٧٨٩ و١٨٠٤، تجربة مهمة مع أحمد باشا الجزار، والي عكا ومع أقاربه الأمراء الشهابيين ومع الشيخ بشير نفسه، حيث كان الحكم يقوم حتى السنة ١٧٠٨ بين الأمير والشيخ الجنبلاطي.

بعد هذه التجربة تبين للأمير أن سلطته لا يمكن أن تمارس إلاّ عن طريق إجماع الأعيان حول شخصه، أو تأييد الشيخ بشير جنبلاط له. وتبين له أيضاً، أنه طالما سلطة الأمير هي وقف على تأييد الأعيان والمناصب في الإمارة، فهذه السلطة تبقى مهددة، وأن قوة الأعيان والمناصب تكمن في ولاء الشعب لهم، وأن ضعف الأمير الحاكم يعود إلى عدم وجود الولاء لشخصه بالذات من الشعب. إذاً كان عليه أن يقضي على الأعيان والمقاطعجية، ويربط الولاء بشخصه مباشرة، وذلك عن طريق حكم يتخطى هؤلاء الأعيان بمؤسساته. ومن هنا ولدت عنده فكرة إنشاء دولة بالمعنى الصحيح للكلمة.

٢ - مركزية الحكم

لم تستقرّ أفكار الأمير بشير وهواجسه إلاّ بوفاة الجزار العام ١٨٠٤ فتمكن آنذاك من إقامة العلاقات الحسنة مع خليفته المسالم سليمان باشا، والتي سمحت له بتدعيم موقعه حتى ١٨١٩.

كان مخطط الأمير بشير، بعد موت الجزار، يستند بركائزه الأساسية إلى عاملين: الأول، فرض شخصيته وذلك بالاحترام الشديد لسلطة الباب العالي في الشام بغية حماية مصالح الإمارة ضد الولاة. والثاني تحجيم معارضة المقاطعجية، وخاصة الدروز منهم، وكبح أطماعهم وعلى رأسهم الشيخ بشير جنبلاط، أبرز المهددين لسلطته وأقوى من يليه في الهرمية الاجتماعية.

وقد تبين اليوم، من خلال التقارير والحوليات، أن الأمير بشير، ومنذ اللحظة التي وصل فيها إلى الحكم، قرر التخلص من الشيخ بشير في اللحظة التي تسمح بها الظروف، وراح يعمل بكد من دون كلل لإيجاد هذه اللحظة. وقد وضع أمامه في سبيل ذلك مخططاً ذكياً، كان محوره تدمير أعدائه المقاطعجية الظاهرين - أمثال أبناء الأمير يوسف الشهابي مع مدبريهما الشيخين جرجس باز وشقيقه عبد الأحد، وغير الظاهرين منهم الذين كانوا يتحكمون بالمقاطعات، وغيرهم، وغيرهم من الأعيان والمشايخ، مسيحيين ودروز، حتى الوصول، بعد ذلك إلى الشيخ بشير جنبلاط نفسه وتدميره نهائياً.

كان مخطط الأمير بشير يقع في أربع مراحل متصلة ووثيقة الحلقات:

أ - القضاء على المقاطعجية الذين لا يسبب القضاء عليهم أي تحالف ضد الأمير وأعوانه.

ب - مساندة المقاطعجية الصغار ضد أسر المقاطعجية الكبار.

ج - القضاء على ثروة الأمراء الشهابيين والحد من أطماعهم في الإمارة وتدمير الحال السلطوية المستشرية في نفوسهم.

د - ضرب الأسرة الجنبلاطية وعلى رأسها الشيخ بشير.

ويؤكد الدكتور أسد رستم المؤرخ اللبناني أن الأمير بشير اتفق مع: «الجنبلاطيين والعماديين ضد النكديين وما أن انتهى من

هؤلاء حتى بدأ بإضعاف العماديين، معتمداً في ذلك على مساندة ومؤازرة الجنبلاطيين له. وظل يسعى إلى مناوأتهم وإضعافهم حتى أفقرهم وأبعدهم عن البلاد، إلى وادي التيم وحوران وعكا ومصر. وما أن انتهى من العماديين حتى اتجه صوب الجنبلاطيين لإضعافهم ومن ثم تدميرهم نهائيا». وهكذا يمكنه فرض هيبة الحكم على الجميع وتعزيز مكانة الإمارة من حيث المساحة والعمران والقوة العسكرية، لتحتل مركزاً فاعلاً على الصعيدين الإقليمي والدولي. إلاّ أن الأخطاء التي ارتكبها بشير الثاني في كيفية تحقيق تلك الطموحات، كانت مميتة، وهي التي ساهمت إلى حد كبير في خلق الحال الطائفية في لبنان.

٢١ - القضاء على المقاطعجية الذين لا يسبب القضاء عليهم أي ردة فعل:

أ - القضاء على النكديين:

ابتدأت هذه المرحلة بالقضاء على النكديين وذلك بالسعي للإيقاع بينهم وبين بشير جنبلاط. لقد دبر الأمير مكيدة بأوراق مزوّرة صادرة عن مشايخ آل نكد بأنهم سيقضون على الجنبلاطيين. لذلك طلب من الشيخ بشير القضاء عليهم. وقد تمت المجزرة في ٢٣ شباط ١٧٩٧، في سرايا دير القمر حيث استدعى الأمير بشير المشايخ النكدية أولاد الشيخ كليب إلى الدير، ولما دخلوا مجلسه خرج من القاعة وأغلق الباب فأسرع الشيخ بشير جنبلاط والمشايخ العمادية «ودخلوا القاعة وجعلوا يخرجونهم واحداً فواحداً. ويقتلونهم ضرباً بالسيف. وكانوا خمسة وهم: بشير، واكد، سيد أحمد، قاسم ومراد. ثم أرسل الأمير أعوانه إلى عبيه ليقبضوا على أولاد الشيخ بشير نكد لكنهم فروا إلى الناعمة»،[1] فلحقوا بهم وألقوا القبض عليهم فوضعوا في السجن وكانوا أربعة وهم: علي وجهجاه وسعد الدين وكليب. وبعد قليل دخل إليهم في السجن المشايخ العمادية وقتلوهم[1]. أما أولادهم الصغار الباقون فقد هربوا مع الشيخ سلمان نكد إلى دمشق وكانوا ستة عشر ذكراً.

(١) الشدياق، ج١، ص ١٩٠.

وهكذا تخلص الأمير من أكبر عائلة مقاطعجية متحكّمة في قاعدة دير القمر بالذات والمناصف، أي بالإقليمين اللذين يحيطان بالأمير وحاشيته وجنده، من جميع الجهات. أما الشيخ بشير جنبلاط فقد اشترى من أرامل المشايخ النكديين أرزاقهم وأملاكهم بأسعار زهيدة جداً. وقد لعب الأمير بشير دوراً في إجبار الأرامل على التنازل عن أراضي أزواجهن لأنه طلب منهن ضريبة سبع سنين سابقة.

وقد أفاد الشيخ حسن جنبلاط شقيق الشيخ بشير، بشراء أراضي قرى كثيرة من أرامل النكديين مثل: كفرحتي - بساتين السفرجل - بعدران - الزيتون - وادي أبو يوسف - قلعة عيسى - بعصون - المريجات - مزرعة بواردين - البرجين والبرامية. واشترت أسرة الصيقلي القسم المتبقي من الأراضي النكدية. فتم بذلك دمار آل نكد سياسياً واقتصادياً ولم يعد لهم أي وزن سياسي فعلي في الجبل.

ب - *القضاء على الأخوين باز وأولاد الأمير يوسف شهاب وغيرهم (١٨٠٦ - ١٨٠٧)*

كانت المناسبة الأولى التي استغلها الأمير بشير لفرض هيبته، بعد موت الجزار، حركة عصيان على دفع الضرائب حصلت في منطقة المتن السنة ١٨٠٦، قادتها أسرتان موحدتان درزيتان، هما أسرة حاطوم في كفرسلوان وأسرة القنطار في المتين. استعان الأمير بجنود والي عكا الأرناؤوط، سليمان باشا، لضرب هؤلاء «الثائرين» الذين لم تساندهم أي فئة من الأعيان، وخاصة الأمراء اللمعيون. وكانت حملة التأديب جد قاسية، تخللها نهب بيوت المتمردين وهدمها وقطع أشجار ممتلكاتهم وإلقاء القبض على عدد منهم وتغريمهم مبالغ طائلة[١]. ثم غرم الأمير جميع رعايا المتن بأكثر من مئة ألف غرش ومنعهم عن زحلة والبقاع. ثم رجع إلى دير القمر وأدى لوالي عكا كل ما تعهد له به من المال. وأصرف الجنود إلى ديارهم وراقت له الأيام[٢].

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٢١.

(٢) الشدياق، ج١، ص١٩٠.

وقد تأكد للجميع أنه لن يكون بعد ذلك التاريخ من السهولة بمكان الاستمرار في حركات التمرد والعصيان والابتزاز وفي نهج الانقلاب على الأمير والمطالبة باستبداله بآخر تبعاً للمصالح الآنية[١].

بعدها بادر الأمير إلى القيام بتصفية خصومه السياسيين الطامعين بكرسي الإمارة بدءاً بأولاد الأمير يوسف ومدبريهما الشيخين جرجس وعبد الأحد باز.

كان جرجس باز أحد أبرز الشخصيات السياسية في الإمارة. وكان الموجه الحقيقي الفعال لسياسة الأمراء أبناء الأمير يوسف الثلاثة. وقد أنشأ له علاقات قوية مع الوزراء والولاة العثمانيين، وحقق له مكانة لدى الإكليروس الماروني، وتحالفات مع أعيان بعض الأسر السياسية، كالشيخ بشير جنبلاط وآل نكد وآل الخازن. وكان لجرجس أخ اسمه عبد الأحد، يشاركه المدبرية ويليه من حيث المرتبة السياسية والاجتماعية. ويقال إن الأمير بشير كان مستاءً أيضاً من ازدراء جرجس باز بمكانته[٢]. علم الأمير بأن جرجس يقوم باتصالات مباشرة مع والي عكا السنة ١٨٠٦، بواسطة اليهودي حاييم. وقد استقبله الوالي في عكا استقبالاً فخماً، أطلقت فيه المدفعية على شرفه[٣]، فاعتبر ذلك محاولة للتحكم بالإمارة، وعلى الأقل إزاحته مجدداً عن الحكم لصالح أولاد الأمير يوسف، إذاً يجب حسم النزاع نهائياً والقضاء عليهم جميعاً[٤].

وشاءت الظروف أن الأمير حسن شقيق الأمير بشير اشترى في العام ١٨٠٤ عدداً من الحوانيت في جونيه، وراح يتعاطى تجارة الحرير الرائجة يومذاك، بيعاً وشراءً. بعدها اشترى ميزاناً خاصاً لوزن الحرير وطلب من الذين يتعاطون هذه المهنة، أن يزنوا حريرهم لديه وذلك «ليكسد متجر الشيخ بشارة

---

(١) الشهابي، الغرر، ج٢، ص٤٢٦-٤٢٧.
(٢) أبو صالح، ص٧٩-٨٠.
(٣) شبلي، ص١٨٧.
(٤) الشهابي، الغرر، ج٢، ص٥١٢.

جفال الخازن في زوق مكايل...»، لأنه كان لديه بغضاً على هذه العائلة. ثم أقام الأمير حسن دعوى قضائية على بيت الخازن الذين يملكون أملاكاً وحوانيت في ميناء جونيه، متذرعاً بأن الميناء أملاك عامة تخص الحكومة. لكن دعواه أبطلها المطران جرمانوس آدم القاضي الشرعي يومذاك[1].

لم يكتفِ الشيخ الخازني بذلك الحكم، بل خابر الشيخ بشير جنبلاط، شارحاً له ما فعله الأمير حسن به، وطالباً منه المشورة، كي يحفظ حقوقه من تعديات الأمير المذكور، فأشار عليه الشيخ بشير جنبلاط بإزالة ميزان الأمير بالقوة. عندها قصد الشيخ بشارة جونيه وقطع بحد سيفه «علاقة الميزان» مهدداً بصوت مرتفع كل من يستعمله مجدداً بالقتل. غضب الأمير حسن على الشيخ وعلى كل آل الخازن وقرر معاقبته بشدة. توارى الخازني هارباً مدة من الزمن لحين سويت الأمور بفضل مدبر الأمير حسن أبو أنطون يوسف باخوس، الذي عالج المسألة بهدوء وحكمة. ولكن من يعرف الأمير حسن وأخلاقه وتصرفاته وحقده، يعلم أن الأمور لم تنته ولن تنتهي بهذه السهولة.

في السنة ١٨٠٦ قرر الأمير بشير المباشرة بأعمال المسح لمقاطعة كسروان. وأصدر أمره إلى الأمير حسن شقيقه بالتنفيذ، فعين حسن الشيخ ناصيف الدحداح مسؤولاً عن هذا العمل الإداري.

والجدير ذكره أن عملية المسح لم تكن سوى مؤامرة سافلة وحاقدة ضد بيت الخازن الذين كانوا «معفيين من ضريبة الأملاك» منذ حكم الأمير فخر الدين المعني الثاني. والقيام بعملية المسح كان يرمي إلى زيادة في المال العام ومن ثم إحداث ضريبة على كافة الأملاك المبنية لبيت الخازن.

لجأ الخازنيون إلى نسيبهم الشيخ جرجس باز، مستشار الأمير بشير في دير القمر وإلى شقيقه الشيخ عبد الأحد، كاخية الأمراء أولاد الأمير يوسف[2] حكام بلاد جبيل

---

(١) شبلي، ص١٨٦-١٨٧.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٢٤.

والـذي كـانت تجمعه أواصر القربى ببيت الخازن، إذ أنــه تــزوج الســنــة ١٨٠٢ مــن سيلانه، ابنة الشيخ راجي الخازن.

دفـع بـيت الخازن خـمسين ألـف غـرش لإبطال المسح. وقد توصل الشيخ جرجس باز «بما له من منزلة ومعزة» عند الأمير بشير إلى استصدار الأمر منه بإبطال عملية المسح نهائياً في كسروان. كتم الأمير حسن غيظه وأضمر السوء للشيخين ولبيت الخازن[1].

«الشيخ جرجس باز، أبو عساف، أصبح مغروراً برأيه، وقد أسكره الجاه حتى ما عاد يقدّر عواقب... وله خارج دير القمر أحزاب مثل بيت الخازن الذي زوج أخاه بواحدة منهم وهم في عزهم...»[2] هذا ما قاله الأمير بشير عن أبي عساف في نهاية حياته.

كـانت قضـيـة مسـح المقـاطـعـة لا تـزال تتفاعل في قلب الأمير حسن، وخصوصاً في قلب أخيه الأمير بشير، الذي راح يفتش عن حيلة لإهلاك أولاد باز وأولاد الأمير يوسف، مشتركاً في الرأي مع الشيخ بشير جنبلاط. وقد تمكن الأمير حسن من أن يقرب إليه شيخين من الحزب اليزبكي، أحدهما من بيت تلحوق والآخر من بيت عبد الملك، وذلك لاستعمالهما في تنفيذ المؤامرة بسرية تامة للغاية[3].

وعـنـدمـا نضـج كـل شـيء، أخبر الأمير حسـن أخـاه الأمير بشير الـذي عين يـومـاً لتنفيذ التصفية في وقت واحد، في دير القمر وفي جبيل. وللتأكد من حسن التنفيذ، فقد زوّر الأمير حسن كتاباً بلسان جرجس باز إلى أخيه قائلاً له حرفياً: «إن مشايخ اليزبكية متوجهون إليكم ليستجيروا بكم من ظلم الأمير بشير والشـيـخ بشير، فـأخبر الأمـراء واقبـلـوهـم عـنـدكـم بالإكرام وافتحوا لـهـم مضافات...»[3].

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٢٤.
(٢) باز، ص١٠-١١-١٢.
(٣) باز، ص١٢.

حصلت كل هذه الأمور والشيخ جرجس على غفلة عنها رغم تحذيره عما يحاك ضده «لاتكاله على قَسَم الأمير له على مذبح سيدة التلة» أن لا أحد يخون الثاني.

نهار الجمعة في ١٥ أيار ١٨٠٧، دعا الأمير بشير الشيخ جرجس باز إلى مأدبة غذاء «غمّة» في ديوان الإمارة، فلبّى الدعوة، ولدى دخوله إلى غرفة الطعام خرج الأمير منها وأغلق بابها «وأمر رجاله بأن يدخلوا ويقتلوه. وبقي هو ممسكاً بحلقة الباب حتى قضي الأمر».

ويقال إن القتلة هما: أحمد جنبلاط وناصيف نكد. أما بعض المؤرخين فيقولون إنهم من بيت زين الدين... والله أعلم![1]. بعد ذلك أوقف الأمير صديق جرجس باز المدعو يوسف ناصيف آغا الترك. ولما ذاع الخبر اهتاج أهالي دير القمر وأحاطوا بسرايا الأمير الذي أعطى أمره بنقل جثة الشيخ القتيل إلى خارج السور، فلما رآها الديريون، أفل كلٌ إلى بيته[2].

وهناك رواية أخرى تقول: في صباح الجمعة ١٥ أيار ١٨٠٧، وصل عدد كبير من الجنبلاطيين إلى دير القمر، في الوقت الذي كان الشيخ جرجس باز يستعد كعادته، لأخذ قيلولة صغيرة. عندما استدعاه الأمير على وجه السرعة بحجة أن يدرس معه بعض الأمور المتعلقة بالحزب اليزبكي. استقبله الأمير في مقصورته الخاصة ولامه، كما قيل، على دعمه هذا الحزب، رغماً عن موافقته وإرادته. ولا أحد يعلم بتاتاً ما دار من نقاش بين الاثنين، إنما المعروف أن الأمير خرج بعجلة من المقصورة، ولم تمض سوى برهة قليلة حتى دخل قائد حرسه حسن زين الدين مع ثلاثة من رجاله وخنقوا الشيخ جرجس بحبلة كانت معهم، ثم جروا جثته إلى باحة دير سيدة التلة في دير القمر حيث غطاها رئيس الدير بشرشف أبيض. ولم يرتفع أي صوت يدين هذه الجريمة سوى صوت صديقه المقرب يوسف الترك (والد الشاعر نقولا)، وقد نال جزاءه كما الشيخ جرجس[3].

---

(١) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص١٠.

(٢) باز، ص١٢.

(٣) شبلي، ص١٨٨.

أما في جبيل، فقد تمكن الأمير حسن ورجاله وعناصر من الشوف من الوصول خلسة إلى المدينة عند فجر اليوم نفسه. وظهراً هاجم العماديون قصر الشيخ عبد الأحد باز، بينما هجم الأمير حسن برجاله إلى القلعة، مقر أبناء الأمير يوسف. ولما وقع نظر الشيخ عبد الأحد على هؤلاء، أدرك سوء قصدهم فأمر بقفل باب داره محاولاً الدفاع عن نفسه، وكان بضيافته الياس إده وعرب شلفون، فقتل واحداً من المهاجمين وجرح الآخر، لكنه لم يصمد كثيراً، خاصة بعدما أصيب برصاصة في خاصرته اليسرى، فحاول الفرار بان قفز من النافذة إلى حديقة المنزل، فأصيبت رجله بكسر منعه من متابعة الهرب. تقدم منه العماديون ورجالهم وانهالوا عليه طعناً بالخناجر حتى قتلوه ثم أوقفوا مضيفيه. بعد ذلك تابعوا هجومهم، فنهبوا القصر وأكثر حوانيت جبيل. أما الأمير حسن فقد تمكّن من دخول القلعة ودعا إليه الأمراء حسين وسعد الدين وسليم، وطيب خاطرهم... وأقسم لهم أنه لن يلحق بهم ضرراً «وحجزهم ووضع عليهم حرّاساً».

في ٢٠ أيار، وصل الأمير بشير إلى جبيل ومعه الشيخ بشير جنبلاط وحاشية كبيرة، فأمر بنقل الأمراء الثلاثة إلى درعون في أعالي كسروان وبأن تسمل عيونهم. بعد ذلك فرض عليهم الإقامة الجبرية ومنعهم عن الزواج، وصادر ممتلكاتهم وعين لهم راتباً محدداً «معاش» بعدها غرّم المشايخ بيت الخازن بخمسين ألف غرش، بسبب مناصرتهم لأبناء الأمير يوسف. وحصل من والي طرابلس بربر آغا على خلعة ولاية جبيل لأخيه الأمير حسن. ثم بدأ الأمير بشير بالانتقام من أقرباء أولاد باز «في البلص والحبس حتى خربة بيوتهم، وباعوا أرزاقهم».

بعدما قتل الأمير الشيخ جرجس (أبو عساف) «توجه إلى سرايته وضبط كل موجوداتها».

بعد تسعة أشهر من مقتل أولاد باز قام الأمير بشير من دير القمر إلى جبيل، يرافقه الأمير حسن، وكان قصده الإطلاع على أحوال البلاد والعباد، إلى جانب هواية الصيد الذي كان مولعاً به. في اليوم التالي أولم الأمير بشير على شرف أخيه الأمير حسن، وبعد العشاء شعر حسن بآلام

شديدة في معدته، لم تمهله سوى ساعات قليلة، توفي بعدها متأثراً بآلامه وأوجاعه هذه. في اليوم التالي للوفاة أقبل الناس والأعيان للقيام بواجب التعزية، ومن ثم نقل الجثة إلى غزير حيث دفنت هناك وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة.

راجت الأقاويل بأن الأمير بشير هو الذي دسّ السم لأخيه حسن خوفاً من غدره ونجاسته وكي يرتاح من شره وزندقته الأخلاقية. وقيل أيضاً أن الأمير ندم أشد الندم على قتله الشيخ «أبو ناصيف» وأخيه عبد الأحد[(١)].

بعد هذه التفاصيل تشير المراجع إلى ما معناه أن تلك الحادثة، فرضت هيبة الأمير بشير وألقت الرعب في قلوب الطامعين بكرسي الإمارة واستقر له الحكم[(٢)].

بعد موت الأمير حسن، حصل الأمير بشير من والي طرابلس بربر آغا على خلعة ولاية جبيل إلى ابنه الأمير قاسم. وهكذا أصبح حكم بلاد الشوف وجبيل بين يدي الأمير، وسادت رهبته قلوب الناس، «وابتسمت له الأيام» خاصة بعدما ثبّت له والي عكا سليمان باشا، خلعة الحكم على الشوف وجبيل إلى الأبد.

بيد أن هذا الاستقرار سيدفع الامير إلى مزيد من أعمال التصفية التي كان بدأها بالأمير يوسف، وإن في شكل غير مباشر، فاستأنفها بأبناء يوسف والشيخين البازيين، وبإضعاف بعض الأعيان، ثم أبلغها الذروة الخطرة بتصفية صديقه الشيخ بشير جنبلاط، كما سنرى في ما بعد.

٢٢ - تشجيع الأمير للمقاطعجية الصغار ضد الكبار:

إنها خطوة «سياسية وهامة على طريق إضعاف الخصوم الرئيسيين لمركز الحكم». فقد دعم الأمير بشير مشايخ بيت بو علوان ضد مشايخ بيت العماد الذين كانوا

---

(١) باز، ص١٦.
- الشدياق، ج٢، ص١٢٨.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٢٨.
- شبلي، ص١٨٩.

يسيطرون على الباروك والعرقوب، وهي المنطقة القريبة من مركز الإمارة في دير القمر وبيت الدين. وكان آل أبو علوان الأكثر عدداً والأقل سيطرة مقاطعجية بين بيت عماد وبيت عبد الملك وآل تلحوق.

قام المشايخ بيت أبو علوان بمصادرة أراضي بيت بو نكد في العرقوب. فاعترف الأمير لهم بذلك وأقرهم عليها، واعترف بهم الفلاحون أي اعترفوا بسيادتهم عليهم. لذلك رحل بيت بو نكد إلى البقاع وسكنوها. ولكن بروز حملة نابليون في الأفق أوقف هذه الخصومات الدرزية وجعل الشيخ بشير جنبلاط يقنع العديدين من زعماء الدروز بأنها موجّهة دينياً ضدهم وهي استمرار للحروب الصليبية. وكان الإنكليز وراء تسريب مثل تلك الأخبار. وقد اجتمع الدروز في بلدة عبيه بقيادة الشيخ بشير جنبلاط، وقرروا مقاومة الحملة والأمير بشير معاً إذا ما تحالف مع الفرنسيين، ورفضوا فكرة الرحيل إلى حوران أو الجبل الأعلى قرب حلب. لقد تحالف الأمير بشير تحالفاً وثيقاً مع الأميرال الإنكليزي سدني سميث، كما رأينا لقاء مبلغ ألف ليرة إنكليزية ذهبية تدفع للأمير. كما قام الإنكليز بإرسال مئة كيس أرز للبشيرين، ثم قدم سدني سميث شخصياً إلى عين عنوب لملاقاتهما في أول حزيران ١٧٩٩ ووعدهما بالمساعدات والمؤن والذخيرة وكبح غضب الجزار بعد نهاية الحصار.

وهكذا أفشلت الظروف الخارجية مخطط الأمير بشير في هذه المرحلة، ولكن عندما عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي، سرعان ما نفذ الأمير المخطط في ما بعد وبنفس الأهداف التي بدأها آنذاك.

٢٣ - تفتيت ثروة الأمراء الشهابيين للحدّ من أطماعهم في الحكم:

كانت سياسة الولاة في عكا تقوم على إضعاف أمراء الجبل وعزلهم المستمر دائماً، بحيث ضمن الوالي لنفسه تكالب هؤلاء على شراء خلعة الإمارة مهما كان الثمن باهظاً، من دون الأخذ بالحسبان ما إذا كان في استطاعتهم دفع الأموال التي كانوا يتعهدون بدفعها أم لا. وقد انعكس هذا الوضع داخلياً من جهة على أمراء الأسرة الشهابية الحاكمة، ومن جهة أخرى على

المقاطعجية الكبار، بالإضافة إلى الأعباء الباهظة التي وضعت على كاهل الفلاحين الذين سيكون ردهم ضد سياسة الأمير انفجاراً على شكل عاميات شبه منظمة، اعتبرت بدايات التحرك الثوري الطبقي في لبنان.

لقد انعكست تلك السياسة على الأمراء الشهابيين إذ برز الأمير بشير الثاني في نهاية ذلك الصراع كشخصية شهابية واحدة قادرة على ضبط الحكم في إمارة الجبل، بعد الإضعاف المستمر لباقي الأمراء الشهابيين عن طريق القتل وسمل العيون ومصادرة الأملاك. لذا اعتبرت نهاية الأمير بشير الثاني نهاية فعلية للأسرة الشهابية، بالرغم من مدة حكم الأمير بشير الثالث (أبو طحين)، لأن الأمراء الشهابيين المتبقين، عجزوا عن القيام بإدارة الإمارة بعد بشير الثاني.

تحالف الأمير بشير الثاني أولاً مع الشيخ بشير جنبلاط، أغنى المقاطعجية آنذاك، ضد الأمير يوسف الشهابي نسيبه. وكانت نهاية الأمير يوسف شنقاً، وقيل خنقاً في عكا. وهذا الشيء أضعف الأسرة الشهابية حتى باتت الإمارة أضعف من أن تقوم بمهامها في شكل طبيعي، مما أدى إلى عزل الأمراء الشهابيين المتنافسين مرات عديدة متتالية. ولم يضعف هذا المخطط إلاّ بوفاة الجزار، إذ تهدّم بوفاته ركن أساسي من أركان القوى العاملة على إضعاف الإمارة. وجاء تحالف البشيرين شبه الدائم ليعطي للأمير بشير الثاني، فرصة للقيام بأعمال ملموسة على طريق «المركزية الإدارية» التي كان أبرزها، فرض الضرائب الباهظة على ممتلكات الأمراء الشهابيين أنفسهم، مما اعتبر منافياً للتقليد السابق، أي كانوا معفيين من دفعها.

كان العرف السابق يقول بأن النساء لا يرثن أزواجهن. وبعد وفاة الزوج تعود الزوجة إلى منزل ذويها مصطحبة «نقوطها» و«نقدها» وهو عرف سائد لدى الدروز في الجبل، وقد تمشّى عليه آنذاك المقاطعجية من كل الطوائف. ولكن خلال حكم الأمير بشير الثاني تثبّت عرف جديد، إذ أخذت النساء ترثن الثمن من أملاك الزوج. وإذا رزقت الزوجة أولاداً ذكوراً فإنها تتمتع بحق إدارة أملاك زوجها. أمام هذا الوضع والواقع بدأت أكثر الأميرات يشترين عقارات من

الهدايا والنقد الذي يعطى لهن على إثر زواجهن. وهذا ما يفتت أملاك الأمير أو الشيخ المقاطعجي.

كذلك أدخل الأمير بشير الثاني تقليداً بالغ الأهمية ويتلخص في حق الأولاد الذكور من الأمراء، الذين تراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة، بأن يطالبوا بما يصيبون من إرث، من أموال آبائهم الثابتة والمنقولة. ولما كان العرف أو التقليد آنذاك يقضي بأن يتزوج الشهابيون بنات أعمامهم، ترتب على ذلك أن الأمير المولود حديثاً يقدم له الأقارب هدية من النقود يشتري له بها والده أملاكاً تسجل باسمه. وهكذا كانت النتائج لهذا التقليد تفتيتاً مباشراً لأملاك الأب، وقد أفقر كل أمير مهما كان غناه عظيماً. فإذا رزق الأمير أولاداً عدة، كان يرى أن ثروته وآماله ستنهار في وقت ما.

هذا التشريع كان المدخل الأكثر أهمية إلى معرفة كيفية تفتيت الملكيات المقاطعجية الكبيرة في الجبل، وبروز ملكيات جديدة وعائلات مقاطعجية جديدة أيضاً، قامت أساساً من هؤلاء المدبرين بالذات الذين كانوا قيمين على الأولاد هؤلاء. وجنوا الأموال الطائلة من هذا التدبير. وخير نموذج على ذلك، أملاك بيت الدحداح في شكل خاص الذين شغلوا مناصب مدبرين للعديد من الأمراء الشهابيين.

٢٤ - مهاجمة الشيخ بشير جنبلاط وقتله (١٨٢٥):

مما لا شك فيه أن فكرة القضاء على الشيخ بشير جنبلاط راودت الأمير بشير الثاني منذ اللحظة التي تسلم فيها حكم الإمارة. فهو يعرف تمام المعرفة أن أطماع الشيخ بشير كانت كثيرة وكبيرة. وكما كان التعامل مع الأمير يوسف سيكون التعامل معه هو أيضاً، ولربما بشراسة أشد وباطنية أعمق، نظراً إلى شخصية الأمير الفذة وذكائه وقوة شكيمته. هذه الطريقة في التعامل مصدرها تكوين مجتمع الإمارة ذاته. ففي بيئة بشرية كهذه، كثيراً ما يصل التعارض بين مجموعتين متخاصمتين، إلى حد نشر الدمار وإضاعة الثروات والتصفية الدموية للحسابات.

لم يكن ينظر إلى الوحشية والخديعة المعبرتين عن السلطة الضرورية للسيطرة

على الخصوم أو للتحكيم في نزاعاتهم على أنها طغيان عبثي، بل اعتبرتا من الخصال الأصيلة للحاكم. وكان إظهار القدرة على التصرف بقسوة وبتعسف وبوحشية، يعني الكفاءة لفرض قدر أكبر من الأمن. «ولم يلق الاحترام إلاّ من عرف كيف يفرض نفوذه بقسوة أكبر». وعلى عكس هذا، كانت الوداعة أو الإنصاف يواجهان بالاحتقار، لعدم جدواهما في وضع حد للفوضى وما يترتب عليها من معاناة وإذلال.

في مثل هذا المجتمع، تصبح للأمور، ولو الصغيرة، مدلولاتها المؤثرة سلباً أو إيجاباً، وتنمّي في النفوس الفرح أو الكدر والشماتة.

لقد بلغ آذان الناس أن الأمير بشير الثاني لا يمكنه «أن يعين مأموراً أو أن يعزل موظفاً إلاّ بأمر الشيخ بشير جنبلاط» ولا يستطيع أن يعقد محلولاً أو أن يحل معقوداً إلاّ بعد وقوفه على رأي الشيخ الجنبلاطي واستطلاع وجهة فكره وإرادته[1]. ويقال إن الطائفة الدرزية برمتها أصبحت في قبضة الشيخ بشير «تقوم إذا قام وتقعد إذا قعد»[2]. حتى أن الأمير بشير «لما كان يصله البريد من عكا، كان يرسل بالأوراق مختومة إلى المختارة، فيتولى الشيخ بشير أمر فضها والاطلاع على الأوامر والتحريرات ثم يعيدها إلى الدير. وبعد تحرير الأجوبة عنها كانت ترسل إلى المختارة أيضاً ليقف الشيخ على الأجوبة فينفي من ذلك ما أراد نفيه ويثبت ما أراد إثباته».[2]

إن الشيخ بشير هو وحده الذي احتفظ بقوته أمام نفوذ الأمير. وكان الشيخ يسيطر على مقاطعات عدة وكانت ثروته تتضخم بالاستيلاء على أراضي أعدائه حتى إنه عمم على أهالي الجبل أن «الجبل لا يتسع لبشيرين يا أنا يا هوّي... والمزروك يرحل...». كل هذا كان إيذاناً ببداية النهاية لأحدهما، خاصة أن أهالي الشوف راحوا يردّدون أن الشيخ بشير جنبلاط هو عمود السماء. وإذا، لا سمح الله ووقع العمود فستقع السماء على الأرض وفعلاً كان الشيخ يتمتع بقوة عسكرية ومالية كبيرة.

---

(١) أبو شقرا، ص٣.

(٢) أبو شقرا، ص٤.

في العام ١٨١٩، تفاقم الصراع بين الرجلين بمناسبة قدوم عبد الله باشا الشاب البالغ من العمر ٣١ سنة، إلى عكا ليخلف سليمان باشا المتوفي، والذي كان صديقاً مهماً للأمير بشير.

لقد أراد عبد الله باشا منذ البداية، أن يثبت تفوقه على الأمير بشير الثاني، فاختار وسيلة في فرض زيادة كبيرة على مبلغ الجباية المطلوب.

لقد تسبب تحصيل الجباية وما أضيف إليها، نزولاً عند مطالب والي عكا الجديدة، باندلاع حركة عصيان شعبي بين الموارنة المجتمعين في الحزب اليزبكي في كسروان والمتن (عاميتا أنطلياس ولحفد). وقد استغل هذه الحركة العديد من رجال الدين وبعض الأمراء الشهابيين، ولكن الأمير استطاع القضاء عليها بمساندة الشيخ بشير وآل عماد وتلحوق وعبد الملك، الذين خافوا من امتداد مثل هذه العاميات إلى مقاطعاتهم بالذات. وكان ذلك في أوائل العشرينات من القرن ١٩.

كان القضاء على هذا العصيان، عاملاً جديداً أبرز قوة الإمارة على الصعيد الداخلي، وكان ذلك سبباً كافياً لانقلاب الشيخ بشير جنبلاط ضد هذه القوة، فتحالف مع عدو الأمير بشير الثاني، الأمير عباس شهاب، ثم استمال إليه والي الشام درويش باشا، مما أجبر الأمير بشير على السفر إلى مصر مع ولديه السنة ١٨٢٢، ولم تنفع نجدة صديقه والي عكا في تثبيته داخل الإمارة. ومنذ ذلك الحين ظهر الخلاف علناً بين البشيرين، وكانت الدلائل تشير إلى أن أول احتكاك بينهما ستنتقل شرارته إلى لبنان وعكا وفلسطين وسوريا بأكملها.

لقد كان الشيخ بشير وثيق التحالف مع الإنكليز، وتشير الوثائق إلى أن الأمير بشير الثاني، كان قد اتفق سراً مع والي الديار المصرية محمد علي باشا على الوقوف في وجه السلطنة العثمانية وحلفائها المحليين، وأبرزهم الشيخ بشير جنبلاط، الذي، على ما يعتقد، كان أدرك هذا الأمر، لذلك تحالف مع والي الشام ووالي حلب ضد والي عكا.

لكن الأمير بشير تمكن من إقناع محمد علي باشا، والذي كان يسعى إلى التدخل في شؤون بلاد الشام، بأن يتوسط لدى الباب العالي لصالحه ولصالح عبد الله باشا استناداً

إلى أسباب مالية. وانتهى الأمر بأن أصدرت الأستانة عفوها عن الأمير والوالي معاً.

وكان أول عمل قام به الأمير بشير وهو لا يزال في مصر أن طلب من الأمير عباس شهاب تصريف شؤون الحكم، قبل قدومه إلى لبنان، في محاولة للإيقاع بينه وبين الشيخ بشير، الأمر الذي لم يحصل[(١)].

بعد ذلك سعى الشيخ بشير إلى الأميرين الشهابيين، سلمان وحسن من وادي شحرور، في ولاية الجبل عوضاً عن الأمير بشير. وقد حضر إلى بيت الدين خمسماية جندي من الأرناؤوط لمناصرتهما.

في شهر أيلول ١٨٢٣ قام الشيخ بشير بهجوم مركز ضد مدينة عكا، لكنه انتهى بالفشل. فكان ذلك بداية النهاية للشيخ الجنبلاطي.

عندما تسلم الأمير بشير فرمان العفو من السلطنة ترك الديار المصرية بحراً إلى عكا. ولدى وصوله قام الوالي بتأدية مراسم التكريم على شرفه. ثم سلّم الأمير الفرمان إلى الوالي الذي أكرمه بإغداق الهدايا مظهراً له كل محبة وإكرام.

غادر الأمير مدينة عكا في اتجاه لبنان، وعندما وصل إلى صيدا وجد أعيان جبل لبنان ومناصبه، وعلى رأسهم الشيخ بشير جنبلاط، ينتظرون قدومه الميمون. فبات تلك الليلة في المدينة، حيث أمّت الناس بعشرات الآلاف مكان إقامته مرحبة وهازجة بعودته إلى الديار.

في الغد انطلق موكب الأمير بشير نحو بيت الدين. وأمام الموكب كنا نرى الشيخ بشير جنبلاط ممتطياً صهوة حصانه الأبيض كأنه أراد أن يفتح للأمير طريق مركز الإمارة.

وعلى عادات تلك الأيام، وكما يقول المثل اللبناني العامي «أبقاش بدّا قوموا حتى نهنّي». ولما وصل الركب إلى مرج بعقلين، مفترق طريق المختارة بعقلين بيت الدين، توقف الأمير بشير وصرخ بصوته الجهوري:[(٢)]

(١) الشدياق، ج٢، ص١٨٢-١٨٣.

(٢) باز، ص٢٤.

«يا شيخ بشير، درب بيتك من هون مش من هون». وأشار بيده إلى المختارة. وتذكية لهذه الإشارة من الأمير، ولصب الزيت على النار، قفز الشيخ حمود بو نكد أمام الأمير بشير وقال له بصوت عال: «ما عاد حدا بها البلاد بيعرف حدّو». وكان الشيخ بشير عدواً لدوداً لبيت بو نكد. فقفل الشيخ وجماعته إلى المختارة «والخوف يعتريه من بطش الأمير الذي أرسل يعلمه بوجوب دفع ٧٥٠ ألف غرش عن السنة ١٨٢٢، حالاً». وقد تردد الشيخ بشير في الدفع بادئ الأمر لكنه سرعان ما دفع المبلغ، فكان اعترافاً واضحاً بعجزه عن المواجهة.

وعندما استراح الأمير في قصره، رفع الضريبة على أملاك الشيخ من ٧٥٠ ألفاً إلى المليون، وذلك السنة ١٨٢٤ عقاباً له على ما فعله أثناء غيابه. وبدأت مرحلة الاهتزاز الاقتصادي على طريق تصفية الشيخ بشير نهائياً.

دفع الشيخ بشير المبلغ كاملاً، آملاً بأن يرضى الأمير عنه.

لم يقرأ الشيخ الأمور كما يجب أن تقرأ، بل قرر في غفلة من الزمن أن يظهر قوته في شكل استعراضي. لم يطل الوقت على عودة الأمير إلى بيت الدين حتى قصد الشيخ زيارته في قصره «فأتى في موكب عظيم من الرجال». ولما علم أهالي الدير بهذه الزيارة وهذا الموكب، حملوا سلاحهم حالاً وقصدوا القصر الأميري للدفاع عنه وعن ساكنه. «وقد أخبروا الأمير خوفاً من أن يوقع بين الفريقين حادث يكون قاصده الشيخ بشير»[1]. وعند وصول الشيخ إلى بيت الدين دخل مع رجاله وخيالته إلى الباحة الكبرى، عندها، ولإذلاله، طلب الأمير من راعي كلابه في القصر واسمه «الغزلاني» بأن يأخذ عصاً في يده «ويُخرج كل من أتى مع الشيخ بشير خارج البوابة الأولى» ففعل. ولم يبق سوى الشيخ بشير لوحده. فدخل على الأمير «فوجده لم تغيره ألف كيس».[1] فأمره بالجلوس فقدمت له «القهوي» فأخذ الفنجان ويده ترتجف خوفاً من وجود السم فيه.

(١) باز، ص٢٥.

لم تطل المدة حتى طلب الأمير مبلغاً جديداً من المال قدره ألف كيس ثان، فأرسله الشيخ «ظاناً أن الأمير لا بد له من أن يرضى عنه وأن قصاصه قد انتهى». لم يمهله الأمير بل طلب منه مجدداً أن يدفع ألف كيس أخرى، فدفع الشيخ نصف المبلغ وطلب إمهاله بضعة أشهر لسداد الباقي فرفض الأمير، فهرب الشيخ إلى راشيا مع أولاده وأقاربه. عند ذلك تدخّل عبد الله باشا فأصلح ظاهرياً بين البشيرين عندما شعر بخطر والي مصر الداهم، ولم يبد الأمير رفضاً للمصالحة كي لا يستعدي الوالي، قبل أن يستكمل محمد علي باشا استعداداته العسكرية لمهاجمة بلاد الشام والوصول عبرها إلى اسطنبول.

شعر الناس بأن الصراع بين الصديقين اللدودين قد انفجر، ولا يمكن إعادة المياه إلى مجاريها القديمة وأخذوا يرددون «فعلاً إن الجبل لا يتسع لبشيرين...».

لم ينم الشيخ الجنبلاطي على حرير، بل راح يستعد للمعركة الآتية لا محالة. استشار كاخيته الشيخ أبو حصن الدين الذي اقترح عليه ألا يدفع أي ضريبة بعد اليوم قائلاً له: «لأن المير بشير متى سلب مالك هان عليه قتلك، فالأوفق أن نضربه اليوم... يا إلنا يا إلو... ما زال عنا مال...». ومنذ تلك اللحظة راح الشيخ يتصل بالأعوان والأعيان سراً لوضعهم في الأجواء المقبلة للمعركة التي سيشهرها ضد الأمير بشير الثاني.

في بداية ١٨٢٥ انفجر الصراع بين البشيرين، بعد مرحلة قصيرة جداً من الهدوء الذي عقب المصالحة. فنشبت المعركة بين الفريقين. وعشية نشوب هذا القتال كان عبد الله باشا قد أرسل يطالب الشيخ بشير بمال متأخر على الأمير عباس خلال حكمه المؤقت، ولما اعتذر عن الدفع طالباً تمديد المهلة، حنق عليه الوالي وأمر بملاحقته[1].

ولما وقعت الواقعة على الشيخ بشير، بعدما انهزم فريقه أمام القوى المتعددة التي قاتلته إلى جانب الأمير بشير، واضطر إلى الفرار من المختارة إلى جزين فحوران، بعث

(١) أبو صالح، ٢١٧.

الأمير إلى حليفه عبد الله باشا بكتاب يلتمس فيه القبض عليه، فطلب عبد الله باشا من والي الشام القيام بهذه المهمة لوجود الجنبلاطي داخل أراضيه. وبالفعل قبض على الشيخ بشير وبعض مرافقيه الذين أعدم بعضهم في دمشق وأرسل الشيخ مع الباقين إلى عكا بناءً على طلب واليها الذي أبلغ الأمير نبأ الاعتقال، فطلب الأمير منه الإسراع بإعدام الشيخ بشير والشيخ أمين العماد.

وإذ تردد الوالي رغبة في ابتزاز الشيخ مالياً، كاتب الأمير محمد علي باشا طالباً تدخله لتنفيذ الإعدام، فتم له ما أراد ورغب. وهكذا أعدم الشيخ بشير جنبلاط والشيخ علي العماد في عكا خنقاً السنة ١٨٢٥، وأبقي على جثتيهما مطروحتين أمام باب عكا ثلاثة أيام[1]. تحت أشعة الشمس الحارقة.

نهب رجال الأمير دار المختارة ومنازل البلدة وبعدران ومنازل أنصار الشيخ. ثم ضبط الأمير بشير كل أملاك الشيخ وبقيت في حوزته حتى السنة ١٨٤٠. وهدمت دار المختارة، ولم تبنَ من جديد كما كانت إلاّ على يد الشيخ سعيد جنبلاط.

وأراد الأمير أن يتمم نصره فأوعز بسمل عيون معظم الأمراء الشهابيين من الذين اشتركوا في المعركة (عباس وسليمان وفارس) بحضوره شخصياً وبقطع ألسنة الباقين منهم. وقد كتب أحد الرحالة الفرنسيين متهكماً:

«... هكذا نُعم الأمير بشير بهدوء البال...».

وبعد انتصاره في هذه المعركة حمل الأمير لقب «الأمير الكبير».

لقد انفرد الأمير بشير الكبير بحكم الإمارة بعدما اختفى أقوى قادة الدروز «عمود السما»، وكان سقوط الشيخ بشير إيذاناً بالقضاء على أكبر معاقل المقاطعجية القوية في جبل لبنان والتي أخذت مواقعها تتهاوى تباعاً منذ ذلك الحين تحت ضربات المركزية الحاكمة من جهة والنضال الاجتماعي الطبقي من جهة أخرى. لقد سقط «عمود السماء» ولم تسقط السماء!...

(١) الشدياق، ج٢، ص١٩٨.

الفصل الثامن

- الأمير بشير الثاني في خدمة إبراهيم باشا ووالده محمد علي.

- انهيار حكم الأمير بشير ونهاية الإمارة الشهابية (١٨٣١-١٨٤٢)

١ - توطئة

كانت لحكّام مصر على الدوام مصالح استراتيجية في بلاد الشام فكانوا يتطلّعون ويطمعون بها في كل وقت. وكان محمد علي باشا والي مصر من قبل العثمانيين، كغيره من الحكام المصريين الذين أدركوا تلك الأهمية، فعزم على ضمها إلى ملكه. ففي رسالة لقنصل فرنسا في مصر السنة ١٨١١، المسيو دروفاتي، موجهة إلى حكومته، يقول: «إن محمد علي باشا طامع في باشوية سوريا... وقد أخذت فكرة الاستقلال تزداد قوة لديه منذ تغلبه على أعدائه وعلى مشاغبات الجنود والارتباكات التي كانت تسود مالية البلاد».[١] فكانت نية محمد علي ضم بلاد الشام إلى حكمه سواء بالشراء أو بالحرب، وكان السلطان العثماني ينظر بعين الحذر إلى مطامعه في ولاية سوريا إثر مطالبته عدة مرات بضمها[٢]. والسلطان نفسه كان قد وعده بمنحه تلك البلاد كتعويض له إثر مساعدته في حرب المورة، لكنه أخلف الوعد، مع أن محمد علي خسر في هذه المعركة ٣٠ ألفاً من خيرة جنوده وبلغت نفقاتها ٧٧٥ ألف جنيه، كما يقول المؤرخ المصري أحمد فهيم بيومي في كتابه ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا.

(١) أبو عز الدين سليمان، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت المطبعة العلمية ١٩٢٩، ص٣٣.

(٢) رستم، أسد، بشير بين السلطان والعزيز، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٧، ج٢، ص٥٠ و٥٥.

لقد استرعت حرب المورة أنظار الدول الأوروبية إلى قوة الجيش المصري الفتي. لذلك أخذ شأن محمد علي يرتفع في بورصة العلاقات الدولية، وتنافست الدول الأوروبية على توظيف هذه القوة المتنامية كل منها في مجال مصالحها. ففرنسا حاولت التقرب منه بغية تحقيق الحلم الفرنسي القاضي باحتلال سوريا وقطع طريق الهند على الإنكليز في حين أن روسيا كانت تحلم بالوصول إلى المياه الدافئة عن طريق تجزئة السلطنة العثمانية واقتسامها بينما كانت السياسة البريطانية تتمحور حول خوفها على طريق الهند.

وبما أن محمد علي باشا رجل دبلوماسية وسياسة جمع في شخصه الذكاء والدهاء المقرون بالشجاعة وضبط النفس[1]. لجأ إلى تحقيق الحصول على ولاية الشام، بالعنف والقوة[2]، لذلك عمد إلى إيجاد مراكز قوى داخل بلاد الشام تدين له بالولاء، ثم مضى يمتّن ويجذّر علاقاته بها ويكشّفها، سواء مع الأمير بشير الثاني الشهابي أو مع عبد الله باشا والي صيدا ومع حاكم طرابلس مصطفى بربر آغا. وكل ذلك بغية تيسير عمله وتسهيل الاستيلاء على بلاد الشام عندما تسمح الأوضاع الدولية بذلك.

٢ - العلاقة بين الأمير بشير الثاني ومحمد علي باشا والي مصر

أدرك الأمير بشير بدهائه السياسي وتعمقه من خفايا السياسة المحلية إن أي حاكم إقليمي، مهما عظم شأنه، لا يمكنه الاستمرار في سدة الحكم إلاّ إذا كان مدعوماً من إحدى القوى الخارجية الفاعلة. لذلك، ومنذ تجربته السابقة أيام أحمد باشا الجزار وما أعقبها من عزل إثر الموقف المتردد الذي اتخذه من حملة نابليون على عكا، عزم الأمير بشير على توطيد علاقاته مع القوى الإقليمية التي رأى من خلالها أنها

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٥٨-٥٩.

(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٥٢.



MOHAMMED ALI PACHA
(d'après une lithographie belge. Collection Lasseray)
(ISMAÏL. Doc., t. 35 p. 96)

محمد علي باشا - عزيز مصر



IBRAHIM PACHA
(d'après une lithographie belge. Collection Lasseray)
(ISMAÏL, Doc., t. 5, p. 160)

ابراهيم باشا المصري

الوحيدة القادرة على مساعدته في بقائه في السلطة وتنفيذه لمشروع إحكام السيطرة على الإمارة.

وكان، في ١٨١٩، أن توفي والي عكا سليمان باشا صديق الأمير بشير، وحل محله عبد الله باشا، نجل أحد كبار أرباب الدولة في اسطنبول. وكان عبد الله باشا شاباً طموحاً نشيطاً في الحادية والعشرين من العمر. لذلك أبى أن يرى أميراً حاكماً قوياً في لبنان، فعزم على إخضاع الأمير بشير والحط من قدره. وما أن تم تعيينه في منصبه حتى طالبه بدفع ضريبة باهظة. وحين احتجّ الأمير وضع يده على كل الرعايا اللبنانيين الذين صدف، يومئذ، وجودهم في صيدا وبيروت، وعددهم نحو مئة وسبعين شخصاً. واضطر الأمير إلى قبول طلب الوالي، فاستدان مالاً لدفع ما فرض عليه، وأوكل إلى عملائه جمعه من البلاد، الأمر الذي أدى إلى معارضة من أهالي المتن وكسروان انتهت إلى عصيان، بتحريض من الأميرين الشهابيين حسن وسلمان، وهما من أمراء وادي شحرور ومن أنسباء الأمير بشير[1].

لم يتمكن الأمير بشير من جمع الضرائب المفروضة ولا من القضاء على العصيان، فتنازل عن حكم الإمارة في السنة ١٨٢٠ وغادر البلاد إلى حوران، فعين الوالي الأميرين السابقين ليخلفاه.

في غياب الأمير بشير وقعت الفوضى في البلاد، وعجز الأميران بدورهما عن إدارة دفة الحكم، فتنازلا عن الإمارة بموافقة الوالي السنة ١٨٢١، واجتمع أعيان البلاد وأعادوا انتخاب الأمير بشير بموافقة الباشا أيضاً. وما أن عاد الأمير إلى الحكم حتى جرّد حملة ضد العصاة في مختلف المناطق، فسحقهم ونشر الأمن والنظام في البلاد.

ومما لا شك فيه أن هذه الموافقة كانت سبباً ليصبح الامير صديقاً للوالي، وبسبب هذه الصداقة تورّط معه في المشاكل الخارجية. فقد كان عبد الله يطمع في ولاية دمشق التي كانت في عهدة رجل طموح هو محمد درويش باشا. وكانت بين الأمير بشير

(١) باز، ص٢٢.

ودرويش باشا عداوة يعود سببها إلى أن درويش باشا طمع في البقاع، وهو تحت سيطرة الأمير، فأرسل عساكره إليه السنة ١٨٢٠ لتثبيت دعواه لكن رجال الأمير تصدوا للعسكر وردوه على أعقابه. وحين وقع النزاع بين الواليين في السنة التي تلت، سارع الأمير بشير إلى تأييد عبد الله باشا وسار على رأس رجاله لمهاجمة دمشق، نزولاً عند طلب حليفه، فانتصر على واليها في معركة المزة في ٢٦ أيار ١٨٢١.

تدخّل الباب العالي وندّد بعبدالله باشا، وأمر بنقله من عكا التي أضيفت إلى درويش باشا. وإذ أبى الأمير مصالحة درويش على شروطه، اختار لنفسه مغادرة البلاد إلى مصر، تاركاً إمارة لبنان إلى الأمير عباس شهاب. وفي الوقت نفسه، رفض عبد الله باشا الانصياع لأوامر الأستانة، فزحف ولاة دمشق وحلب وأضنه لمحاصرته في عكا في أيلول السنة ١٨٢٢، فاستعان بمحمد علي، راجياً إليه التدخل لمصلحته لدى الباب العالي. وكان الأمير بشير، في هذه الأثناء، قد نزل في القاهرة، في ضيافة واليها محمد علي الذي رحب بوفادته فاستقبله بالبشاشة والترحاب قائلاً له:

«لم يدخل على مصر رجل أعز منك»[١]، معرّفاً الحضور عليه بقوله «هذا كبير عشائر جبل لبنان، تحت يده ماية ألف مقاتل»[٢] وقد جرت بينهما، وهذا شيء طبيعي، مداولات شتى كان بعضها سرياً، وأسرَّ إليه «جميع ما يرغبه منه في جبل لبنان من الخدمة عند الحاجة لأنه كان مزمعاً أن يمتلك بلاد الشام بالسيف»[٣].

نزلت الأستانة عند رغبة محمد علي باشا، فصفحت عن والي عكا عبد الله باشا وعن الأمير بشير الذي غادر مصر، حاملاً

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ص٣٧-٣٨.
- باز، ص٢١.
- مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام، بيروت ج١، ص٤٦٣.
(٢) الشهابي، حيدر، الأمير بشير والدولة العثمانية، ج١، ص٣٩.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٨٠-١٨١.

إلى حليفه في عكا قرار إعادة تعيينه ومن هناك عاد إلى لبنان.

ولما عاد بشير الثاني إلى لبنان، صديقاً وحليفاً لمحمد علي، شعر بأنه من القوة بحيث ينصرف إلى القضاء على من تبقى من خصومه، وفي طليعتهم حليفه السابق الشيخ بشير جنبلاط. إذ كان الشيخ قد سعى في غياب الأمير إلى منع عودته، متآمراً في ذلك مع الأمير عباس شهاب، الحاكم المؤقت ومع الأمراء في وادي شحرور.

قتل والي عكا، الشيخ بشير جنبلاط خنقاً، وأصبح الأمير بشير وحده السيد المطاع في لبنان وبذلك سدد ضربة قاضية إلى مكانة الدروز فيها.

٣ – الحملة المصرية على بلاد الشام (١٨٣١)

بعد أن اطمأن محمد علي إلى أوضاع مصر الداخلية وإلى قدراته العسكرية، وبعدما شعر بأن الأجواء الدولية أصبحت مؤاتية لتنفيذ مشروعه في الاستيلاء على بلاد الشام، راح يترقب الفرصة المناسبة للانقضاض عليها بعدما فشلت كل جهوده للحصول عليها سلماً. فالسلطان محمود الثاني رفض رفضاً قاطعاً أن يوليه هذه البلاد، عوضاً عن بلاد المورة التي وعده بها لولده إبراهيم. لذلك قرر اجتياحها بالقوة. ولتبرير ذلك اصطنع خلافاً مع والي عكا عبد الله باشا، وبعث ابنه إبراهيم باشا في خريف ١٨٣١ لاحتلال البلاد. وفي ٢٣ تشرين الثاني ضرب إبراهيم الحصار على عكا، فيما كانت الدولة العثمانية منشغلة بإخماد ثورة البوسنة والقضاء على أعمال الشغب التي قامت في ألبانيا، وفي الوقت الذي تم سحب القوات العثمانية الموجودة في حلب نحو بغداد للقضاء على حركة التمرد التي قام بها واليها داوود باشا، وبينما كانت دمشق تعيش في حال من الفوضى والاضطراب بعد قتل السكان واليها سليم باشا، وانصراف السلطنة لحربها مع روسيا[1]، ومستفيداً أيضاً من انهماك الدول

(١) مشاقه، مخايل، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب – نشره أسد رستم وصبحي أبو شقرا، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٧٥، ص١٠٩-١١٠.

الأوروبية في معالجة وإخماد الثورات التي نشأت بتأثير الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وانفجرت في معظم الدول الأوروبية بين ١٨٣٠-١٨٣٤.

٤ - الأمير بشير الثاني ينفّذ السياسة المصرية فيقضي على نفسه وعلى الإمارة

كان لزحف الجيش المصري على عكا رد فعل مباشر في لبنان، نظراً إلى صلة الود بين الأمير ومحمد علي، فما أن اقترب إبراهيم باشا من عكا، حتى وقع الخصام بين الدروز والموارنة في البلاد، وخاصة في دير القمر والبقاع والمتن، فيما حاول الدروز تنظيم ثورة ضد الأمير لإحراج إبراهيم باشا في زحفه.

ما أن وصل إبراهيم باشا إلى عكا حتى دعا الأمير إلى نجدته، فتردد وحاول انتحال الأعذار، لأنه خشي موقفاً معادياً للباب العالي. إلاّ أن محمد علي وجه له كتاباً شديد اللهجة، يهدده باجتياح لبنان إذا هو تردد في البر بوعوده التي قطعها له. وكان لهذا الكتاب أثره الحاسم إذ سارع الأمير إلى تلبية الدعوة، فانضم إلى القوات المصرية بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل. فطلب منه بعدما زود بجنود مصريين احتلال المدن الأخرى غير عكا. فاحتل الأمير بسهولة صور وصيدا وبيروت. وحين أبدت طرابلس بعض المقاومة، هب إبراهيم باشا بنفسه إلى نجدة الأمير فاحتلت المدينة. وكانت القوات المصرية قد احتلت بيت الدين ودير القمر لحفظ الأمن في الشوف. وعندما سقطت عكا في ٢٧ أيار ١٨٣٢ واستسلم عبد الله باشا، زحف إبراهيم باشا، يرافقه الأمير بشير الثاني، على دمشق لاحتلال الأنحاء الشامية، وهرب الوالي العثماني منها، إلاّ أن القوات المصرية واللبنانية لحقت به إلى حمص، حيث هزمته في تموز ١٨٣٢، وهكذا خضعت بلاد الشام كلها للسيطرة المصرية، ولكن إلى حين.

بدأ التسلط المصري على بلاد الشام فعلياً في السنة ١٨٣٣، وأصبح الأمير بشير الحليف الوفي لإبراهيم باشا، وواحداً من دعائم حكمه. في غضون ذلك، كانت أغلبية سكان البلاد ترى في الأمير بشير واحداً من عملاء المصريين، يخضع لهم وينفذ كل ما

يطلبونه منه بلا تردد. لقد كان السوط الذي يضرب به إبراهيم باشا، أهالي الإمارة وبلاد الشام.

في بداية الحكم المصري، كان التمرد الذي قام بالإمارة قصير الأمد، إذ سرعان ما تمكنت القوات المصرية من إعادة النظام بسرعة «وأخذت الرهائن من عائلات الأعيان الدروز إلى معسكر إبراهيم باشا في عكا». لكن الشخصيات الدرزية الرئيسية نجحت في الانضمام إلى القوات العثمانية المتجمعة في شمالي سوريا. وكان بين هؤلاء «المشايخ»: أحمد جنبلاط، خطار العماد، ناصيف نكد، يوسف عبد الملك، حسين تلحوق، فارس العيد وحمود عطالله، وهم تقريباً أبرز أعيان العائلات الدرزية في الجبل.

لقد شهدت الإمارة تحت الحكم المصري مرحلة من الهدوء لم يسبق لها أن شهدت مثيلاً له. فالمقاومة الدرزية في الجبل ضد الوجود المصري كانت ضعيفة للغاية، لأن الأعيان إما قتلوا أو أخذوا رهائن أو انتقلوا إلى جانب العثمانيين أو لجأوا إلى جنوب سوريا. فالتنسيق كان معدوماً والمعنويات كانت متدنية جداً. أما الأمير بشير فقد فقد الكثير الكثير من سلطاته، فلم يعد له الحق في الحكم بالموت أو الشنق، حتى أن عقوبات التأديب خفضت إلى السجن البسيط أو إلى بعض جلدات بالسياط. أما في ما يتعلق بأموال الميري والضرائب على التجارة، فقد مارس البشير الثاني سلطاته كاملة. لقد بلغت الضرائب ٣ أضعاف ما كانت عليه، كما أن التجنيد الإجباري فرض في شكل متقطع تبعاً للحروب المستمرة التي كان يشغلها العثمانيون وحلفاؤهم ضد الوجود المصري. وكثيراً ما كان العصيان المسلح يرتدي طابعاً طائفياً بارزاً، مما يدفع بالضرورة إلى تجنيد إجباري وإرسال قوة عسكرية بعد تجنيدها لقمع هذا العصيان أو ذاك، إلى الظهور بمظهر طائفي واضح.

لقد ارتكب الأمير بشير الثاني خطأه الكبير بتنفيذ كل ما يطلبه منه إبراهيم باشا حرفياً ومن دون تردد أو الرجوع إلى تقاليد أهالي الجبل المتأصلة في النفوس، والتي إذا لم تحترم ستؤدي إلى بروز العصيان المسلح والانتفاضات الشعبية «العاميات».

لـقـد كـان هـدف إبـراهـيـم بـاشـا تحسين مدخوله من كل طائفة في الجبل، لكنه، ودون أن يدري، لم يفعل سوى إذكاء الريبة والحسد الطائفيين، حيث كان كل شخص يتمسك بالامتيازات الخاصة المرتبطة بوضعه الطائفي.

أمام هذا العدد الكبير من العصيان والثورات ضد إبراهيم باشا والأمير بشير الثاني، تنبهت الدول الأوروبية العظمى إلى الخطر الجسيم الذي كانت تجسده طموحات الحاكم المصري محمد علي باشا بالإمبراطورية العثمانية، فكان من مصلحتها إبعاد هذا الخطر والإبقاء على إمبراطورية هرمة مفككة. لذلك تحالفت جميعها لمحاربة إبراهيم باشا وحليفه.

في السنة ١٨٤٠ طردت القوات المصرية من بلاد الشام، فوقف الأمير بشير وحيداً أمام شعبه الذي ناصبه العداء، فغادر بيت الدين إلى صيدا، حيث استقل بارجة بريطانية إلى منفاه في مالطه، ومن ثم إلى استنبول حيث توفي في ٢٩ كانون الأول ١٨٥٠ عن عمر ٨٣ سنة.

ولخلافته وقع اختيار الحلفاء على الأمير بشير الثالث، الشهابي العديم الكفاءة، والذي كان الباب العالي قد عينه أميراً على لبنان في ٣ أيلول، بفرمان خاص.

عندما سقط بشير الثاني سقط أبرز الأعيان من الطراز القديم، لأن السلطة المركزية، بسعيها إلى التجديد، كانت توجه ضرباتها إلى الرأس أولاً. وقد عبّر رحيل الأمير عن تصفية نظام بأكمله وجاءت اهتمامات أخرى لتخل بالعادات والتقاليد.

لقد أدّت سياسة إبراهيم باشا إلى تأجيج العداءات الطائفية، ثم إنها لم تترك للأمير بشير الثاني سوى العميل، وفي مثل هذه الظروف «بدت سلطة الأمير أكثر قمعاً للفلاحين الجبليين لا سيما أنها تجردت من مظهر الاستقلالية، ولم يعد قصره ورمز عظمته سوى مشهداً مكلفا».

هكذا بدأ عهد جديد في تاريخ لبنان. فعندما غاب الأمير بشير الثاني عن المسرح السياسي اللبناني، زالت معه السيطرة على الانقسامات الطائفية والحزبية التي طالما ساهم الأمير في إيجادهما. لقد اختفت اليد القادرة على إبقاء الألفة بين زعماء الإقطاع

وبين الدروز والنصارى. لذلك ما أن تسلم الأمير بشير الثالث الحكم في لبنان حتى بُعثت النعرات الطائفية الكامنة من جديد واشتد التوتر الاجتماعي والطائفي إلى حد الأزمة وعانى لبنان عشرين سنة (١٨٤٠-١٨٦٠) من النزاعات والاضطرابات كادت تقوده إلى الخراب التام.

بعد السنة ١٨٤٠ اشتدت الخصومة وتفاقمت بين الدروز والمسيحيين وعاد التباعد بين الطائفتين يذر قرنه. ذلك أن الأمير بشير الثاني كان قد سلب طبقة الإقطاعيين الدروز، بالمصادرة والبيع الإلزامي، أملاكاً واسعة توزعت بالبيع في ما بعد على المتولين من نصارى المدن والقرى. وحين أخذت أسر الدروز الإقطاعية بعد ١٨٤٠ تطالب بإعادة هذه الأملاك إليها، وقع النزاع وفي ذلك يقول القنصل الفرنسي في بيروت آنذاك:

«قلما وجدت قطعة أرض لا نزاع عليها بين نصراني ودرزي»(١). ولم يكن النزاع على الأملاك هو السبب الوحيد للتوتر، فقد تركت ثماني سنين من الاحتلال المصري تراثاً من الشك والريبة بين الفريقين لم يكن من السهل تجاوزه.

لم يتمكن الأمير بشير الثالث من حكم الإمارة، خاصة عندما وقعت الاضطرابات الطائفية فيها، فأعلن العثمانيون عزمهم على التدخل للتهدئة، كما كانت تطلب منهم الدول الأوروبية، فأرسلوا مصطفى باشا، أحد كبار الضباط إلى بيروت لهذا الغرض، فعمل على وضع حد لاستقلال لبنان الداخلي وسعى إلى إقناع الجميع بفوائد الحكم العثماني المباشر. وحينما بلغت الفوضى منتهاها، سدد العثمانيون ضربتهم القاضية. ففي ١٣ كانون الثاني ١٨٤٢، أي بعد ٣ أشهر من بدء الاضطرابات، استدعى سليم باشا ومصطفى باشا الأمير بشير الثالث إلى بيروت، حيث رست باخرة لنقله إلى الأستانة. وأصر بشير الثالث على مغادرة دير القمر بأبهة تليق بمكانته، فرافقته كوكبة من الحرس الأميري، لكنه ما أن خرج من

---

(١) إسماعيل، عادل - تاريخ لبنان من القرن السابع عشر إلى اليوم - بيروت ١٩٥٨، ج٥، ص١٠٩.

البلدة حتى انقضت على حرسه جماعة من دروز الشوف وعمدت إلى التنكيل بالأمير.

وصـل الأمير بشير الـثـالث إلى بيروت وغادرها في ١٥ كانون الثاني ١٨٤٢. وفي ١٦ منـه دعا مصطفى باشا أعيان البلاد إلى الاجتماع في بيروت ليعلن سقوط الإمارة الشـهابيـة في لبنان، إذ عُين عمر باشا النمساوي من حاشيته حاكماً على الجبل.

ففيما رحب الدروز بالوضع الإداري الجديد ترحيباً بالغاً، رفض الموارنة الاعتراف به كإجراء دائم، وأصروا على إعادة الإمارة إلى الجبل.



الأمير بشير الثاني الشهابي

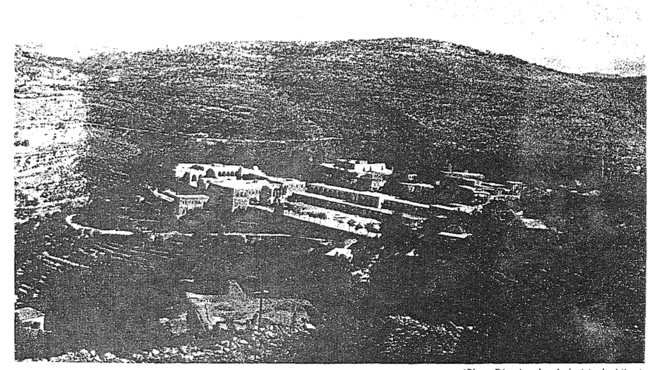


أحمد باشا الجزار

Pl. XII



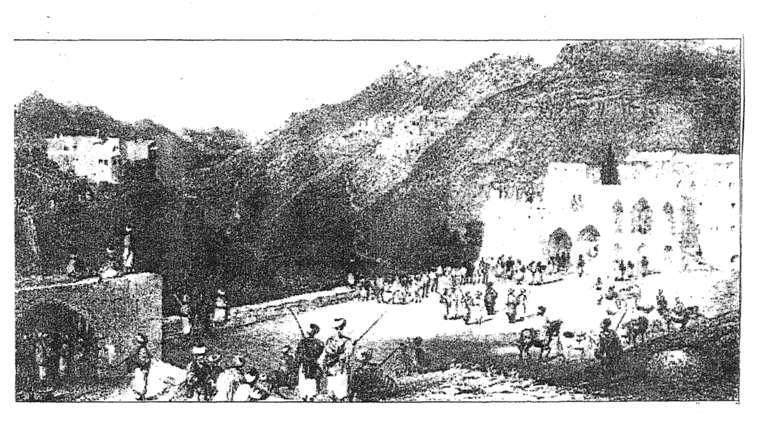
صورة الأمير بشير الثاني الكبير



(Photo Direction des Antiquités du Liban)

Le Palais de Beiteddine. Vue générale *(voir page 196)*.

قصر بيت الدين - قصر الأمير بشير الثاني الكبير



قصر بيت الدين

المصادر والمراجع

١ - أبو صالح، عباس- التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان - بيروت ١٩٨٤.

٢ - الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث - دار النهار للنشر بيروت ١٩٦٨.

٣ - الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان جزئين - الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٧٠.

٤ - آل صفاء ، محمد جابر - تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة - بيروت دون تاريخ.

٥ - الدبس، يوسف، تاريخ سوريا، بيروت ١٩٨٧، الجزء ٧.

٦ - الخالدي أحمد الصفدي، تاريخ الأمير فخر الدين، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٧.

٧ - الفقيه، محمد تقي - جبل عامل في التاريخ، دار الساعة، بغداد ١٩٤٥.

٨ - المعلوف، عيسى اسكندر، داواني القطوف في تاريخ بني معلوف، المطبعة العثمانية بعبدا ١٩٠٧.

٩ - أبو شقرا، يوسف خطار، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، بيروت ١٩٥٢، مطبعة الاتحاد.

١٠ - إسماعيل، عادل، المحررات السياسية والدبلوماسية، بيروت ١٩٧٥.

١١ - إسماعيل، عادل، تاريخ لبنان من القرن ١٧ إلى اليوم، بيروت الجزء ٥.

١٢ - الشهابي، حيدر محمد، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين - الجامعة اللبنانية ١٩٦٩.

١٣ - الشهابي، أحمد حيدر، الأمير بشير والدولة العثمانية، الجزء الأول.
١٤ - الشهابي، أحمد حيدر، تاريخ أحمد باشا الجزار، تحقيق أنطونيوس شبلي وخليفه، مكتبة أنطوان، بيروت ١٩٥٥.
١٥ - الشهابي، أحمد حيدر، الغرر الحسان، في تواريخ حوادث الزمان، تحقيق بستاني ورستم، الجامعة اللبنانية ١٩٦٩.
١٦ - أبو عز الدين، سليمان، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت، المطبعة العلمية ١٩٢٨.
١٧ - بازيلي، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٨.
١٨ - باز، رستم، مذكرات، بيروت الجامعة اللبناني، ١٩٦٨، الطبعة الثانية.
١٩ - حمزة، نايف نديم، التنوخيون - دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٤.
٢٠ - حتّي، فيليب - لبنان في التاريخ، دار الثقافة، بيروت دون تاريخ.
٢١ - خاطر، لحد، بين أمير وراهب - منشورات جامعة الكسليك ١٩٨٨.
٢٢ - رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت ١٩٣٠-١٩٣٤.
٢٣ - رستم، أسد، بشير بين السلطان والعزيز - القسم الأول، منشورات الجامعة اللبنانية ط٢ ١٩٦٧.
٢٤ - رباط، إدمون، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، بيروت الجامعة اللبنانية ١٩٧٣.
٢٥ - سويد، ياسين، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٥.
٢٦ - شبلي، ميشال، تاريخ لبنان في عهد الأمراء - ١٦٣٥ - ١٨٤١، بيروت ١٩٨٤، منشورات الجامعة اللبنانية.
٢٧ - كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب، بيروت ١٩٦٨.

٢٨ - مفرج، طوني، لبنان الأصيل ليس طائفياً - بيوغرافيا، جبيل - لبنان ١٩٩٩.

٢٩ - مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام، بيروت دون تاريخ.

٣٠ - مشاقه، مخايل، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، بيروت ١٩٧٥.

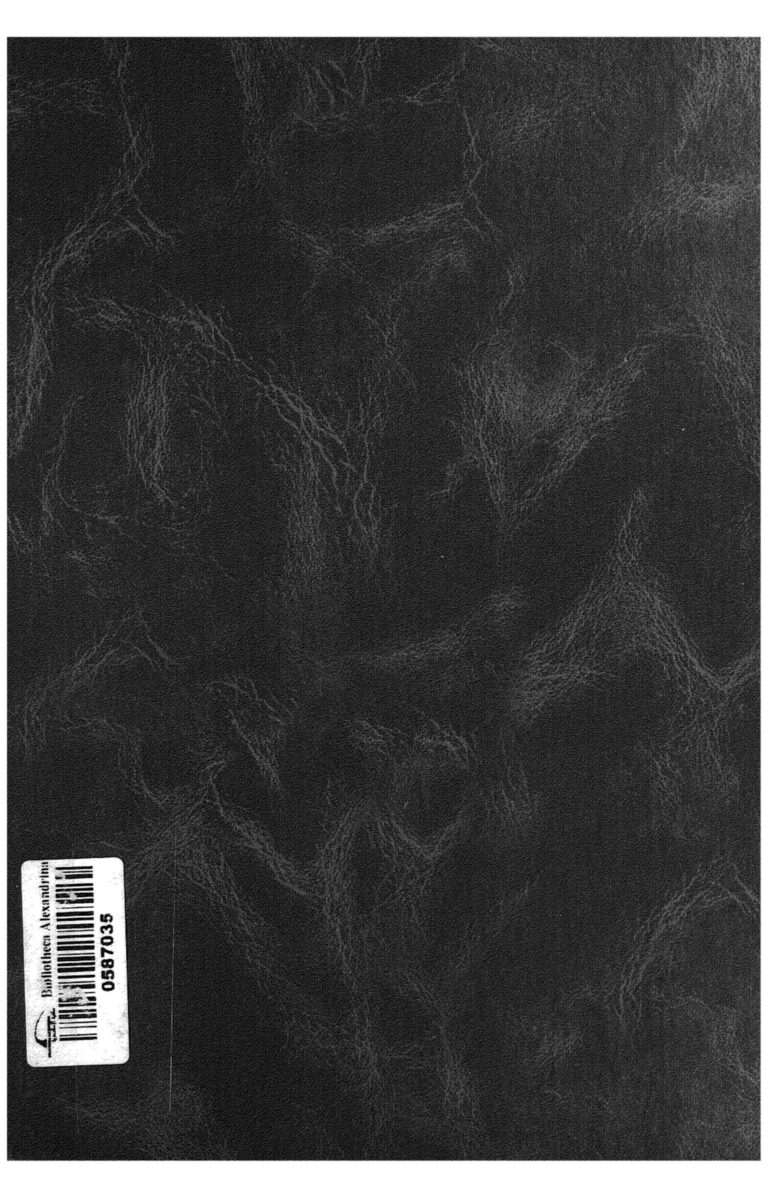
٣١ - لا كروا، إدوار - أحمد باشا الجزار ترجمة جورج مسرّة، ساو باولو ١٩٢٤.

٣٢ - Volney, voyage en Egypte et en Syrie, Ed Mouton et Cie, Paris, 1959.

فهرس الجزء (١٩)

الخرائط

الصور:


Bibliotheca Alexandrina
05870035